
فلسفة الدين
وظاهرة التدين الشكلي
حسن اسماعيل

فلسفة الدين

وظاهرة التدين الشكلي

فلسفة الدين

وظاهرة التدين الشكلي

مقدمة

لم يعجبني منذ أن وعيت وضع المسلمين وأحوالهم وما هم عليه ومن أشد الأمور التي تجعل رؤيتي تلك سوداوية وتشاؤمية هو وعي وفهمي لحالة التناقض الغريبة التي يعيشها أغلبية أفراد المجتمع المسلم فتراهم من جهة متمسكين بعقيدتهم واسلامهم ومن جهة أخرى فأن تصرفاتهم وأفعالهم وسلوكهم يناقض ما يقتضيه الايمان والاسلام من معاملة حسنة وصدق وتهذيب وأخلاق حميدة وغير ذلك .

كان في البلدة التي أعيش فيها رجلا شهد كل الأهالي على تدينه وتمسكه بالدين و أن حكم هذه البلدة على ذاك الرجل كان حكما ظاهريا وشكليا ليس الا فمظاهر الرجل من حيث لباسه وحديثه المستمر عن قال الله تعالى وقال رسوله الكريم ولحيته وسبحته التي يسبح بها طوال الوقت في رحله وترحاله وسجادة الصلاة التي كان يضعها في مكان ظاهر مكشوف في محله التجاري ليراها القاص والداني ونسخة القرآن الكريم التي كان يقرأ كلها علامات واثباتات توحي للمغفلين بما لايدع للشك على حسن اسلام الرجل وتدينه وتعلقه بالله .

قدر لهذا الرجل أن يحج بيت الله الحرام وقبل أن يعود من حجه المبارك قام أولاده بناء على طلب منه باضافة لقب (الحاج) على اسم محله ليصبح (محل الحاج فلان الفلاني) ليعلم الجميع - وهم يعلمون - أنه قد أدى فريضة الحج وأنه كمسلم ملتزم ختم عباداته بهذه الفريضة التي محت ما تقدم من ذنوبه وعاد كما يوم ولدته أمه بلا خطيئة أو ذنب .

لم تمض شهورا طويلة ليكتشف أهالي البلدة أن (صاحبنا الحاج) ذهب للحج (كسكين وعاد كالمنشار) كما يقول أبناء البلدة في أمثالهم وهو مثل يضرب في حالة تفاقم الفعل من سيئ الى أسوأ وصار الرجل يبيع بأضعاف مضاعفة ولأن أكثر أهالي البلدة هم من المغفلين فثابروا على الشراء من عنده هذا الأمر أدخل الغيرة والحسد في قلوب أصحاب المحلات التجارية ولم تمضي عدة سنوات حتى صار جميعهم (حجاجا) وصارت كل أسماء محلات ودكاكين البلدة مسبوقة بلقب (الحاج) ماعدا محلا واحدا كان صاحبه رجلا مسيحيا يدعى (جورج) وقد سألته ذات مرة لماذا لا تحج ثم تغيير أسم محلك ليصبح (محل الحاج جورج) أسوة بغيرك من أصحاب المحلات في هذه البلدة فضحك الرجل طويلا .

وهكذا أستطاع أصحاب المحلات أن يستغلوا لقب ديني لتحقيق ربح دنيوي ؟

قصص كثيرة من ذات النوع والنمط مرت في حياتي تتعلق بحالة استغلال الدين بفعل (التدين المغرض) لتحقيق مأرب ومنافع شخصية ولا مجال لذكرها كلها ومن المؤكد أنكم أعزائي القراء تعرفون قصصا مشابهه كثيرة .

ومن القصص المشهورة عن حالات استغلال الدين بأسلوب ووسيلة التدين المغرض قصة الطير الذي أشتكى لسيدنا سليمان عليه السلام .

وفيها أن طائراً جاء إلى بركة ماء ليشرب، لكنه وجد أطفالاً بقربها، فخاف منهم وانتظر حتى غادروا صدفة جاء رجلٌ ذو لحيةٍ طويلةٍ إلى البركة، فقال الطير في نفسه: هذا رجلٌ وقورٌ لا يمكن أن يؤذيني، فنزل إليها ليشرب، لكن الرجل رماه بحجر ففقأ عينه. ذهب الطائر إلى النبي سليمان (عليه السلام) شاكياً، فاستدعى الرجل وسأله: ألك حاجةٌ بهذا الطائر حتى رميته ؟

فقال: لا عندها أصدر النبي سليمان (عليه السلام) حكمه بأن تُفقَأ عين الرجل، غير أن الطائر اعترض قائلاً : يا نبي الله ليست عينه من غرّر بي، بل لحيته هي من خدعتني، لذا أطالبُ بحلقها عقوبة له، حتى لا يخدع بها أحداً غيري".

(لحيته هي من خدعني) جملة واحدة أن صح انها قيلت على لسان طائر حيوان فيها الكثير والكثير من العبر والحقائق والمظاهر التي نعيشها اليوم كبشر في هذا الوقت .

أنظر الى ظاهرة تسمية المساجد بأسماء من ساهم في بناءها حيث يكتب بالخط العريض بنى هذا المسجد المغفور له فلان الفلاني ويصبح هذا الجامع أو المسجد معروفا بأسم من بناه هناك ايضا كثير من المرافق أو الخدمات التي أقامها (محسنون) كتبت عليها أسمائهم وأذكر هنا حكاية صاحب أحدى محطات تعبئة الوقود للسيارات والتي أقام (وهو من أصحاب الطرق الصوفية) مسجدا صغيرا في محطته ليصلي فيه المسافرين ولكن ما يجعلنا نتحدث عن الرجل (ونغتابه) انه كان يشتري البنزين المهرب بسعر زهيد ثم يمزجه مع البنزين الذي تبيعه الدولة له ثم يبيع البنزين المغشوش بالسعر الحكومي ويربح بذلك أرباحا خيالية كيف لا وقد صار عنده عشرون محطة محروقات من وراء عمليات الغش والتهريب وغير ذلك .

منذ زمان بعيد كنت أسأل نفسي لماذا هذا التناقض العجيب الذي يعيشه المسلمين فديننا وتعاليمنا وقرأننا وسيرة رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام فيهم أعظم منهاج تربوي أخلاقي على وجه المعمورة فلماذا تصرفاتنا وأفعالنا تخالف عقيدتنا وشرعنا بينما نجد أتباع الديانة المسيحية مثلا يسيرون على منهج رسالتهم والذي يحتوي أعشار ما تحويه الرسالة الاسلامية من وعظ و أرشاد وحكمة وهدى وأخلاق ولقد لاحظ هذه الحالة الأمام محمد عبده عندما ذهب لمؤتمر باريس عام 1881 م، ثم انتهي المؤتمر وعاد الى بلده مصر فقال (ذهبت للغرب فوجدت إسلاماً ولم أجد مسلمين ولما عدت للشرق وجدت مسلمين ولكن لم أجد إسلاماً) .

ان انسلاخ المسلمين عن جوهر الاسلام وروحه وانتماءهم له شكليا ومظهريا وأسميا يشكل معضلة حضارية ومشكلة عقائدية وأخلاقية كبيرة يجب أن يعرف أسبابها بدقة وبموضوعية بل هو مرض وعلة أصابتهم وهذا يتطلب أعادة النظر في كل المناهج التعليمية والتربوية والوعظية والفقهية لأن هذه المناهج تركز على مسألة العبادات والفقه والتراث التاريخي السلفي دون أن تعطي للمعاملة والأخلاق والتربية الدينية و الوجدانية حظا أكبر يجب أن تتعلم الأجيال القادمة أن من يحترم الأخرين ويصدق في مواعيده وتعامله ولا يغتاب الناس أو يسرق أموالهم هو أقرب للدين الحنيف وأكبر درجة عند الله من الذي يحافظ على صلواته الخمسة ويؤدي فروضه ولا يأمن من شره أحدا .

علينا أن نعرف معنى الإسلام الحقيقي ومعنى أن نكون مسلمين حقيقين .

علينا أن نعلم الناس ونتعلم نحن أيضا أن الدين هو المعاملة بحق وحقيقي .

نتعلم أيضا أن أسوتنا برسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام تفرض علينا أن نؤمن ونفعل بما قاله وفعله ومن ذلك أن أماطة الأذى عن الطريق والقاء السلام ومعاودة المرضى واكرام الضيف والصدق في القول واحترام حقوق الجار وغيرها وغيرها من القيم كلها من شعب الايمان ومكارم الأخلاق كان يفعلها رسولنا الكريم وهي خير لنا من حف الشوارب وغيرها من الظواهر والمظاهر .

علينا أن تعلم أن صلاتنا في البيت - بسرية وخفاء- خير لنا من صلاة الفرائض في المساجد اذا كان الهدف منها أن يرانا الناس لنخدعهم بها ونحن لا نخدع الا أنفسنا في الحقيقة والواقع ..

لقد كان الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام معلما أخلاقيا عظيما قال الله فيه (أنك على خلق عظيم) بالاضافة الى كونه نبيا ورسولا ويجب أن نأخذ ونسير على هدى من هذه الأخلاق العظيمة فهذه تصلح بالنا وأحوالنا أكثر من صيامنا في رجب أو ليلة النصف في شعبان أو نصوم رمضان ولم تتطهر قلوبنا من الغل والحقد والكراهية والحسد .

ان كتابنا هذا مختلف كليا عن كتبنا وأبحاثنا السابقة من حيث موضوعه وأسلوب كتابته وصياغته فمن ناحية الموضوع فهو يختلف عن غيره بأنه ركز على ظاهرة سلبية منتشرة في المجتمعات الاسلامية وفي أبحاثنا السابقة كان اهتمامنا بالجوانب النظرية والفكرية أي تطور العقل العربي في رؤيته للدين والشريعة .

أما من حيث أسلوبنا الذي اعتمدناه هنا فهو أسلوبا ناقدا لدرجة التهكم والانفعال ممزوجا بعاطفة جياشة وذلك لسبب وجيه وهو ان موضوع البحث من القضايا الحساسة والمؤلمة التي تمس التدين والتي أثرت بشكل واضح على سمعتة ومكانته الحضارية والانسانية .

وان الحديث عن هذه المظاهر السلبية بهذه الصراحة والجرأة والقوة النقدية سيدفع المتشددين للطعن في كتابنا هذا بحجة المساس بالدين ونشر غسيل المسلمين وكشف عوراتهم وعيوبهم .

وسنرد على هؤلاء سلفا ونقول : ان الطعن في المظاهر السلبية للتدين والاسلام الشكلي والتي أصبحت ظاهرة عامة لا يعني الطعن في الدين كنظرية وشريعة ونصوص وقواعد انما الطعن في سوء تطبيقها وفي من يخالف أحكام الدين وأركانه بسلوكه طرقا ملتوية وجاهلة لتطبيقه وممارسة شعائره بطرق مبتدعة ومستوردة ومقلدة .

ان غاية هدفنا من هذا الكتاب هي اسهامنا في بيان حقيقة دين الله وشريعته وأحكامه وبيان ما لحق بهذا الدين من بدع وتزييف وتحريف من خلال انتقادنا للتصرفات والممارسات الخاطئة وضرب الأمثلة الواقعية عليها ومحاولتنا في نفس الوقت بيان الوجه الصحيح للدين وبيان المعنى الحقيقي للتدين نرجو من الله أن يوفقنا في تحقيق مرادنا وهدفنا هذا وأن أخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين .

حسن اسماعيل

تعريفات

الدين

الأديان : جمع دين، والدين في اللغة بمعنى: الطاعة والانقياد.والدين في الاصطلاح العام : ما يعتنقه الإنسان ويعتقده ويدين به من أمور الغيب والشهادة

وفي الاصطلاح الإسلامي : التسليم لله تعالى والانقياد له .

والدين هو ملة الإسلام وعقيدة التوحيد التي هي دين جميع المرسلين من لدن آدم ونوح إلى خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم .

قال الله تعالى : إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ (آل عمران: 19)_ وبعد أن جاء الإسلام فلا يقبل الله من الناس دينا غيره، قال الله تعالى): وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) آل عمران: 85

وقال تعالى: (الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) المائدة: 3

الدين في اللغة : مشتق من الفعل الثلاثي: (دان)، وهو تارة يتعدى بنفسه، وتارة باللام، وتارة بالباء، ويختلف المعنى باختلاف ما يتعدى به، فإذا تعدى بنفسه يكون (دانه) بمعنى ملكه، وساسه، وقهره وحاسبه، وجازاه .

وإذا تعدى باللام يكون (دان له) بمعنى خضع له، وأطاعه .

وإذا تعدى بالباء يكون (دان به) بمعنى اتخذه ديناً ومذهباً واعتاده، وتخلق به،

واعتقده .

وهذه المعاني اللغوية للدين موجودة في (الدين) في المعنى الاصطلاحي كما سيتبين؛ لأن الدين يقهر أتباعه ويسوسهم وفق تعاليمه وشرائعه، كما يتضمن خضوع العابد للمعبود وذلته له، والعابد يفعل ذلك بدوافع نفسية، ويلتزم به بدون إكراه أو إجبار.

الدين في الاصطلاح

اختلف في تعريف الدين اصطلاحاً اختلافاً واسعاً حيث عرفه كل إنسان حسب مشربه، وما يرى أنه من أهم مميزات الدين .

فمنهم من عرفه بأنه (الشرع الإلهي المتلقَّى عن طريق الوحي) وهذا تعريف أكثر المسلمين .

ويلاحظ على هذا التعريف قَصرُهُ الدين على الدين السماوي فقط، مع أن الصحيح أن كل ما يتخذه الناس ويتعبدون له يصح أن يسمى ديناً، سواء كان صحيحاً، أو باطلاً، بدليل قوله عز وجل: (وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (آل عمران: 85

وقوله عزّ وجلَّ : لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)الكافرون: 6(، فسمَّى الله ما عليه مشركو العرب من الوثنية ديناً .

أما غير المسلمين فبعضهم يخصصه بالناحية الأخلاقية كقول (كانت) (بأن الدين هو المشتمل على الاعتراف بواجباتنا كأوامر إلهية.

وبعضهم يخصصه بناحية التفكر والتأمل كقول (رودلف إيوكن): (الدين هو التجربة الصوفية التي يجاوز الإنسان فيها متناقضات الحياة). إلى غير ذلك من التعريفات التي نظرت إلى الدين من زاوية، وتركت أوجهاً وزوايا عدة.

وأرجح التعريفات أن يقال : الدين هو اعتقاد قداسة ذات، ومجموعة السلوك الذي يدل على الخضوع لتلك الذات ذلًّا وحبًّا، رغبة ورهبة.

فهذا التعريف فيه شمول للمعبود، سواء كان معبوداً حقًّا- وهو الله عز وجل- أو معبوداً باطلا، وهو ما سوى الله عز وجل .

كما يشمل أيضا العبادات التي يتعبد الناس بها لمعبوداتهم، سواء كانت سماوية صحيحة كالإسلام، أو لها أصل سماوي ووقع فيها التحريف والنسخ كاليهودية، والنصرانية، أو كانت وضعية غير سماوية الأصل كالهندوسية، والبوذية، وعموم الوثنيات .

كما يبرز التعريف حال العابد، إذ لابد أن يكون العابد متلبساً بالخضوع ذلًّا وحبًّا للمعبود حال العبادة، إذ إن ذلك أهم معاني العبادة .

ويبين التعريف أيضاً هدف العابد من العبادة ، وهو إما رغبة أو رهبة، أو رغبة ورهبة معاً، لأن ذلك هو مطلب بني آدم من العبادة. والله أعلم.

فالدِّين في اللغة، يطلق على عدة معانٍ :

الأول: الملك، والسلطان، كما في قوله تعالى: (مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ) }يوسف:76{، أي: في ملكه، وسلطانه.

الثاني: الطريقة، كما في قوله تعالى: (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) }الكافرون:6{.

الثالث : الحكم، كما في قوله تعالى: (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ) }الأنفال:39{.

الرابع : القانون الذي ارتضاه الله لعباده، كما في قوله تعالى: شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ }الشورى:13{.

الخامس: الذل، والخضوع، يقال: دان لفلان، أي: خضع له، وذلّ.

السادس: الجزاء، كما في قوله تعالى: (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) }الفاتحة:4{، أي: يوم الجزاء.

واصطلاحًا هو: ما شرعه الله لعباده من أحكام .

المعنى الحقيقي للتدين

حقيقة التدين هي التمسك بجميع أوامر الدين وترك نواهيه ظاهراً وباطناً، فمن تمسك بالدين ظاهراً وباطناً فهو المتدين حقيقة، ومن تمسك به ظاهراً وتركه باطناً فهو مدَّعٍ للتدين، وليس متديناً، والدعاوى ما لم تكن عليها بينات فأهلها أدعياء، وللتدين مظاهر متعلقة بالقلب والجوارح ينبغي مراعاتها، والحرص على تحقيقها .

التدين مصطلح حديث لمضمون قديم، في اللغة مأخوذ من كلمة دين، وهي كلمة جاءت بعدة معانٍ أهمها: التسليم والطاعة والانقياد، وأما التدين ومنه (متدين) فهو من باب تفعّل الذي من معانيه (الاتخاذ)، فيقال: فلان متدين بدين الإسلام، بمعنى مُتّخذٌ للإسلام دينا له، ولما كان (الدين) هو ذات التعاليم التي هي شرع إلهي، فإن (التدين) هو التشرع بتلك التعاليم، أي الانقياد والخضوع لها.

أما التدين - بمعناه الاصطلاحي- هو التمسك بعقيدة معينة، يلتزمها الإنسان في سلوكه، فلا يؤمن إلا بها، ولا يخضع إلا لها، ولا يأخذ إلا بتعاليمها، ولا يحيد عن سننها وهديِها. ويتفاوت الناس في ذلك قوة وضعفا.

واليوم يصنف المجتمع المسلم أفراده من حيث الالتزام بالدين إلى متدينين وعاديين، وهو مجرد تصنيف مبتدع، يسعى إلى ترسيخه الفئة الأقل التزاما بدينها، في محاولة منهم لإقناع أنفسهم أولاً والمجتمع ثانيا بأنهم مسلمون عاديون مقبولون عند الله، وأن المتدينين هم الذين غير عاديين وأنهم يشددون على أنفسهم ويقومون بأمور زائدة عن الدين، وأنهم -كمسلمين عاديين- غير ملزمين بها .

وبسبب هذا التصنيف، يستطيع الشخص التارك لأوامر دينه إعفاء نفسه من الالتزام بأوامر الشريعة ورفع العتب عنها بحجة أنّه غير متدين، فلا يتوقع منه المجتمع أن يلتزم بكل ما أمر الله تعالى في كتابه وبهدي نبيه، ويظن أن لديه فرصة مفتوحة لارتكاب المحرمات، فهو غير ملزم بتمثيل الدين والامتثال له، لكن إذا ارتكب المتدين ذات المحرمات التي ارتكبها العادي، سلط المجتمع لسانه عليه تقريعًا واستهجانا، وتحوّل الفرد "العادي" إلى واعظ غيّور على دينه، أما هو فلا إثم عليه فيما ارتكب، فهو غير متديّن وقد رُفع عنه التكليف، وسوف يُعتق من النار ويدخل الجنة بمجرد الانتساب إلى الإسلام بالوراثة !

ويعتمد هذا التصنيف على معياران أساسيان للحكم على الفرد كمتدين أو عادي:

المعيار الأول: المظهر الخارجي، وهذا هو المعيار الأكثر انتشارا لبساطته وسهولة اختباره، حيث تلعب فيه اللحية ونمط اللباس محورا أساسيا في الحكم على الفرد، فالشاب المتدين هو ذلك الملتحي الذي يرتدي لباس الصالحين ومظهره يراعي الضوابط الشرعية، أما الفتاة المتدينة فهي التي ترتدي الحجاب كما أمر به الله تعالى واجمع على صفته علماء الأمة، ولا تتبرج، أما الأخرون ممن لا تنطبق عليهم هذه المعايير فهم مسلمون عاديون.

المعيار الثاني: الأخلاق والتعامل مع الناس، في الوقت الذي يركز فيه غالبية المجتمع على المظهر الخارجي كمعيار أساسي للتدين، هناك فئة قليلة لا تكتفي بهذا

المعيار، بل وتشترط في المتدين أن توافق معاملاته وعلاقته بالناس توجيهات الإسلام وأخلاقه، فلا تشفع له المعايير السابقة إن كان يغش في تجارته أو سيئ الخلق، وبالتالي فالمتدين لا يكفيه أن يكون صالحا في شكله وعبادته بل تدينه مرتبط بعلاقته بالآخرين، انطلاقا من قوله عليه الصلاة والسلام (الدين المعاملة).

في الواقع لقد أوجز النبي صلى الله عليه وسلم حقيقة التدين بوصيته للصحابي سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه عندما سال: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولًا، لا أسأل عنه أحدًا بعدك، قال: (قل: آمنتُ بالله، ثم استقم) هذا هو جوهر التدين بالإسلام بكل بساطة: (قل: آمنت بالله)، يعني: حقق الإيمان في قلبك. (ثم استقم)، في أعمالك.. في عبادتك.. في أخلاقك.. في تعاملك مع الحياة.. مع الناس .

فلا أدري أي فكر هدامٍ دعى إلى القبول بهذا التصنيف المبتدع الذي لا يمت إلى الإسلام بصلة، فهو لا يدل إلا على سوء فهم خطير للعقيدة ولمفهوم التدين، وتكمن خطورة هذا التصنيف بأنه جعل الالتزام بأحكام الشريعة التي جاءت إلى عامة الناس، محصورا على فئة محدودة من المجتمع هم فئة "المتدينين" وأسقطت التكليف عن الباقين "العاديين"، بينما في الواقع لا يوجد نص شرعي يحمل أمراً شرعيا خاصا بالمتدين وحده دون غيره، فأوامر الشريعة جاءت كخطاب عام وشامل لجميع المسلمين (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) الأحزاب : 36 لاحظ الصفة التي تخاطبنا بها الأية

"مؤمن ومؤمنة"، وليس "متدين" و"متدينة"، فهي خطاب عام لكل من اعتنق الإسلام واستحب الإيمان على الكفر بأنه إذا جاءك أمر من الله فلا خيار أمامك سوى أن تتبعه لأن الخير فيه، فهذا جوهر الإسلام أن تسلم نفسك إلى الله تعالى وتستسلم لأوامره

ورغم ذلك نجد فهما خاطئا يسود مجتمعاتنا حاليا هو الظن بأن الشريعة الإسلامية قد أوكلت بعض المهام لفئة محدودة من المجتمع هي المتدينين فقط، ومنها مهمة الدعوة إلى الله تعالى على سبيل المثال، أو الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهذه أوامر شرعية كلف الله بها سائر المسلمين فلا يجوز لأحدهم أن يُعفي نفسه من هذه الواجبات المفروضة عليه لمجرد أنّه قرر أن يكون شخصا عاديا غير متدين! فما المتدين إلا عابد امتثل لأوامر معبوده ونواهيه التي قرر "العادي" أن يخالف بعضها وأن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض.

وقد بلغ الأمر من الخطورة إلى الدرجة التي أصبح فيها الفرد "العادي" يسمي من يمتثل إلى أحكام الشريعة الاسلامية على أنه شيخ" حتى لو كان هذا الشخص لا يملك من العلم إلا إقامة الفرائض وتحليل الحلال وتحريم الحرام، فصار إطلاق اللحية، وإقامة الصلاة على وقتها وإحياء السنن النبوية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمورا زائدة عن الدين، إذا فعلها المرء صار شيخا متديّنا، وإذا تركها فهو مسلم عادي .

المؤسف أن من ساهم في ترسيخ هذا المفهوم أيضا هم بعض هؤلاء "المتديّنين" أنفسهم، فقد أحبوا هذه المنزلة التي يضفيها عليهم وصف "التديّن"، ولقب "الشيخ" الذي التصق باسمه وبات يناديه به زملاؤه وجيرانه أو حتى عائلته، حتى لو كان أجهل الناس بأحكام الدين وأصول الفقه، فهو نخور بهذه الرتبة العالية التي تجعل الأشخاص العاديين يستفتونه في أمور الدين، وفرح بهذا الصيت أنّه يخاف الله ولا يرتكب الحرام، وباتت شريحة كبيرة من المجتمع تنظر إلى كل شخص يتحلى بعلامات التدين من اللحية الشرعية وملابس الصالحين، أنه كائن يختلف عن بقية البشر، معصوم من الخطأ وارتكاب الذنب فالشيطان لن يجد إليه سبيلاً، وأصبح هذا المتدين يظن نفسه وصل إلى مستوى العلماء الذين أفنوا حياتهم في دراسة الفقه وأصول الدين ليتمكنوا من استنباط الأحكام الشرعية والإجابة على الفتاوى الفقهية، بينما هو لا يمتلك المقومات الحقيقية لذلك، مما يتطلب منا -كمسلمين- الحرص على أخذ الدين من نبعه الصافي (الكتاب والسنة)، ومن علمائنا الأجلاء الذين عُرف عنهم العلم والورع والحكمة.

أصناف المتدين في القرآن الكريم

وقد تتفاوت درجة تدين الأفراد بالمجتمع، وتختلف مستويات تعبدهم وخضوعهم إلى الله تعالى، وهنا يأتي التصنيف القرآني المحكم الذي صنف المتدينين بدين الإسلام إلى ثلاثة فئات يبينها قوله تعالى :

(ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) فاطر،32.

- 1 **الظالم لنفسه**: وهو مسلم لكنه قد ارتكب بعض المحرّمات وفرّط في بعض الواجبات، فمن أقام الفرائض وأحيا السنن وصام وامتنع عن المحرّمات ثمّ استغاب رجلا أو تعاطى الربا أو شتم مسلماً؛ فهو مسلم ظالم لنفسه، عمل بمقتضى الإسلام في أشياء وخرج عن مقتضى الإسلام في أشياء، وهو أفضل ممّن ترك الصلاة والصيام والزكاة والحج وانتهك المحرّمات وتعاطى الربا واخلاقه سيئة، فكلاهما خارج عن أحكام الإسلام وظالم لنفسه بقدر معصيته، لكنه ما زال متدينا بالإسلام وظلمه لنفسه لم يسلبه إيمانه بالله.

- 2 **المقتصد** : فهذا يأتي بالواجبات ولم يقصر في حق الله فيها، يترك المحرمات، لكن من الممكن أن يفرط بكثير من المستحبات والسنن، ويرتكب بعض المكروهات التي لم تصل إلى حد التحريم.

-3 **السابق بالخيرات** : وهو الذي يزيد على فعل الواجبات فعلَ المستحبّات، وعلى ترك المحرّمات تركَ المكروهات. فهو لا يكتفي بالفرائض لكنه مكثر من النوافل ومن الطاعات، ومن أفعال البِر والخيرات.

هكذا صنف الله تعالى عباده المتدينين بدينه كل حسب عمله، وعليه لا بد أن نتفق على أن المعايير التي جعلتنا نصنف "المتدين" على أنه "شيخ" أو فقيه، لم تجعله

كذلك، وإنما هي مجرد محاولة منه على الالتزام بدينه ليكون مسلما بحق أو سابقٌ بالخيرات، ومهما بلغت عليه علامات الصلاح وحسن الخلق فإنه يبقى فردًا من البشر مرتكباً من الخطأ والنسيان، وإن صلاحه أو حتى خطأه لا يبرر لنا تقصيرنا في ديننا أو ارتكاب المحرمات، فكل مسلم مطالب بما فُرض على غيره من المسلمين.

فالدين وضعٌ إلهي؛ أي: نصوص جاء بها الوحيُ من كتاب وسُنة، والتدين وضعٌ بشري؛ أي: التزام إنسانيٌّ باختيار المتديِّن وفق فهم المتدين نفسه.

مظاهر التدين عند الناس تنتشر في كل مكان، ولا تختصُّ بشعب دون شعب، لدرجة جعلت معهد غالوب الأمريكي يُعِدُّ دراسةً عن أكثر المناطق تدينًا في العالم واللطيف في الدراسة أنها وجدت أن العالم العربيَّ من أكثر الشعوب تدينًا على وجه الأرض، ولكن في الوقت نفسه، نجد أن شعوب هذه المنطقة تحتلُّ مراكزَ متقدمةً في الفساد والرشوة، والتحرش الجنسيِّ، والغشِّ والنصب والتزوير لذا لا بد من محاولة لتفسير هذا التناقُض، والسؤال: كيف يمكن أن نكون الأكثر تدينًا وفي الوقت نفسه الأكثر انحرافًا ؟ فأين أثر الصلاة في حياتنا ؟! وأين أثر العبادات عمومًا على العابدين ؟!

ثالثا

فلسفة الدين

إن فلسفة الدين تُعد حقلا معرفيا مستقلا له مناهجه وحدوده وموضوعاته المستقلة في القرون الثلاثة الأخيرة وتحديدا في المجتمعات الغربية ، في حين أن فلسفة الدين كعنوان لم تنتشر في الدراسات العربية والإسلامية والسبب هو ربما قلة النتاج فيه وبطبيعة الحال فإن لفلسفة الدين دورا مهما وفاعلا مع ما تمر به المنطقة من أزمات عنف نتيجة تواجد الجماعات المتطرفة ، فلا يخفى على القارئ أن الحاجة إلى هذه الموضوعات اصبح مُلحا وضروريا على الصعيدين المعرفي النظري والحياتي السلوكي. أما الأول فإن عجلة المعرفة وتتوسع مع ازدياد حجم التساؤلات ، مما ولد لدينا في الحقل الفلسفي تفرعات جديدة كفلسفة الفن وفلسفة القانون واليوم فلسفة الدين..، وأما الثاني فهو الحياتي السلوكي فالاحتياج إلى دراسة الدين بأطر عقلية أمر ضروري وإدخاله في محاكمات عقلية ونقدية من الأمور الموجبة حتى نخلصه من أدران التطرف والقراءات السلبية ، فالإنسان اليوم يُقتل بدم بارد وبعناوين دينية ، لذا فإن التوجه صوب دراسات فلسفة الدين مهم جدا، ولا يُفهم من ذلك أن وظيفة فلسفة الدين الحُكم بالصواب والخطأ ، وإنما هي قراءة عقلانية للدين بأدوات ومناهج حديثة وبذلك فالواقع يقر بضرورتها .

سنبحث في هذا الكتاب الدين كفلسفة أي كمفهوم وليس كفقه وتشريع والدين الاسلامي الحنيف دين كامل وشامل فهو من ناحية شريعة وقوانين ومن ناحية ثانية عبادات ومعاملات ومن ناحية ثالثة هو منهج وأسلوب عملي للحياة وسنوضح مفهوم الدين الاسلامي كفلسفة وفكر ومنهج من خلال بيان أبعاده وهي :

البعد الروحي التعبدي

البعد الاجتماعي

البعد الأخلاقي

البعد الإنساني

البعد العملي التطبيقي وهو ما نقصد به (بالتدين) باعتبار ان الاسلام ليس مجرد مسألة روحية اعتقادية بل هو فعل وعمل وممارسة وسلوك أيضا .

أولا

البعد الروحي التعبدي

ان الركيزة الأساسية التي يبنى عليها الاسلام هي الأيمان بالله تعالى وهو الاعتقاد الجازم بوجوده سبحانه وتعالى، وربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته .

ويُقصد بالإيمان في اللغة؛ التّصديق، أما في الاصطلاح الشرعي؛ فهو تصديقٌ بالقلب، ونطقٌ باللسان، وعملٌ بالجوارح والأركان، والإيمان بالله هو التصديق بوجوده، وبما جاء عنه وشرّه .

مكانة الإيمان بالله

يعدّ الإيمان بالله - تعالى- الأصل الأعظم من أصول الدين، والمرتكز الذي يقوم عليه الإسلام، وهو أصل القرآن، والموضوع الأساسي الذي يتضمّنه، فنجد في القرآن الكريم الحديث عن الله - تعالى- في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، مثل ما جاء في سورة الإخلاص وآية الكرسي، وفيه دعوة الناس إلى توحيد الله -عزّ وجلّ-، والنّهي عن الإشراك به، والأمر بطاعته، واجتناب معصيته، وكلّ ذلك مرتبطٌ ارتباطاً وثيقاً بالإيمان. ويتحدّث أيضاً عن المؤمنين الذين استجابوا لأمر الله، وعن ثوابه العظيم لهم في الدنيا والآخرة، وفيه الحديث عن الكافرين والمشركين وجزاء الله لهم في الدنيا والآخرة، فالقرآن الكريم يتضمّن الحديث عن الإيمان بالله -عز وجل- في معظمه، ونجد ذكر الله -سبحانه- قد تكرّر في كل صفحةٍ من القرآن بمتوسط عشرين مرة بأسمائه أو صفاته، وجميع أركان الإيمان أساسها الإيمان بالله، فالمسلم يؤمن بالله -تعالى-، وبما جاء منه؛ من الملائكة، والكتب، والرسل، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

محاور الإيمان بالله

الإيمان بوجود الله يتضمّن الإيمان بالله الإقرار بأنّ الله - سبحانه - موجودٌ بلا مُوجد، وأنّه الربّ الخالق المتحكّم بهذا الكون، وأنّه الإله الذي يُعبد ولا يعبد معه شريك، والإيمان بوجود خالقٍ لهذا الكون يصل إليه الإنسان من خلال الفطرة قبل الأدلة العقليّة، فالإيمان بوجود الله - تعالى- غير مفتقرٍ إلى دليل على الرّغم

من أنّ كل شيءٍ في هذا الكون يدلّنا على وجوده - عز وجل -، وقد أُلّفت العديد من الكتب في هذا المجال، منها ما ألّفه الشيخ جمال الدين القاسمي بعنوان "دلائل التوحيد"، كما ألّف العديد من علماء الطبيعة والفلك كتاباً سمّوه "الله يتجلى في عصر العلم"، وكذلك كتاب "العلم يدعو للإيمان" الذي يبيّن أنّ الأصل في الإنسان سواء العالِم والعامّي أن يؤمن بوجود الله -سبحانه-

الإيمان بوحدانية الله الواحد في اللغة

قال ابن الأثير، الله هو الفرد الذي كان، وما زال، وسيبقى وحده، ليس معه آخر، والواحد يدلّ على الانفراد كما قال ابن فارس، والتوحيد في الاصطلاح الشرعي، إفراد الله - تعالى- بالعبادة، مع اعتقاد وحدته في ذاته وصفاته وأفعاله، وقال الفيروزآبادي: توحيد الله هو الإيمان به وحده. وعرّفه السفاريني فقال: تصديق النبي - صلّى الله عليه وسلّم- بالقلب واللسان فيما أخبر به عن الله -تعالى- بأنّه واحد في ذاته وصفاته وأفعاله، ويظهر ذلك جليّاً في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وقد أرسل الله -عز وجل- الرّسل -عليهم السلام- لدعوة أقوامهم إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة وعدم الإشراك به، قال الله تعالى: (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ) البينة : 5.

الإيمان باتّصاف الله بصفات الكمال

أثبت الله -تعالى- لنفسه في كتابه الكريم صفاته، وأثبت له رسوله -صلّى الله عليه وسلّم- أيضاً بعض الصفات، فينبغي الإيمان والإقرار بها كلّها، من غير تغييرٍ، أو تعطيلٍ، أو تكييفٍ، أو تمثيلٍ، فالله -تعالى- هو الأعلم بنفسه، كما أن رسوله أعلم الخلق به، ومنه ينبغي نفي ما نفاه الله - تعالى - عن نفسه، وما نفاه عنه رسوله - عليه الصلاة والسلام-، مع الإيمان بكمال ضدّ هذه الصفات. فمثلاً نفى الله تعالى عن نفسه الموت، فينبغي الإيمان بكمال الحياة له، كما أن نفي الظلم عنه -سبحانه- يوجب إثبات كمال العدل له، ويجب التنبّه إلى أن هذه الصفات سواء كانت بالإثبات أو بالنفي؛ موقوفةٌ على ما أخبر به الله تعالى عن نفسه، أو أخبر عنه رسوله -صلّى الله عليه وسلّم-، فالله هو العالم بنفسه، ولا أحد أعلم بخلقه أكثر من رسوله. وينعكس الإيمان بأسماء الله - تعالى- وصفاته بالنفع والصلاح والسعادة على العبد في دنياه وآخرته، ولا يتوقّف الأمر على الإيمان بهذه الأسماء والصفات فحسب، وإنما ينبغي على العبد معرفة معانيها، وكونها صفاتٌ حقيقيّةٌ كاملةٌ لا نقص فيها،

ولهذا الإيمان فوائد كثيرة

فيما يأتي بيانها: إبعاد الله تعالى عن كل عيبٍ ونقصٍ، وإثبات الكمال له - سبحانه - والإقرار باختلاف صفاته عن صفات المخلوقات، وهذه من أعظم ثمار الإيمان بأسمائه الحسنى وصفاته. انشراح الصدر لرحمة الله تعالى والابتعاد عن اليأس والقنوط من رحمته فالمؤمن باسم الله الغفور يوقن بأنّ الله سيغفر ذنوبه، والمؤمن

باسم الله الرحيم يؤمن برحمة الله تعالى له ولعباده، والمؤمن باسم الله العفو يؤمن بعفوه عنه وعن عباده، وهكذا في جميع الأسماء والصفات. الخشية والابتعاد عن ارتكاب الذنوب والمعاصي، فمن عرف وآمن بأنّ الله عز وجل يعاقب من عصاه، ويغضب إذا ارتُكبت المعاصي، وأنّه شديد العذاب، حمَله ذلك على اجتناب المنكرات. الإيمان بحفظ الله -تعالى- لعبده، وعدم قدرة العباد على إيذائه دون إرادة الله -تعالى-، فالله هو القويّ والقادر، وهو الحافظ لعباده الذي يدفع الضرّ عنهم، ممّا يدفع المؤمن إلى التوكّل عليه وحده، والثقة بنصره وتأييده. استشعار مراقبة الله -تعالى- في السرّ والعلن، فهو البصير بعباده وخلقه جميعاً، يعلم حركاتهم وسكناتهم، وهو الرقيب عليهم، العالِم بما في نفوسهم. التوسّل إلى الله -تعالى- بأسمائه وصفاته، والاستعاذة بها من كل ما يخيف العبد، فمن توسّل إلى الله بأسمائه وصفاته، استجاب له دعائه، وأعاذه من كل ما يخاف منه، وأبعد عنه كل ضرر.

شروط الإيمان بالله

هناك العديد من الشروط التي لا يصحّ إيمان العبد إلا بها: اليقين الجازم بأركان الإيمان الستّة، وهي: الإيمان بالله. الإيمان بملائكته. الإيمان بكتبه. الإيمان برسله. الإيمان باليوم الآخر. الإيمان بالقدر خيره وشرّه. الإقرار بالقلب، والتصديق باللسان والجوارح، وبيان ذلك فيما يأتي:

الإقرار بالقلب

ويكون بتصديق القلب ويقينه بربوبية الله تعالى، واستحقاقه للعبادة، وهناك الكثير من الأعمال التي تدخل في أعمال القلوب، منها: الإخلاص، والمحبّة، والخشية، والنية، وغيرها.

التصديق باللسان

فلا بدّ أن يكون الإيمان إقراراً في القلب ويتبعه العمل، ويكون الإقرار بالقول بنطق الشهادتين، وهي قول: "أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنّ محمّداً رسول الله".

التصديق بالجوارح والأركان

ويكون من خلال أداء الطاعات والعبادات التي فرضها الله على عباده؛ كأداء الصلاة، والزكاة، وصوم رمضان، والحجّ للمستطيع، وغير ذلك.

حبّ الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم

فقد أجمع العلماء على أنّ ذلك من الفروض الواجبة على كلّ مؤمن، قال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ).

ثمرات الإيمان بالله

إن للإيمان بالله سبحانه العديد من الثمرات والفوائد، وفيما يأتي ذكر بعضها

تعظيم الله وتقديسه، ممّا يدفع المؤمن إلى فعل ما أمر به الله تعالى، واجتناب ما نهى عنه، وبذلك ينال العبد رضا الله تعالى السعادة في الدنيا والآخرة.

الثقة بالله، والإيمان بأنّه خالق الكون والمتصرّف فيه، فلا يقع شيءٍ من النفع أو الضرر دون إرادته، فيدفع ذلك الإيمان الخوف مما سوى الله، ويجلب الاتّكال عليه سبحانه والتوجّه إليه بالدعاء. **التواضع أمام الخلق، لأنه يعلم أنّ النعمة مصدرها الله**، فلا يتكبّر على العباد، ولا يرى نفسه أفضل منهم، ولا يتّبع وساوس الشيطان وغروره.

الإكثار من الأعمال الصالحة التي يرضى الله عنها، حتى يكون العبد من الفائزين يوم القيامة. تربية النفس على جميع معاني الأخلاق والصفات الفاضلة، من الصبر، والثبات، والشجاعة، والتوكّل، وغيرها، واستشعار المؤمن بالقوة بمعيّة الله -عز وجل-. ملخّص المقال: الإيمان بالله يعني التصديق بوجوده وما شرعه، والإقرار بذلك بالقلب واللسان والجوارح، والإيمان بالله هو الأساس الذي يقوم عليه الدين، وهو سبب دخول المؤمن الجنة، وأهمّ محاور الإيمان أن يؤمن العبد بوجود الله، ووحدانيّته، وأسمائه، وصفاته، وينعكس الإيمان على العبد بالسعادة والصلاح والخير والفلاح في الدنيا والآخر، وأهمّ شروطه: الإيمان الجازم بالأركان الستّة، ويكون ذلك بالإقرار والتصديق بالقلب واللسان والعمل.

ولقد بين لنا سبحانه وتعالى معنى الأيمان الذي لا غموض فيه ولا لبس في أيات قرآنية عديدة نذكر منها :

(وَلَمَّا يَدْخُلِ الْأَيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ [الحجرات:14]، وقوله تعالى: (وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ [الحجرات :7

فهاتان الآيتان أفادتا أن الإيمان أصله في القلب، وهذا يشمل قول القلب وعمله، ولا بد في الإيمان من قول اللسان .

وأما العمل، فهو داخل في الإيمان أيضًا؛ لأدلة كثيرة: منها قوله تعالى: و(مَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ) [البقرة:143] .

نتيجة و خلاصة

لقد وضحنا بشكل وجيز جدا الجانب الروحي التعبدي في الدين وهو أساسه وجوهره

فالايمان بالله بالنسبة لنا نحن كمسلمين هو أساس عقيدتنا وحياتنا الدينية الدنيوية والاخروية فالأيمان بالله يعني أننا قد أسلمنا له وجوهنا وأخلصنا له قلوبنا وهو يعني بشعورنا المستمر برقابة المولى القدير لنا فهو الرقيب علينا يعلم مانسر وما نعلن ويعلم الظاهر والباطن وهو معنا أينما نكون وهو أقرب الينا من حبل الوريد .

يقول الله سبحانه وتعالى في رده على الذين قالوا للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام (آمنا) - معتقدين أنهم بذلك علموا حقيقة الدين- و كل المطلوب منهم

فيرد الله عليهم بقوله : ({قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الحجرات : 14].

فهذا النص الكريم يوضح حقيقة عظيمة وهي الفرق بين الايمان والاسلام فالاعراب أيام الرسول الكريم كانوا يظنون بأنهم قد وصلوا باسلامهم للذي يريده الله ورسوله منهم فوضح لهم سبحانه وتعالى بأنهم لم ولن يؤمنوا حتى يثبت الايمان في قلوبهم ويمتلكها وليس الادعاء والانتساب للاسلام فيه الخلاص ونهاية كل شئ .

وللأسف الشديد ان الكثير من المسلمين يقولون كما قالت الاعراب من قبلهم بأنهم مسلمون ومحسوبون على الاسلام وعلى دين الرسول الكريم لكن والله- أعلم- ان الايمان كما يريده المولى القدير لم يبلغ قلوبهم ليستقر ويثبت بها .

ان النظرية التربوية الإسلامية أول ما تعمل عليه في إطار استهداف كل الإنسان هو إحياء روحه، الروح في الإنسان هي التي انشعبت منه كل القدرات والملكات التي يتميز بها فإذا نحن أعدنا تربية هذه الروح على هديٍ من الدين، كفانا ذلك الاشتغال غير المعلوم النهاية ولا موثوق النتائج بإعادة مختلف هذه الاستعدادات والملكات التي أهال عليها التاريخ أكداسا من الترسبات والغشاوات، إذ إن الروح

متى تدفق فيها الإيمان وتاقت إلى كمال العمل تحركت الدواعي والجوارح على إثرها على مقتضى الإيمان الدفاق والعمل التواق..

فالروح هي القبس النوراني الذي يحقق صلتنا بالخالق جل وعلا، ومتى صح هذا صح أن تجديد هذا القبس هو الذي يجدد صلتنا بالله ونحن أحوج ما نكون الآن إلى هذا التجديد الروحي، والتربية الروحية هي التي تعيد الدين إلى المجتمع..

إن هذا الإحياء الروحي يصطدم بمبدأ جاءت به الحداثة و هو (التفريغ)، أي فصل قوى الإدراك لدى الإنسان عن مصدرها الأصلي الذي هو الروح....أو القلب باعتباره محلا للروح، تفريغ القلب عن كل إحساس ملكوتي عند انجاز الأعمال، وفي معالجة هذا التفريغ الذي ضرب الإنسان نتيجة الحداثة أو المدارس الفكرية والفلسفية التي تخاطب بعدا واحدا في الإنسان، يأتي بما يسميه ب (الربط)، ومقتضاه أن فعل إدراكي موصول بالقلب، ما يعني أن الصياغة الشاملة الجديدة للإنسان لا يمكن الوصول إليها إلا بإعادة صياغة القلب أو الروح بما يحدث في الإدراكات تحولا جذريا ينقلها من الموت الذي تسبب فيه الانقطاع إلى الحياة التي يكسبها الاتصال، أو قل لا يمكن التوصل إلى إعادة صياغة الإنسان في وقتنا إلا بالعمل على إعادة إحياء القلب بما يحميه من الحياة العبثية والتيه التي جاءت به الحداثة والتي كانت موجودة أصلا عبر التاريخ من خلال المدارس الإلحادية التي تقطع صلة الإنسان بكل ما هو غيبي...

وإذا قام الإنسان الباحث عن البعد الروحي في الإسلام من خلال البحث ومساءلة كل ركن على حدة عن "قدرته على جعل الإنسان أفضل روحيا" سيتمكن من التخلص من فكرة أن أركان الإسلام "هي أوامر يجب إطاعتها وإنما سيرى فيها مفاتيح الراحة النفسية والسمو الروحي" وأن هذا هو الحل الوحيد أمام المسلم "حتى يقوم بممارسة الشعائر الدينية عن قناعة وليس لأن الآخرين يقومون بها".

وان البعد الروحي من أهم الأبعاد التربوية من ناحيتين :

الأولى: أنه مدد للبعد الأول، إذ أن الإيمان ـ كما يقول العلماء ـ يزيد وينقص، يزيد بالطاعات، وينقص بالمعاصي، ولذلك يكفي الاهتمام بهذا البعد لتحقيق معاني الإيمان وترسيخها عن تكلف الأدلة الكثيرة التي قد لا تفيد شيئا مع من تلطخت روحه بالأهواء والشهوات والشبهات.

الثانية: أنه أصل غاية وجود الإنسان، كما قال تعالى:) وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ((الذريات:56)

والبعد الروحي يقوم على ركيزتين أساسيتين لا غنى لإحداهما عن الأخرى، هما : عبودية القلب، وعبودية الجوارح .

أما الطقوس فهي تمثل الركيزة الأساسية في الدين وفق ما سنه الفقه الاسلامي لكنه لا يركز على مسألة الإيمان أو البعد الروحي لدلالات تلك الشعائر، ولا الآثار الاجتماعية لها، ومن هنا تحولت إلى عادات يومية يمارسها الفرد، أو طقوس سنوية فاقدة للمعنى وغير مؤثرة في حياته ولا حياة المجتمع، حتى أصبحنا نرى من لا يجد حرجاً في أن يصلي ثم يأخذ رشوة لأداء خدمة لفرد آخر هي من صميم عمله، وكذا لا يجد التاجر الذي يغش في تجارته بضمير مرتاح ما دام يؤدي "واجباته" التعبدية بالصلاة والحج لكي يكفّر الله تعالى له ذنوبه .

ومن ثم يعاني المجتمع المسلم من فصامية واضحة بين ادعاء التديّن وأداء الفروض والطقوس من ناحية، وبين ممارسة كل التجاوزات الشخصية والاجتماعية، وتحول الإيمان والتديّن إلى نمط من السلوك الشكلي الخالص في حياة الأفراد لا أثر إيجابياً له في حياة الفرد والمجتمع.

ولقد أصبحنا بسبب هذه التركة الثقيلة الفكرية الثقيلة نمارس الإيمان شكلاً دون مضمون، ومبنىً دون معنى، وصورة دون حياة، فنظهر بخلاف ما نضمر، ونتكلم بخلاف ما نعتقد، مع أنّ أصل الإيمان أن يكون نابعاً من القلب قبل أن يتجلى في السلوك، ولكننا نعطي الأولوية لطقس الإيمان دون معناه، ولهذا أصبح التدين مفرغاً من المعنوية، أنهك أرواحنا، واستنزف قلوبنا، ولم يعد له تأثيره الفعال في حياة الفرد والمجتمع الروحية والأخلاقية، ومن هنا اهتم العديد من المصلحين والمجددين بأهمية كشف حقيقة ودلالات الطقوس والشعائر في حياة الفرد والجماعة، وما لها من دلالات في إثراء الحياة الروحية في علاقة الإنسان بالله تعالى، وفي دورها في التربية الأخلاقية للإنسان.

يرى الشيخ عبد المتعال الصعيدي (1894-1966) أنّ العبادات الإسلامية لها مقاصد دنيوية وأنّها في ذاتها لا تستوجب فوزاً بثواب ولا نجاة من عقاب، وإنّما

الثواب على العمل فضل من الله تعالى؛ لأنّ العمل المشروع لمصلحة العبد ولا

فائدة تعود منه على الله تعالى؛ لأنّه غني عنّا وعن أعمالنا، وإنما أراد الله تعالى من

الثواب عليه أن يرغبنا فيه؛ لأننا نساق بالأجر على الأعمال النافعة لنا أكثر مما

.. نساق إليها من أنفسنا وهو كرم منه تعالى لا يشبهه كرم مخلوق

على الرغم من أنّ الصلاة هي صلة العبد بربه فإنّ لها أبعاداً اجتماعية أخرى،

فيقول عبد المتعال الصعيدي إنّ إقامة الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ومن ثم

فهي تهذب النفس، وتنشر المحبة بين الناس فلا يبغي أحدهما على الآخر، ويرى

الصعيدي أنّ الصلة لم تشرع إلا لتجمع بين قلوب المسلمين على الألفة والمحبة

والأخوة والتعاون والنظام، ولهذا كان الحض على صلاة الجماعة أمراً مهما .

وينوه الشيخ الصعيدي إلى أنّ الصلاة قد اقترنت في الإسلام بالزكاة والتي تجعل

للفقراء حقوقاً في مال الأغنياء، فإذا كان الإسلام قد أباح للأغنياء الحق في

التملك، والحق في التمتع بالثروة، فإنّ الزكاة قد فرضت عليهم لرعاية الفقراء والتكفل

بهم، وذلك حتى يعيش المجتمع في تراحم وتعاطف، ولا يحقد من لا يجد حاجته

على من تتوافر له حاجته، ومن ثم كانت الزكاة عبادة من أهم عبادات الإسلام

التي تسعى إلى تحقيق الأخوّة والتكافل.

وللصعيدي رأيه في الصيام فهو الرياضة الروحية للنفس على احتمال الجوع والبعد

عن الشهوة، ويراد منه تربية المسلم نفسياً وجسمياً ليكون إنساناً ذا حزم وعزم

وقوة، ويصبر على مكاره الحياة من جوع ونحوه إذا صادفته في حرب وغيره،

ويرفض الصعيدي تقديس الجوع لدى الصوفية إلى الحد الذي لا يحتمله الجسم.

أما الشيخ أمين الخولي فيرى في الصيام أهمية كبيرة في ربط العبادة بحياة الأمة

حتى تصير عاملاً فعالاً في إنعاش الحياة، وتلافي ظواهر النقص في نواحيها المختلفة

من صحية وعملية، على نحو ما تفعل الأمم الشاعرة بحق أفرادها في الحياة الكريمة،

و"لهذا أشعر أنّ الهدف الاجتماعي لحل التدبير التعبدي في رمضان أنّه موسم خير يقام سنوياً لعلاج مشكلة الفوارق وتذليل مصاعبها".

ورفض الخولي توجه الصوفية نحو تشجيع مسألة الجوع، وتلمس الآثار لفضله؛ لأنّ الروح الحيوية التي امتاز بها الإسلام وقررها في كتابه الكريم لا تهتم كثيراً لما أطال به الصوفية من اعتبار الجوع سيد الأعمال، وأنّه أفضل عبادة أو مخ العبادة، وأنّ ترحيبهم بما ينتهي إليه الجوع من الضعف حتى عن أداء العبادة المفروضة كالصلاة ليس مما يتفق كثيراً مع هذه الروح الجادة النشيطة التي يحرص عليها الإسلام، وإنّما هي روح دخيلة على الإسلام.

وفيما يخص الحج يرى الصعيدي أنّه رياضة أدبية مثل؛ الصلاة والصوم، وفيه شبه من الزكاة؛ لأن فيه شيئاً من إنفاق المال في سبيل الله تعالى مثلها، وقد سبق أن الزكاة رياضة أدبية على فضيلة الجود بالمال فيما يجب بذله لنفع الناس، فيكون الحج بما فيه من ذلك الشبه بالصلاة والصوم من جهة، وبما فيه من شبه للزكاة من جهة أخرى جامعاً لكل المعاني الأدبية السامية في العبادات الثلاث، ويزيد عليها معاني أدبية أخرى.

ومن هنا يمكن القول إنّ المجدّدين لم يهتموا بمجرد العلاقة الرأسية بين الله تعالى والإنسان، وأنّ هذه العلاقة ينبغي أن تنعكس على العلاقة الأفقية

بين الإنسان والإنسان في حركة المجتمع، ومسار الدنيا، وضرورة الكشف عن مدى تأثير العلاقة الروحية الرأسية في التعاطف والتعاون والمحبة وسيادة الأخلاق الحميدة بين الإنسان والإنسان، وأن يكون لذلك تأثير إيجابي في تحسين أحوال المجتمع، وأن تلعب القوة الروحية للشعائر دوراً فعالاً، ومن ثم لا بد أن نعيد قراءة إنتاج المجدّدين من أمثال، محمد عبده وعبد المتعال الصعيدي وأمين الخولي حول قراءتهم المهمة للشعائر والطقوس التعبدية في الإسلام.

ثانيا

البعد الاجتماعي

تناول الإسلام البُعد الاجتماعي في الحياة على أنه جزءٌ لا يتجزَّأ من صميم مهمة الدين، فتصوُّر الإسلام عن الحياة الدنيا أنها "خيِّرة" من حيث المبدأ وهي منَّة أنعم الله بها على الإنسان، متى أحسن التصرُّف والامتثال لمراد الله (عز وجل)، بل إن السبب الدقيق لتسمية الإنسان خليفةً هو أن يحقِّق إرادة الله على الأرض .

والدين الإسلامي دين اجتماعي بطبيعته وبتنزيله، وبمقاصده وبتشريعه، وبتعاليمه العقدية والعملية معاً، هذه هي حقيقته وتكوينه ومقصده، وهي الحقيقة التي يستطيع أن يصل إليها كل من درس وتعمق في منظومته التشريعية بكلياتها وفرعياتها، كما يستطيع أن يدركها بعمق كل من آمن بتعاليمه، وطبقها في حياته.

ولعل أهم ما يميز هذا الدين عن غيره من الأديان هذا الجانب الاجتماعي المهم، ويؤهله بجدارة لينظم ويوجه ويحكم سائر شؤون الفرد والجماعة والمجتمع، ويجد لهم الإجابات المقنعة والراشدة لمختلف تساؤلاتهم وتطلعاتهم وأمانيهم في الحياة.

والدارس لتعاليم الإسلام - القرآن والسنة - يتبين روحانيتها الاجتماعية الدافئة، ويستطيع اكتشاف عنايته الدقيقة بالفرد والمجتمع، واهتمامه المتميز برسم الصورة المثلى، والمتوازنة للعلاقة الراشدة بينهما في سياق تناغم اهتدائي مع المولى - تبارك وتعالى -.

وهي الحقيقة التي اختلجت في صدور الكثير من الصحابة في العهد المكي الأول، وظلوا مترقبين تبلورها مع نزول التعاليم، فلما رأوا التعاليم الدينية تتوالى مؤكدة على العناية بالفرد والجماعة والمجتمع، حريصة على العلاقة النوعية والمتميزة بينهما استماتوا في سبيل نصرته، والدفاع عنه، ونشره بين الناس.

وقد نقلت لنا المصادر الإسلامية أن الصحابي الجليل عثمان بن مظعون - رضي الله عنه - ظل وفياً لكلمة الإيمان التي نطق بها أمام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - طيلة ست سنين من عمر الدعوة الإسلامية، ولكن أعماقه كانت تعتلج باحثة عما يثلج صدره من الناحية الاجتماعية في تلك التعاليم المنزلة إلى أن نزل قوله - تعالى -: ((إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون)) [النحل:90] فلما نزلت قال: الآن

استقر الإيمان في قلبي، وقلت في قرارة نفسي إن ديناً جاء لينظم الحياة الاجتماعية هو دين من عند الله لا من عند محمد، فالله الذي يأمر بثلاثة، وينهي مقابلهن عن ثلاثة في حياة الأفراد والجماعة هو رب حقيقي، وتعاليمه هي تعاليم حقيقية ليست من صنع محمد - صلى الله عيه وسلم -.

وإذا تأملنا في الآية التي كانت سبباً في تعمق واستقرار الإيمان في صدر هذا الصحابي الجليل لوجدناها آية اجتماعية صرفة، بموازين ومناهج وأدوات البحث الاجتماعي بمختلف فروعه وتخصصاته: العام والسياسي والثقافي والاقتصادي والأخلاقي والتربوي والبيئي.

فالقضايا الاجتماعية الثلاث التي أمر الله - سبحانه وتعالى - بها عباده المؤمنين هي

1 **العدل** : والعدل قضية اجتماعية وسياسية تمس صميم الحياة الاجتماعية والسياسية للفرد وللمجتمع، فلا يمكن تصور العدل إلا ضمن سياق شبكة من العلاقات الاجتماعية والسياسية التي تحكم الأفراد والجماعات.

فضلاً عن كون العدل أحد مظاهر الكيانات الراشدة التي تؤكد على كرامة الفرد والجماعة، إذ لا يمكننا أن نتصور - واقعياً - عدلاً أو ظلماً في معزل عن مؤسساته وهيئاته ومنظماته الاجتماعية والسياسية، ونوعية التشريعات الضابطة لها عدلاً أو ظلماً.

2 **الإحسان**: والإحسان مستوى روحاني وأخلاقي وعقدي وسلوكي يعرج إليه الواصلون إلى رضا المولى - تبارك وتعالى -، وهو محراب عقدي مقدس في تعاليم الدين الإسلامي، لا يستطيع الوصول إليه إلا من استحق - بجهده ومكابدته ورضا المولى تبارك وتعالى عليه - رتبته الروحانية العالية، وهو يمس صميم الوجود الفردي والجمعي للكيان المسلم.

وفضلاً عن كونه درجة عقدية وروحانية وسلوكية فهو أحد معايير التفاضل للقرب من تحقيق رضا الله - تعالى-، وذلك عبر ممارسات الفرد المسلم الواقعية والاجتماعية في إطار شبكة العلاقات الاجتماعية الرشيدة في الأمة مع مختلف المخلوقات.

إذ الإحسان في حقيقته عملية اجتماعية معقدة ذات أركان خمسة هي: المحسن، المحسن إليه، منهج الإحسان، ووسيلة الإحسان، آثاره وتأثيراته، وهذه الأركان لا يمكن ممارستها إلا ضمن سياق اجتماعي سوي، حددت مناهجه وسبله ووسائله الشريعة الإسلامية.

3 **إيتاء ذي القربى**: وإيتاء ذي القربى فرع تطبيقي من عملية الإحسان الكبرى، بل هو أخص وأدق في التدليل على اجتماعية هذا الدين، حيث إن إيتاء ذوي القربى أحد فروع الإحسان الاجتماعية التطبيقية.

وإيتاء ذوي القربى يقتضي بالضرورة إحداث صلات اجتماعية معينة معهم، تتمحور على المستويين المعنوي والأدبي والاجتماعي والسلوكي، وقد حددت الشريعة سبل ووسائل وطرق إيتاء ذي القربى، ووردت بشأنها سيول من النصوص القرآنية والنبوية المنظمة لشأنها.

والقضايا الاجتماعية التي نهى المولى - تبارك وتعالى - عباده المؤمنين عن إتيانها هي :

1 **الفحشاء**: والفحشاء مستوى عاطفي متدني يصل إليه الفرد بعد مروره بسلسلة من الانزلاقات الروحية والعقدية والسلوكية على المستوى العاطفي والانفعالي الفردي والاجتماعي أيضاً، إذ لا يمكن تصور حصول عملية التفحش من الفرد خارج منظومته الاجتماعية والتربوية والأخلاقية والدينية، فالفحشاء عملية اجتماعية أيضاً متكونة من أربعة أركان رئيسة هي: المتفحش، المتفحش عليه، ووسيلة التفحش، أثاره وتأثيراته.

والفحشاء عملية اجتماعية معقدة تبدو فيها تداعيات وانزلاقات الفرد الفاسد الضال في سياق شبكة العلاقات الاجتماعية غير السوية، تؤدي في نهايتها الوخيمة إلى تحطيم بناء النظام الاجتماعي المحكم والمنسجم للفرد وللجماعة وللمجتمع، ولذا فقد نهى الشرع الإسلامي عنها - منذ الفترة المكية - لخطورتها على حيوية وفاعلية المنظومة المرجعية الفردية والاجتماعية للكيان الاجتماعي.

2 **المنكر**: والمنكر مستوى سلوكي وأخلاقي وروحاني متدن، يتردى فيه الفرد الضال الفاسد، وينطبع به وجدانه الباطن، ليبدو - فيما بعد جلياً - في شبكة العلاقات الاجتماعية بين الجماعات والأفراد، وفي صميم اتصالاتهم الاجتماعية الفاسدة المختلفة.

وهو فوق كل ذلك عملية اجتماعية ذات أبعاد ستة: قائم بالمنكر، والمنكر، وواقع عليه المنكر، ووسيلة المنكر، وأسلوب وطريقة المنكر، وتأثيراته إذ لا يمكن تصور وقوعه في نسيج شبكة علاقات الأفراد والجماعات بغير هذه الأركان الاجتماعية.

وإذا صار واقع الفرد والمجتمع قابلاً ومستمرئاً لكل أشكال المناكر القولية والعملية الفردية والجمعية، غير مستهجن لها قلبياً، وغير مستنكر لها عملياً، وغير مستنكف عنها سلوكياًo صار سقوط الفرد حتمياً من درجة الإنسانية الراشدة إلى درجة البهيمية العمية، وصار انهيار المجتمع وشيكاً في دائرة التخلف والانحطاط، وبالتالي آذن بغيابه الواعي عن مواطن الشهود الحضاري بين الأمم.

3 **البغي**: والبغي وجه سلوكي مُجسد لمختلف أنواع المناكر القولية والعملية والوجدانية والقلبية الجمعية والفردية في شبكة العلاقات الاجتماعية للمجتمع، كما أنه فرع شكلي ومظهري عنه، تبدو من خلاله وقائع تطبيق المنكر فردياً واجتماعياً وأممياً.

وهو في صميمه عملية اجتماعية فاسدة ومدمرة لمختلف الأواصر الاجتماعية ذو أبعاد ستة هي: باغ، مبغي عليه، بغي، ووسيلة البغي، وأسلوب وطريقة البغي، وتأثيراته التدميرية، ولا يمكن حصوله واقعياً بغير هذه الأركان الاجتماعية الستة.

وبمجرد قبول الأفراد والجماعات بانتشار ظاهرة البغي بين نسيجهم الاجتماعي، ورفضهم مقاومته في واقعهم الحياتي والمعيشي، والتغاضي عن أركانه الاجتماعية الأخرى تعبث ويُعبث بها وفق هوى البغي والبغاة اجتماعياً، آل فرد ذلك المجتمع وجماعاته وسائر هيئاته ومؤساته إلى وضع تدميري تخريبي للبنيات الفطرية السوية لسائر شبكة علاقاته، ودخل آلياً في وضعية الاجترار القيمي الأرعن لأفراده وجماعاته، لينفلت بعدها - آلياً - إلى مرحلة التآكل والانهيار الداخلي القيمي والواقعي .

ويمكن إجمال التأثير الديني في البناء الاجتماعي من خلال النقاط الاتية :

1- عمل الدين الاسلامي تحديداً على تذويب الفروق الفردية بين الفئات والطبقات الاجتماعية، وبناء معايير معنوية لتحديد منزلة الإنسان في المجتمع، أما المعتقدات الوضعية فتقوم أحياناً بتكريس مبدأ الطبقية وتقسيم المجتمع إلى فئات متعددة تظهر الفجوة واسعة بينها.

2- وقام من خلال وسائله الإرشادية وتعاليمه الأخلاقية بتعليم الفرد لممارسة طقوسه الدينية التي تعمل على تقويم سلوكه وعلاقاته مع أبناء المجتمع. وللتدليل

على ذلك، فللشعائر الإسلامية دور اجتماعي، فضلاً عن كونها واجبات يؤديها الإنسان، فصلاة الجماعة عبارة عن تجمع اجتماعي يدعو إلى العدالة والمساواة ونبذ الخلافات. أما الصوم فيعد من الشعائر المرتبطة بالأديان والمعتقدات، ففي معظم الديانات يصوم الناس باعتبار الصوم وسيلة للانضباط الروحاني، والتطهير الذاتي، والتحكم في شهوات النفس، فهم لا يأكلون، أو يتناولون وجبات بسيطة فقط، ومن الناحية العلمية، فإن ذلك يتيح لأعضاء الجسم قسطاً من الراحة وإذا ما أضفنا إلى ذلك تصرفا إيجابيا مثل تقديم المال لإطعام الجائعين، أو محاولة تصحيح أي اعوجاج أو ضعف، يصبح للصوم معنى اجتماعياً أعظم وأكبر. ويرتبط الصوم خاصة بممارسات لها قدسيتها كأداء الصلاة والتوبة.

3- هدف الدين الاسلامي إلى زرع منظومة رقابية داخلية لدى الفرد بصرف النظر عن مدى نجاح ذلك، وتظهر هذه المنظومة من خلال تنمية الضمير الذي يعد من أهم الآليات الرقابية لدى الفرد والمجتمع.

4- وأكد ديننا الحنيف على المشاركة الفعالة والتفاعل الإيجابي مع المجتمع بالشكل الذي يحقق الفائدة المرجوة لجميع أفراد المجتمع، كما ينظم الدين التجمعات والمناسبات والشعائر والطقوس الدينية.

كما يتأثر العامل الديموغرافي بالعامل الديني، حيث تشتد تيارات الهجرة الوافدة باتجاه بعض المناطق كما هو الحال بالنسبة لمكة المكرمة التي احتلت المرتبة الأولى في أعداد ونسبة المهاجرين الداخلين للمملكة العربية السعودية، إذ بلغت أعدادهم 234758 نسمة، أي بنسبة 15.5% من إجمالي حركة المهاجرين الداخلين لعام 2004. وقد شهدت مكة المكرمة خلال العقود الأخيرة أعداداً وافدة من الهجرة الداخلية من مختلف مناطق المملكة، وتيارات خارجية أخرى من مختلف بقاع العالم الإسلامي، ولاشك أن للأجواء الروحية التي تضفيها المدينة المقدسة على ساكنيها، فضلاً الأجواء العلمية وسهولة الكسب المادي، الأثر المهم في جعل المنطقة من أهم مناطق الجذب السكاني في المملكة العربية السعودية. وينطبق الحال على مدينتي النجف الأشرف وكربلاء المقدسة في العراق اللتين أضفت عليها الأهمية الدينية مكانة استثنائية، فأصبحت من مناطق الجذب المهمة في العراق، فضلاً عن غيرها من المراكز ذات الصفة الدينية.

إن الدين كان، ومازال، على امتداد المراحل الزمنية صاحب الدور الأكبر في نشوء المدن والحواضر. وهناك العديد من المدن التي كانت في بداية تكوينها عبارة عن رمز ديني أو مرقد لأحد الأولياء والصالحين، وهذا المعلم كان أساس نشوء المدينة، إذ تجمع السكان حولها مكونين تجمعاً حضرياً تطور مع الزمن وتطورت معه الحياة الاجتماعية والاقتصادية. والدين بطبيعته عملية جماعية تدعو إلى الاستقرار

والتحضر والتفاعل مع الآخرين، وقد انعكس أثر الدين على أسلوب تخطيط المدينة العربية وتوزيع استعمالات الأرض فيها.

إن الأهمية الدينية ارتبطت بإضافات معينة إلى أسماء المدن كالمدينة المنورة في المملكة العربية السعودية، والنجف الأشرف في العراق، وسيدي بلعباس في الجزائر، ومزار شريف في أفغانستان، وسيدي عبد الرحمن في مصر، وقد سبقت بعض المدن الغربية بكلمة سان وتعني القديس، كما هو الحال في سان فرانسسكو وسانت لويس، وانطبق هذا الاتجاه على مستوى الأحياء أو الشوارع أيضاً.
وتتعدى الآثار الدينية كل ما تم الحديث عنه لتشمل أبعاداً سياسية واقتصادية واجتماعية وبيئية واسعة جداً.

فمن الناحية الاقتصادية، حرمت الديانة الهندوسية ذبح الأبقار، فتركت سائبة وتزايدت أعدادها، وحرم المجتمع من مورد اقتصادي مهم، كما يتضح ذلك في الديانة الإسلامية التي حرمت تربية الخنازير وأكل لحومها، وتحريم صناعة النبيذ الذي يجد له سوقاً رائجة في أوربا، كما تؤثر الديانة على السلوكيات الغذائية لتشمل طريقة الطهي ونوعية الحيوانات المسموح بتناول لحومها. ويشكل العامل الديني أحياناً عاملاً منشطاً للاقتصاد الوطني لبعض الدول من خلال النشاط السياحي أو السياحة الدينية، كما هو حال بالنسبة إلى حج المسلمين إلى بيت الله الحرام، وكذلك زيارة النجف الأشرف وكربلاء المقدسة في العراق، والفاتيكان بالنسبة للمسيحيين

ومدينة فاراناس بالنسبة للهندوس، لذا نجد أن اقتصاد تلك المدن ارتبط بوظيفتها الدينية، كما انعكس ذلك على ارتفاع أسعار الأراضي والإيجارات فيها.

ويمتد التأثير الديني إلى الملابس التي يتم ارتداؤها من قبل رجال الدين، فرجال الدين المسيحيون يرتدون ملابس تختلف كلياً عن رجال الدين المسلمين، وهؤلاء يختلفون عن أتباع الديانة السيخية أو الهندوسية، كما تختلف الملابس التي يرتديها رجال الدين بحسب الديانة الواحدة. أما ملابس المرأة ومقدار ما يتم الكشف عنه من جسدها فهو الآخر اختلف بحسب الديانة، ففي الوقت الذي يفرض فيه الإسلام الحجاب نجد أن الديانة المسيحية تسمح بإظهار جزء كبير من جسد المرأة.

ولا يقتصر تأثير الدين أو المعتقد على السلوكيات الفردية، بل تتخذ بعض الدول سياسات واتجاهات ومواقف ناجمة عن تأثيرات دينية معينة، ربما تصل إلى درجة نشوب الحروب والمنازعات، فالصراعات الدينية كانت على مر التاريخ سبباً رئيساً لاندلاع الحروب والنزاعات الأهلية. والمجال السياسي هو من المجالات التي دخل فيها الدين والمعتقد كمؤثر حقيقي بارز على الساحة الدولية، إذ يؤثر الاتجاه الديني على المواقف السياسية لبعض الدول، مما يؤدي إلى تدخلات في شوؤن دول أخرى بسبب وجود أقليات دينية تابعة لهذه الدولة أو تلك أو بحجة حماية الأقليات، وربما يتطور الأمر إلى اندلاع الحروب والصراعات. كما أن المواقف التي تتخذها الدول تتأثر هي الأخرى بشكل أو بآخر بالاتجاهات الدينية والعقائدية التي تمثل عاملاً مهماً في العلاقات الدولية، وإن لم يكن هناك تصريح حقيقي لهذا

الاتجاه، لكن المتابع للمواقف التي تتخذها الأنظمة السياسية يجد أن هذا الاتجاه له وجوده وتأثيراته لدي الأنظمة السياسية، التي تعرف على أنها مجموع التفاعلات المؤسسية والسلوكية المرتبطة بعملية صنع القرار السياسي، والتي تعكس في حركتها مختلف عناصر الواقع الاجتماعي ومظاهره ومحدداته، فالقرار السياسي ليس منفصلاً عن وعائه الاجتماعي. كما أن تشكيل الحدود السياسية هو الآخر يتأثر بالدين والمعتقد، كما هو الحال بالنسبة للحدود الفاصلة بين الهند وبنغلادش والباكستان والحدود المرسومة بين البوسنة والهرسك. ويمتد التأثير الديني إلى دعوات الانفصال في بعض الدول كما هو الحال بالنسبة لمشكلة دارفور وجنوبي السودان. ولا يقتصر التأثير الديني على الأبعاد التي تم ذكرها بل تسهم التيارات الدينية المنحرفة أو الفهم الخاطئ لتعاليم بعض الأديان في إنماء وإذكاء حركات التطرف والإرهاب إلى درجة تشكل معها خطراً على حياة ملايين البشر، إذ يعتقد أصحاب بعض الأديان بتميزهم العرقي عن الأمم الأخرى مما يذكي روح التفرقة والعنصرية، في حين يذهب آخرون إلى تخطئة كل من يخالفهم في العقيدة والاتجاه ويعدونه كافراً مهدور الدم، الأمر الذي يستدعي وقفة جدية ومعالجة موضوعية لبيان الأخطار الناجمة عن هكذا توجهات وتجفيف منابع الأفكار والعقائد المتطرفة .

صور من التفكر الاجتماعي

صفة الاجتماع مرعية مأخوذة في الإسلام في جميع ما يمكن أن يؤدي بصفة الاجتماع من أنواع النواميس والأحكام بحسب ما يليق بكل منها من نوع الاجتماع، وبحسب ما يمكن فيه من الأمر والحث الموصل إلى الغرض فينبغي للباحث أن يعتبر الجهتين معاً في بحثه.

فالجهة الأولى: من الاختلاف ما نرى أن الشارع شرع الاجتماع مستقيماً في الجهاد إلى حد يكفي لنجاح الدفاع وهذا نوع، وشرع وجوب الصوم والحج مثلاً للمستطيع غير المعذور ولازمه إجتماع الناس للصيام والحج وتمم ذلك بالعيدين: الفطر والأضحى، والصلاة المشروعة فيهما، وشرع وجوب الصلوات اليومية عينياً لكل مكلف من غير أن يوجب فيها جماعة واحدة في كل أربعة فراسخ، وهذا نوع آخر.

والجهة الثانية: ما نرى أن الشارع شرع وجوب الاجتماع في أشياء بلا واسطة وألزم على الاجتماع في أمور أخرى غير واجبة لم يوجب الاجتماع فيها مستقيماً كصلاة الفريضة مع الجماعة فإنها مسنونة مستحبة، غير أن السنة جرت على أدائها جماعة، وعلى الناس أن يقيموا السنة، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قوم من المسلمين تركوا الحضور في الجماعة: ليوشك قوم يدعون الصلاة في المسجد أن نأمر بحطب فيوضع على أبوابهم فتوقد عليهم نار فتحرق عليهم بيوتهم.

وهذا هو السبيل في جميع ما سنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيجب حفظ سنته على المسلمين بأي وسيلة أمكنت لهم وبأي قيمة حصلت.

وهذه أمور سبيل البحث فيها الاستنباط الفقهي من الكتاب والسنة والمتصدي لبيانها الفقه الإسلامي.

وأهم ما يجب هنا هو عطف عنان البحث إلى جهة أخرى، وهي اجتماعية الإسلام في معارفه الأساسية بعد الوقوف على أنه يراعي الاجتماع في جميع ما يدعو الناس إليه من قوانين الإعمال (العبادية والمعاملية والسياسية) ومن الأخلاق الكريمة ومن المعارف الأصلية.

نرى الإسلام يدعو الناس إلى دين الفطرة بدعوى أنه الحق الصريح الذي لا مرية فيه والآيات القرآنية الناطقة بذلك كثيرة مستغنية عن الإيراد، وهذا أول التآلف والتآنس مع مختلف الأفهام فإن الأفهام على اختلافها وتعلقها بقيود الأخلاق والغرائز لا تختلف في أن "الحق يجب إتباعه".

ثم نراه يعذر من لم تقم عليه البينة ولم تتضح له المحجة وإن قرعت سمعه الحجة قال تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ الأنفال :42.

وقال تعالى: ﴿إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً * فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ النساء 98 .

أنظر إلى إطلاق الآية ومكان قوله: ﴿لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً﴾، وهذا يعطي الحرية التامة لكل متفكر يرى نفسه صالحة للتفكر مستعدة للبحث والتنقير أن يتفكر فيما يتعلق بمعارف الدين ويتعمق في تفهمها والنظر فيها. على أن الآيات القرآنية مشحونة بالحث والترغيب في التفكر والتعقل والتذكر.

ومن المعلوم أن اختلاف العوامل الذهنية والخارجية مؤثرة في اختلاف الأفهام من حيث تصورها وتصديقها ونيلها وقضائها، وهذا يؤدي إلى الاختلاف في الأصول التي بني على أساسها المجتمع الإسلامي.

إلا أن الاختلاف بين إنسانين في الفهم على ما يقضي به فن معرفة النفس وفن الأخلاق وفن الاجتماع يرجع إلى أحد أمور:

إما إلى اختلاف الأخلاق النفسانية والصفات الباطنة من الملكات الفاضلة والردية فإن لها تأثيراً وافراً في العلوم والمعارف الإنسانية من حيث الاستعدادات المختلفة التي تودعها في الذهن فما إدراك الإنسان المنصف وقضاؤه الذهني كادراك الشموس المتعسف، ولا نيل المعتدل الوقور للمعارف كنيل العجول والمتعصب وصاحب الهوى والهمجي الذي يتبع كل ناعق والغوي الذي لا يدري أين يريد؟ ولا أنى يراد به، والتربية الدينية تكفي مؤونة هذا الاختلاف فإنها موضوعة على نحو يلائم الأصول الدينية في المعارف والعلوم، وتستولد من الأخلاق ما يناسب تلك الأصول، وهي مكارم الأخلاق.

قال تعالى: ﴿... كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ الأحقاف : 30.

وقال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾المائدة : 16.

وإما أن يرجع إلى اختلاف الأفعال فإن الفعل المخالف للحق كالمعاصي وأقسام التهوسات الانسانية ومن هذا القبيل أقسام الاغواء والوساوس يلقن الإنسان وخاصة العامي الساذج الأفكار الفاسدة ويعد ذهنه لدبيب الشبهات وتسرب الآراء الباطلة فيه وتختلف إذ ذاك الأفهام وتتخلف عن اتباع الحق ! وقد كفى مؤونة هذا أيضاً الإسلام حيث أمر المجتمع باقامة الدعوة الدينية دائماً أولاً، وكلف المجتمع بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثانياً، وأمر بهجرة أرباب الزيغ والشبهات ثالثاً: قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ آل عمران : 4 .

فالدعوة إلى الخير تستثبت الاعتقاد الحق وتقرها في القلوب بالتلقين والتذكير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يمنعان من ظهور الموانع من رسوخ الاعتقادات الحقة في النفوس وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ

الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾الأنعام 70 .

ينهى الله تعالى عن المشاركة في الحديث الذي فيه خوض في شيء من المعارف الإلهية والحقائق الدينية بشبهة أو أعتراض أو استهزاء ولو بنحو الاستلزام أو التلويح، ويذكر أن ذلك من فقدان الإنسان أمر الجد في معارفه، وأخذه بالهزل واللعب واللهو، وأن منشأه الاغترار بالحياة الدينا، وأن علاجه التربية الصالحة والتذكير بمقامه تعالى.

وإما أن يكون الاختلاف من جهة العوامل الخارجية كبعد الدار وعدم بلوغ المعارف الدينية إلا يسيرة أو محرفة أو قصور فهم الإنسان عن تعقل الحقائق الدينية تعقلاً صحيحاً كالجربزة والبلادة المستندتين إلى خصوصية المزاج وعلاجه تعميم التبليغ والإرفاق في الدعوة والتربية وهذان من خصائص السلوك التبليغي في الاسلام، قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ يوسف :108 .

ومن المعلوم أن البصير بالأمر يعرف مبلغ وقوعه في القلوب وأنحاء تأثيراته المختلفة باختلاف المتلقين والمستمعين فلا يبذل أحداً إلا مقدار ما يعيه منه، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على ما رواه الفريقان: إنا معاشر الأنبياء نكلم

الناس على قدر عقولهم، وقال تعالى: ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ التوبة : 122.

فهذه جمل ما يتقى به وقوع الاختلاف في العقائد أو يعالج به إذا وقع وقد قرر الإسلام لمجتمعه دستوراً اجتماعياً فوق ذلك يقيه عن دبيب الاختلاف المؤدي إلى الفساد والانحلال فقد قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الأنعام: 153.

فبين أن اجتماعهم على اتباع الصراط المستقيم ويحذرهم عن اتباع سائر السبل ليحفظهم عن التفرق ويحفظ لهم الاتحاد والاتفاق، ثم قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾ آل عمران : 102.

تدل الآيات على لزوم أن يجتمعوا على معارف الدين ويرابطوا أفكارهم ويمتزجوا في التعليم والتعلم فيستريحوا في كل حادث فكري أو شبهة ملقاة إلى الآيات المتلوة عليهم والتدبر فيها لحسم مادة الاختلاف، وقد قال تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾ النساء : 82.

وقال أيضاً: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ العنكبوت : 43 .

وقال تعالى: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ النحل : 42 فأفاد أن التدبر في القرآن أو الرجوع إلى من يتدبر فيه يرفع الاختلاف من البين.

وتدل على: أن الإرجاع إلى الرسول وهو الحامل لثقل الدين يرفع من بينهم الاختلاف ويبين لهم الحق الذي يجب عليهم أن يتبعوه، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ النحل : 44.

وقريب منه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ النساء : 83 .

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ النساء : 59.

فهذه صورة التفكر الاجتماعي في الإسلام

ومنها يظهر أن هذا الدين كما يعتمد بأساسه على التحفظ على معارفه الخاصة الإلهية كذلك يسمح للناس بالحرية التامة في الفكر، ويرجع محصله إلى أن من الواجب على المسلمين أن يتفكروا في حقائق الدين ويجتهدوا في معارفه تفكراً واجتهاداً بالاجتماع والمرابطة، وإن حصلت لهم شبهة في شيء من حقائقه ومعارفه أو لاح لهم ما يخالفها فلا بأس به وإنما يجب على صاحب الشبهة أو النظر المخالف أن يعرض ما عنده على كتاب الله بالتدبر في بحث اجتماعي، فإن لم يداو داءه عرضه

على الرسول أو من أقامه مقامه حتى تحل شبهته، أو يظهر بطلان ما لاح له إن كان باطلاً، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ الزمر : 18 .

هذا أحسن ما يمكن أن يدبر به أمر المجتمع في فتح باب الارتقاء الفكري على وجهه مع الحفظ على حياته الشخصية، وأما تحميل الاعتقاد على النفوس والختم على القلوب وإماتة غريزة الفكرة في الإنسان عنوة وقهراً والتوسل في ذلك بالسوط أو السيف أو بالتفكير والهجرة وترك المخالفة فحاشا ساحة الحق والدين القويم أن يرضى به أو يشرع ما يؤيده، وإنما هو خصيصة نصرانية، وقد امتلأ تاريخ الكنيسة من أعمالها وتحكماتها في هذا الباب ـ وخاصة فيما بين القرن الخامس وبين القرن السادس عشر الميلاديين ـ بما لا يوجد نظائره في أشنع ما عملته أيدي الجبابرة والطواغيت وأقساه. ولكن من الأسف أنا معاشر المسلمين سلبنا هذه النعمة وما لزمها (الاجتماع الفكري وحرية العقيدة) كما سلبنا كثيراً من النعم العظام التي كان الله سبحانه أنعم علينا بها كما فرطنا في جنب الله ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ فحكمت فينا سيرة الكنيسة واستتبع ذلك أن تفرقت القلوب وظهر الفتور وتشتّت المذاهب والمسالك يغفر الله لنا ويوفقنا لمرضاته ويهدينا إلى صراطه المستقيم .

3

البعد الأخلاقي

قد اهتم الإسلام اهتمامًا بالغًا بالجانب الأخلاق، فنجد أن رسالة الإسلام تقوم على أساس الأخلاق، والهدف من بعثة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم أن يتمم مكارم الأخلاق، وينشر مبادئ الحق والعدل والخير بين الناس؛ حتى ينالوا السعادة في الدنيا والآخرة، ويلخص الرسول الهدف من رسالته فيقول في إيجاز بليغ: (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق). وتتميم الأخلاق يعني ناحيتين: الحضّ عليها، ثم الارتفاع بها، وربطها بالمثل الأعلى؛ حتى تكون خالصة لله لا تشوبها شائبة من رياء أو مباهاة أو سمعة. كما أثنى القرآن الكريم على الرسول صلى الله عليه وسلم في أبلغ وأرفع وصف من قوله: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) القلم : 4.

الدين مصدر الأخلاق، وهي جزء منه لا يستغرق بنيته الكلية، والأخلاق أخلاق أي خيرة لأن الله وصفها بذلك، وليس باستحسان العقل أو تقرير العرف. ولذلك فهي محكومة بالدين لا حاكمة عليه، بمعنى أنه لا يصح محاكمة الدين إلى مبادئ مستقلة عن منطوقه، أو بعبارة مكافئة لا يجوز التساؤل عن أخلاقية الأحكام الدينية. فمثلًا حين ينص الدين على إباحة الرق فهذه الإباحة أخلاقية في ذاتها، أي لا يجوز تقييم خيريتها بمعايير خارجية (فوق دينية). وينطبق ذلك على بقية

الأحكام التي تبدو صادمة للحس الأخلاقي الخالص مثل أحكام التحريض على العنف، أو أحكام التفريق بين البشر في حرمة الدماء بسبب الدين (لا يقتل اليهودي بغير اليهودي قصاصًا، ولا يقتل المسلم بغير المسلم قصاصًا).

في المقابل يعتبر الفكر الوضعي أن الأخلاق - كالدين- ظاهرة اجتماعية تاريخية نشأت وتطورت داخل العالم بفعل الإنسان. وهي رغم تقاطعها مع الدين التاريخي تحتفظ بوجود مستقل عنه، حيث الدين بالأساس بنية طقوسية لاهوتية، ثمة أخلاق رفيعة في سياقات غير دينية، وهي تغيب أحيانًا في سياقات دينية، ولذلك يمكن الحديث عن أخلاق دينية خاصة بكل ديانة، ويمكن محاكمة هذه الأخلاق الخاصة إلى الأخلاق الكلية.

لا تعارض بين الدين والخلق، فالخلق جزء من الدين، وبقدر نقص الأخلاق ينقص الدين، وقد روى الإمام أحمد في مسنده وابن حبان في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ما خطبنا نبي الله صلى الله عليه وسلم إلا قال :(لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له).

فالأمانة وحفظ العهد من الأخلاق، وقد ربط النبي صلى الله عليه وسلم بينهما وبين الإيمان، والنبي صلى الله عليه وسلم لما ذكر الدين بقوله: (من ترضون دينه) أراد أن يؤكد على جزء من الدين قد يكون مفقوداً أو ضعيفاً عند بعض المتدينين وهو الأخلاق، وهذا من أساليب العرب، فإنهم يذكرون الخاص بعد العام تنبيهاً

وتأكيداً، كقوله صلى الله عليه وسلم: لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس عن عمره فيم أفناه وعن شبابه فيم أبلاه وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وماذا عمل فيما علم. رواه الترمذي وغيره. فبين النبي صلى الله عليه وسلم أن العبد يُسأل عن عمره، والعمر يشمل مراحل الحياة كلها ومنها الشباب، ثم قال: (وعن شبابه فيم أبلاه) فخص مرحلة الشباب بالذكر لتعظيم شأن هذه المرحلة العمرية لكونها زمن القوة والنشاط والعطاء.

وعليه فنقول: إن الدين يشمل الأخلاق، ويمكننا أن نقول الدين كله هو الأخلاق إن فهمنا الأخلاق بأنها عامة وشاملة لخلق العبد مع ربه، وخلقه مع نفسه، وخلقه مع الناس، وخلقه مع سائر المخلوقات، إذا فهمنا الأخلاق بهذا الاعتبار فيمكننا أن نقول إن الدين هو الأخلاق، وإن الأخلاق هي الدين، وأما إذا نظرنا إلى أن الخلق هو تصرف الإنسان مع الناس، فقد يكون الإنسان حسن الخلق مع الناس ولكنه شارب خمر، أو مفرطاً في صلاته ونحو ذلك، فيكون عنده ضعف في التدين، وقد يكون الإنسان محافظاً على الصلاة والفرائض وممتنعاً عن المحرمات ولكنه غليظ الطبع معجب بنفسه، فيكون في تدينه الفردي مقبولاً وفي تعامله مع الآخرين مرفوضاً، وقد بين صاحب تحفة الأحوذي هذا باختصار فقال: (إذا خطب إليكم) أي طلب منكم أن تزوجوه امرأة من أولادكم وأقاربكم (من ترضون) أي تستحسنون (دينه) أي ديانته (وخلقه) أي معاشرته. انتهى، ولا فرق بين الأخلاق والخلق، فإن الأخلاق جمع خلق.

الأخلاق في المنظور الإسلامي

إن مصدر الأخلاق الأول والأهم في الإسلام هو الله تعالى , فهو عز وجل الذي يلهم الإنسان بها ويوجهه دون إجبار أو إكراه فيقول سبحانه وتعالى : [وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا]الشمس : 10 , فالإلهام من الله تعالى , والزكية أو التردية من الإنسان الذي هو الفاعل أو التارك للشيء .

تمثل الأخلاق في الدين الإسلامي ركناً من أركان الدين الثلاثة التي لا يلحقها نسخ ولا تبديل وهي : العقائد - العبادات – الفضائل (الأخلاق والمعاملات) , فالدين هو المصدر الذي يعرف منه حسن الأخلاق من قبحها , والدين هو الذي يربي في الإنسان الضمير الحي الذي على أساسه يرتفع صرح الأخلاق .

إن العاقبة المرجوة للمؤمن هي الفوز برضى الله تعالى ونيل رحمته في الدنيا والآخرة , ويقابل ذلك في الفكر المادي والفلسفي أن مصدر الأخلاق لدى أصحاب هذه الأفكار هو العقل ولا شيء عندهم فوق العقل لأنهم استبعدوا الدين من حياتهم وقصروه على العلاقة بين الإنسان وربه في بيوت العبادة فقط , ومن هنا نرى ما حل بهذه المجتمعات من إفراط وتفريط في القيم العليا ومنها - على سبيل المثال - قيم الحرية والحقوق , فنرى أثر الإفراط في الحرية الشخصية أنه أدى إلى تفكك الأسرة التي جعلها الله اللبنة الأولى والأساس الذي يرتكز عليها

قيام المجتمعات الإنسانية حيث بدأ هذا التفكك الأسري بالأعتراف وتسجيل الطفل لأب واحد (والد أو والدة أو غيرهما) ثم الأعتراف بحرية الشذوذ ثم زواج المثليين , ويقابل هذ الإفراط في الحرية الشخصية تفريط شديد في حقوق الأمم الأخرى , فنرى تبرير الإعتداء على الأمم الضعيفة ونهب ثرواتها ... بينما تحث الأديان , وأولها الإسلام على العدل بين الناس جميعاً ؛ أفراداً وجماعات وأمماً , فالناس كلهم متساوون , ولا تمايز بينهم إلا بالأعمال الصالحة التي ترضي الله تعالى , وفي هذا يقول الحق عز وجل : [يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفو , إن أكرمكم عند الله أتقاكم] ويقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : (لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى) وكما جاء في القول المشهور والمتعارف عليه بين علماء المسلمين وعامتهم " إن الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة , ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة "

فوائد حسن الخلق

إن كمال الإيمان أو نقصانه إنما يكون على قدر التمسك بالأخلاق الطيبة وإتباع ما جاء به الأنبياء والمرسلون من الأحكام والقوانين , فذلك يجعل الإنسان في معية الله تعالى وصحبة رسوله الكريم ويجعله يحظى بمحبته وجواره في الجنة فقال صلى الله عليه وسلم: (إن من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا)

وحسن الخلق يرفع درجات العبد عند الله تعالى وإن كان عمله لا يبلغ أعمال المجتهدين في العبادة والطاعات لقوله صلى الله عليه وسلم : (إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وشرف المنازل وإنه لضعيف العبادة , وإنه ليبلغ بسوء خلقه أسفل درجة في جهنم) .

إن الإسلام يأمر بحسن الخلق في المجتمع مع المسلم وغير المسلم ليعم السلام والطمأنينة بين جميع الناس كما قال صلى الله عليه وسلم : (أوصى الله إلى إبراهيم : يا خليلي حسِّن خلقك ولو مع الكافر تدخل مدخل الأبرار , فإن كلمتي سبقت لمن حسَّن خلقه أن أظله تحت عرشي , وأن أسقيَه من حظيرة قُدسي , وأن أدنيَه من جواري) .

عاقبة سوء الأخلاق

إذا كان حسن الخلق يقرب الإنسان من الله ورسوله فإن سوء الخلق يباعد

بينهما فيقول صلى الله عليه وسلم : (ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق , وإن الله ليبغض الفاحش البذيء) , ويقول محذراً من سوء الخلق : (حسن الخلق نماء , وسوء الخلق شؤم ...) وكان صلى الله عليه يدعو بهذا الدعاء : (اللهم إني أعوذ بك من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق) .

إن تقطع العلاقات بين الناس في المجتمعات وتوتر العلاقات الوطنية سببها هو سوء التربية الخلقية وفقدان الروابط العائلية , فهل يمكن البحث عن الروابط

الاجتماعية والروابط الوطنية بعد تفكك الروابط العائلية فيكون مثلنا كمن يطلب الثمار من أغصان الشجرة بعد قطع أصولها وجذورها !؟ .

القرآن مصدر الأخلاق

إن القرآن الكريم يعد المصدر الأصيل للتربية الأخلاقية لدى المسلمين؛ حيث كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خلقه القرآن الكريم، يتصف بأخلاقه، ويربي أمته بآداب القرآن الكريم. وكتاب الله العظيم قد تضمن منهاجاً وافياً وشافياً في الاعتدال، وإبراز معالمه أمر ضروري ومُلّح، ولا سيما في الظروف الحالية الصعبة التي طالت خطورتها الأمة الإسلامية والعالم كله.

وذلك بسبب انحراف بعض الناس عن طريق القرآن الكريم القويم، وتقليد الأفكار المنحرفة المدمرة، واتخاذها منهجاً بديلاً عن القرآن الكريم، فنتج ذلك عن عدم تمثل القرآن الكريم في أخلاق أفراد الأمة، والإفساد في الأرض، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق.

منهج القرآن في تقويم السلوك

ولقد تضمن القرآن الكريم منهاجا نادراً في تقويم وتعديل الأمور، والقيام عليها بالاهتمام والعناية والتنمية، على أكمل وجه وأحسن حال؛ فتلك هي التربية الربانية القرآنية التي من صنع الله -تعالى- الذي أتقن كل شيء خلقه، وهو الذي خلق كل شيء، فهو أعلم بما يصلحه، وهو -سبحانه- أحق من يرعاه، قال الله -تعالى-:

(أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) الملك : 14. وكلمات وألفاظ التربية الأخلاقية في القرآن الكريم ذات عدد كبير، وتشكل منطلقاً عظيماً تضم الإنسان وسائر الكائنات، فصفة الشمول والعموم والكمال الأخلاقي تحيط بهذه التربية من كل جهة؛ لأنها من لدن خبير عليم، وفي كل لفظة عقد فريد من الكمال التربوي؛ الذي وضعه الله -تعالى- في كتابه الحكيم.

وسائل تطبيق المنهج الأخلاقي في القرآن الكريم

إن التربية الأخلاقية القرآنية واحدة من الأساسات الأصيلة في بناء شخصية المسلم؛ فهي عملية ذات حلقات متصلة، توصل إلى بناء الأفكار والأفعال الأخلاقية بما حوته من وسائل، والتي يمكن من خلالها تطبيق مبادئ الأخلاق في القرآن العظيم، وهذه الوسائل تنقسم إلى قسمين كما يأتي:

الوسائل الدافعة هي التي تدفع الإنسان إلى قول وفعل الخير، وتقوي الاستعداد النفسي لذلك؛ "مثل القدوة الصالحة والموعظة والصحبة".

الوسائل المانعة هي التي تمنع وتمسك المرء عن تنفيذ رغبته في الأمور البذيئة السيئة، وتمنعه من الانزلاق فيها، ومن بين تلك الوسائل المانعة "الاعتبار، والترهيب، والعقوبة". الأهداف العامة لتعليم علم الأخلاق إن تعليم الأخلاق له دوافع كثيرة في الشريعة الإسلامية، ونذكر منها ما يأتي: بيان حقائق القيم الأخلاقية الإسلامية، ومبادئها وطرق تطبيقها. التعرف على شمولية الأخلاق

الإسلامية، والتي تضم جميع سلوكيات الأفراد الاجتماعية والاقتصادية وغيرها. إبراز أهمية وقيمة القيم الأخلاقية الإسلامية من جميع النواحي، العلمية والاجتماعية، والإنسانية والحضارية. وضع المعايير الأخلاقية الإسلامية. تكوين القناعة بثبات القيم الأخلاقية الإسلامية. تكوين الشعور بالمحبة للفضائل، والكراهية والنفور من الرذائل والشرور. تطهير النفوس وتزكيتها، وتحليتها بالفضائل ومكارم الأخلاق. تنمية الميول نحو العمل بالقيم الأخلاقية والدعوة إليها.

أمثلة على الأخلاق في القرآن الكريم

لقد ورد في القرآن الكريم الكثير من الأمثلة على الأخلاق، نذكر منها:

خلق الإيثار قال -تعالى-: (يُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) الحشر: 9.

الوفاء بالعهد قال -تعالى-: (وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا) الاسراء : 34 .

النهي عن الإسراف والتبذير والبخل والتقتير قال -تعالى-: (وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا* إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا) الاسراء : 27.

الأمر بالعدل في جميع الظروف وبالنسبة لجميع الناس حتى الكفار قال -تعالى-: (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى) المائدة : 8.

التعاون على البر والتقوى وما يفيد الناس والنهي عن التعاون على الظلم والعدوان قال -تعالى-: (وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) المائدة : 2.

الصبر منزلة من الإيمان وهو بمثابة الرأس من الجسد، قال -تعالى-: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) آل عمران : 200.

الصدق من دلائل الإيمان وثمراته ولهذا أمر الإسلام به قال -تعالى-: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) التوبة : 119.

الكذب خلق ذميم لا ينال صاحبه هداية الله تعالى ولهذا نهى الإسلام عنه وحذر منه قال -تعالى-: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ) الزمر : 3.

أن القرآن الكريم قد عُني عناية خاصة متميزة بالجانب الأخلاقي ، وله في ذلك منهج أصيل ، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بجوانب أخرى من الدين ، كجانب العقيدة والعبادة والمعاملة والعلاقات الأسرية والإجتماعية والدولية ونحوها ، إضافة إلى ارتباطه بمقاصد الشريعة عموماً وبحفظ الضرورات الخمس خصوصاً ، وهذا المنهج

الأخلاقي له خصائص ومعالم عديدة منها : الربانية والشمول والوسطية ، والثبات واليسر والواقعية ، وترتب الجزاء الدنيوي والأخروي عليه ، ونحو ذلك .

القرآن الكريم وحقوق الانسان

أن القرآن الكريم أصّل قضية حقوق الإنسان تأصيلاً شرعياً متكاملاً ، فقد كرم الله الإنسان وميزه ، ومنحه من الحقوق المفروضة له شرعاً ، الواجبة حكماً، المحاطة بمختلف أنواع الحماية والضمانات من الإعتداء والإنتهاك ، مما لم يوجد في منهج أو قانون غير منهج القرآن .

ولقد تبين بجلاء أن هناك تلازماً كبيراً ، وارتباطاً وثيقاً ، وعلاقة حميمة بين المنهج الأخلاقي وحقوق الإنسان في القرآن الكريم ، من حيث المفهوم والتأصيل، والخصائص والمزايا ، مع أن الموثر الأكبر في جانب الأخلاق: هو السجية والطبع، وفي جانب الحقوق : هو الوجوب والإلزام .

وقد كشفت الدراسات عن الأثر الكبير للمنهج الأخلاقي القرآني ، في اعتبار وتقدير واحترام حقوق الإنسان التي جاءت في القرآن ، ذلك أن هناك صنفاً واجباً من الأخلاق ، يحقق الغاية نفسها التي تضمنها حقوق الإنسان ، إضافة إلى أن ذلك المنهج الأخلاقي الفريد يضبط سلوك الفرد ويقوّمه ويصلحه ، كما أنه يحفظ تماسك المجتمع المسلم ، ويتعدى أثره إلى الحقوق الدولية الخارجية، وهذا دعم لذلك التقدير والاحترام لحقوق الإنسان .

المسلمون والأخلاق

وبالرغم أن الإسلام أكثر الأديان الداعية للالتزام بالأخلاق الحسنة، لكن المجتمعات الإسلامية تعاني من سيادة سلوكيات بعيدة عن الأخلاق التي دعا إليها الإسلام، فهناك غش وكذب وأكل لأموال الناس بالباطل، عدا عن سوء الظن وفقدان الثقة وعدم الوفاء بالوعد وغيرها من السلوكيات التي تنتشر انتشارا واسعا، وتترك آثارا سيئة على كل المستويات.

عمليا لا يمكن أن ننكر وجود خلل في التزام المسلمين بالأخلاق الحسنة في تعاملاتهم العامة، لكن التعميم فيه تجنٍ وتجاوز، كما أنه فيه اختزال مخلٌّ للأسباب الدافعة لذلك، وأظن أن هناك أسبابا كثيرة لانتشار سلوكيات لا أخلاقية في المجتمعات الإسلامية، منها سببان رئيسان وفق وجهة نظري :

أولهما: الظلم الذي يتعرض له كثير من المسلمين داخل بلادهم وخارجها، ما يجعلهم لا يتخلقون بالأخلاق الحسنة، لأنهم ينظرون للآخرين على أنهم شركاء في ظلمهم، بينما قد يتخلق المسلم بالأخلاق الحسنة على المستوى الشخصي الذاتي وهذا الملاحظ غالبا، لكنه مع الجماعة ليس كذلك. لذلك فإن إقامة العدل في المجتمع المسلم خطوة أساسية من أجل تفعيل الأخلاق على المستوى العام، وجعلها موجّها للسلوكيات العامة.

والثاني: فصل الأخلاق عن الدين استجابة لمقتضى الحداثة ومقتضى شعار "فكر بنفسك ولا تنتظر وصاية أحد عليك"، أسهم في عقلنة وعلمنة الأخلاق عموما وفصلها عن الدين لتصبح كأنها معانٍ داخل المجتمع وداخل الحياة الخاصة، وليس لها ارتباط ديني، ومع غياب سيادة القانون وضعف مؤسسات التعليم وغيرها، ضعُف الالتزام بالأخلاق الحسنة على المستوى العام عموما. .

بعض المنتقدين لضعف الالتزام الأخلاقي في المجتمعات الإسلامية يوجهون سهامهم للإسلام ذاته، ويعدونه دينا لا يحض على الأخلاق، أو على أقل تقدير ليس فيه إلزام بذلك، وحقيقة فإن الإسلام باعتباره الدين الخاتم للديانات السماوية، يستقل عنها بأنه يضيف إلى إمكاناتها الأخلاقية إمكانات أخرى، فالأخلاق تتراكم كما تتراكم الخبرات الإنسانية. كما أن الشريعة الإسلامية تنبني على المقاصد الضرورية الخمسة وهي حفظ الدين والنفس والعقل والمال والنسل، وكل تعاليم الإسلام تهدف إلى تحقيق تخلُّق أعلى ينعكس على شكل سلوك يحقق المقاصد الضرورية للإنسان والإنسانية جميعا، وهو ما لا يوجد في الديانات الأخرى، لذلك فالأخلاق الإسلامية أعمق من سابقاتها في الديانات الأخرى، وأكثر حركية وقدرة على أن تكون قابلة للتطبيق والالتزام بها في الحياة العامة والخاصة، فالإسلام دين البشرية جمعاء، والقيم التي تساند الأخلاق الإسلامية قيم كونية موجهة للبشر جميعا ما يعطي الأخلاق في الإسلام زخماً

أكبر. يقول الإمام الشاطبي: "الشريعة كلها إنما هي تخلُّق بمكارم الأخلاق، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق".

الأخلاق وسؤال الفاعلية

الأخلاق مرتبطة بالسلوك ارتباطا وثيقا وهي تشمل جميع أفعال الإنسان، ابتداء من الفعل النظري (التفكير) فهو فعل خلقي يقتضي بموجب كوننا بشراً أن نحكم وننظر في المصلحة التي يجلبها لنا الفعل الذي ننوي القيام به، أو المفسدة التي يدفعها عنا، وبهذا يصبح هذا التفكير فعلا خُلقيا، والمسلم مأمور بضبط هذا التفكير ليشمل المصلحة العامة، وعدم الإضرار بالآخرين وليس فقط تحقيق المصلحة الخاصة، لذلك كانت الأخلاق هي التي تحدد إنسانية الإنسان، وليس كما يقرر الفكر الغربي أنها العقلانية، فنحن نصف التصرفات اللاأخلاقية بأنها تصرفات لا إنسانية، ولا نصفها بأنها تصرفات لا عقلانية أو لا قانونية، وعلى هذا كلما زاد الإنسان تمسكا بالأخلاق فهما وممارسة كلما زادت إنسانيته. والمجتمع الذي تسود فيه الأخلاق الحسنة سيكون مجتمعا إنسانيا يشد بعضه بعضا، لذلك فالتمسك بالأخلاق الحسنة في المجتمعات الإسلامية يحتاج إلى فئة قدوة تمارسه وتنشر فهمه، ليصبح سلوكا عاما ولا يبقى ضمن نطاق الدائرة الفردية للمسلمين.

من جانب آخر فإن مجتمعاتنا بحاجة لقوانين ضابطة، فالقانون قد يكون تقنينا للأخلاق بإخضاعها للجزاء، صحيح أن القانون ينتقي بعض الأخلاق ويخضعها

للعقاب فقط في حالات وشروط معينة، ويترك كثيرا من الأخلاق خارج نطاق عمله. فمن غش واستطاع ستر غشه مثلا، لا يعاقبه القانون، إلا أن وجود القانون وطريقة تنفيذه والتزام الناس به، يساعد على تفعيل الأخلاق الحسنة في المجتمع.

ختاما، لا يستطيع القانون أن يصون المجتمع بدون الأخلاق، فالأخلاق لها سلطان على النفوس وقوة تحفظ الجميع، وأما القانون فلا يملك تلك القوة، فهو قابل للاختراق وحمايته لا تشمل جميع الناس، والأخلاق أقرب إلى النفس البشرية والفطرة، التي تخضع لها طواعية. بينما القوانين ليست كذلك؛ ولذا فإن القانون لا يستطيع السيطرة على الفرد، ولا مراقبته في كثير من الحالات، بينما يكون للأخلاق سلطان داخلي ذاتي، فإذا استطاع الفرد الالتفاف على القانون للتخلص من عقابه دون أن يشعر بذنب، فإن التفافه على الضوابط الأخلاقية يبعث في نفسه شعورا بالذنب، وحاجة للتطهر.

وأيضا القانون لا يتجاوز الظاهر، وهو قاصر ووقتي ينتهي زمنه بالتقادم، أما الأخلاق فإنها تحفظ الظاهر والباطن، وهي قوة مانعة تقف في وجه الخطأ في كل وقت وعلى مر الزمن. والأخلاق أقرب إلى الفضل منها للعدل وتحض على التآلف، أما القانون فهو صلب جاف، وتطبيقه يخلو من المرونة، ويبعث على التباغض والنفرة. والمجتمع الذي يحكمه القانون فقط دون أن يكون للأخلاق فيه وجود فاعل، هو مجتمع جاف مادي ميت، يخلو من التراحم والتسامح والإنسانية، ولكن مع ذلك فإن وجود القانون بحد ذاته أمر مطلوب وضروري، كما أن

أحكامه التنفيذية وطريقة تطبيقه تسهم في تقبل الناس له وانصياعها لأحكامه، وهو ما يساعد كثيرا على الالتزام بالسلوكيات الأخلاقية الضابطة.

وعليه، فإن من أهم واجباتنا كمسلمين العمل على تفعيل سيادة القانون في بلادنا، بالتزامن مع نشر الأخلاق الحسنة والتبشير بها وتفعيلها في تعاملاتنا كلها، وتربية أبنائنا عليها فهما وسلوكا. بل إن من أعظم واجباتنا تجاه أنفسنا وتجاه العالم اليوم أن نبين جوانب النظرية الأخلاقية في الإسلام وطرق تفعيلها، والتي تقوم على أسس عدة بيّنها صاحب كتاب "دستور الأخلاق في القرآن" وأهمها: الإلزام الذي يأخذ مصدره من الأمر الإلهي، الذي ربط كل حكم بما يسوغه ويضبطه، والنية الخالصة لله والتي إن خلا الفعل منها يكون باطلا، لأنها تحدد الهدف المطلوب وتركز على الغاية المرجاة ولا تتجاهل المسؤولية عن الفعل، والجهد الذي ندفع به الميول السيئة لفعل الشر، والذي يعتمد على اختيار حر، واختيار صالح، وسعي نحو الأفضل .

نتيجة

تبين لنا من أن الدين الأسلامي الحنيف يقام على دعائم أخلاقية عظيمة وأكبر تأثير للقرآن الكريم في سلوك وخلق بشر كان تأثيره في تكوين خلق الرسول الكريم محمد عليه الصلاة والسلام كما جاء في حديث (وكان خلقه القرآن) فكان الرسول الكريم يترجم ما ينزل عليه من أيات بينات الى عمل وفعل وممارسة لذلك

أتصفت شخصيته وأخلاقه بالقرآن العظيم لذلك صار خلقه عظيما (أنك لعلى خلق عظيم)

لكن للأسف الشديد فأن المجتمعات المسلمة ضعفت أخلاقياتها أمام نزواتها ومنافعها ولم تعد تعطي للعامل أو الجانب الأخلاقي في تعاملها وسلوكها ويرجع ذلك - مع ماذكرته من أسباب أعلاه – الى عدة عوامل منها :

أولا _ طغيان الفلسفة النفعية المادية في عالمنا المعاصر وبفعل الوسائل والأدوات التكنولوجية والمعلوماتية استطاعت هذه الفلسفة ان تكتسح العالم اليوم بما طرحته من مفاهيم وقيم ومعاني جديدة للحياة وهذا كله جاء على حساب الجانب المثالي والأخلاقي عند الانسان فضعف الحس الاخلاقي ليحل محل المنفعة ولمصلحة الشخصية ولأننا كمجتمعات اسلامية نعيش في كوكب أصبح قرية كبيرة فمن الطبيعي أن يصيبنا ما أصاب غيرنا من الأمم .

ثانيا – ضعف الوازع والدافع الديني عند المسلم اليوم وهذا أدى بالتالي وكنتيجة على تراجع القيم والأخلاق والمبادئ وسيطرة النفس وأهواءها بتأثير وضغط فلسفة اليوم المادية ومتطلبات الحياة المعاصرة التي أصبح فيها المال وحده القيمة التي يقاس به الناس ولم يعد الانسان المسلم لكونه انسانا حضاريا عصريا أن يستطيع أن يصمد أمام هذا الكم الهائل من المغريات التي صارت تأتيه من كل الجوانب ولم يعد قادرا على مسك جمرة الايمان بيديه فأفلتها .

ثالثا ـ غياب الوعي الديني والتربية والعلوم الاسلامية الصحيحة والهادفة وانغماس العقل الديني العربي المعاصر في خوض الصراعات الفكرية والجدلية العقيمة كالجدل الدائر بين علماء ومفكري السنة والشيعة حول الخلافة والامامة وغيرها من القضايا التي أكل عليها الدهر وشرب .

فلم يعد الجمهور المسلم يهتم بقضايا العقيدة والآيمان والمعاملة والأخلاق بقدر أهتمامه بقضايا الطقوس العبادية والصراعات الفكرية الطائفية الجدلية .

لذلك فالمسلم المعاصر قد أكتفى بأنه مسلما في عداد المسلمين في دولة تطلق على نفسها بدولة اسلامية وهذا الانتساب الشكلي السطحي للاسلام ليس له أي قيمة أو معنى ايماني وفق منطوق وحكم الاية القرآنية الكريمة : ({قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الحجرات : 14]

4

البعد الإنساني

ان الرسالة الاسلامية بمجموعها رسالة إنسانية، فقد جاءت لتراعي إنسانية الإنسان فيما تأمر به أو تنهى عنه، وإذا نظرنا إلى المصدر الأول للإسلام، وهو القرآن كتاب الله، وتدبرنا آياته، وتأملنا موضوعاته واهتماماته، نستطيع أن نصفه بأنَّه: "كتاب الإنسان"، فالقرآن كله إما حديث إلى الإنسان، أو حديث عن الإنسان، ولو تدبرنا آيات القرآن كذلك لوجدنا أنّ كلمة "الإنسان" تكررت في القرآن ثلاثًا وستين مرةً، فضلًا عن ذكره بألفاظ أخرى مثل: "بني آدم"، التي ذكرت ست مرات، وكلمة "الناس" التي تكررت مائتين وأربعين مرة في مكيِّ القرآنِ ومدنيِّه، وكلمة (العالمين) وردت أكثر من سبعين مرَّة، والحاصل أن إنسانية الإسلام تبدو من خلال حرص الشريعة الإسلامية وتأكيدها على مجموعة من القضايا المهمة.

ولعل من أبرز الدلائل على ذلك أنّ أول ما نزل من آيات القرآن على رسول الإسلام محمد - صلى الله عليه وسلم - خمسُ آيات من سورة "العلق" ذكرت كلمة "الإنسان" في اثنتين منها، ومضمونها كلها العناية بأمر الإنسان. قال تعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) [العلق: 1-5].

وإذا نظرنا إلى الشخص الذي جسَّد اللهُ فيه الإسلامَ، وجعله مثالًا حيًّا لتعاليمه وقِيَمه الإنسانية، وكان خُلُقه القرآن، نستطيع أن نصفه بأنَّه: "الرسول الإنسان"، وإذا نظرتَ في الفقه الإسلامي وجدتَ "العبادات"، لا تأخذ إلا نحو الربع أو

الثلث من مجموعه، والباقي يتعلق بأحوال الإنسان من أحوالٍ شخصية، ومعاملات، وجنايات، وعقوبات، وغيرها.

ان الإنسانية في الإسلام هو ركن عقدي وواقع تطبيقي. شرّع الإسلام حقوق وواجبات بين المجتمع الإسلامي بتكويناته المتعددة لكل فرد، سواءً كان ذكرٍ أو أنثى. وقد حرص على رعاية حقوق الإنسان جميعاً. كما حث الإسلام على الأخلاقيات الحسنة، حتى إن الغاية من رسالة الإسلام هي إتمام وإصلاح مكارم الأخلاق في نفوس الناس أجمعين، وقد قال الرسول: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». فالتسامح، وحُب السلام، والكرم، والرفق بالتعامل مع غير المسلمين كُلها صفات تدل على الإنسانية .

الإنسانية في الإسلام

إنّ الإنسانية إحدى خصائص الإسلام، وإنها تشغل حيزاً مهماً في منطلقاته النظرية، وفي تطبيقاته العملية. وقد حرص الإسلام في تكريمه للإنسان، فجعل له حقوقه الكاملة غير المنقوصة في الحرية والكرامة والحياة الكريمة، فلا يحتقر أحد أو يعتدي عليه أحد، وانّ عليه واجبات يؤدّيها تجاه المجتمع وأفراده في جوّ من الألفة والمحبة. لأن الله خلق الناس من نفس واحدة، وقد أكد على المساواة بين جميع أفراد المجتمع. وقد أذهب الله بالإسلام نخوة الجاهلية وتفاخرهم بالأنساب وبهذا

حفظ الإسلام للفرد كرامته الإنسانية لينمي مواهبه وموارده ويعمل الخير لنفسه وللناس متعاونا مع غيره على البر و التقوى .

حقوق المجموعات المختلفة في الإسلام

ان الإسلام أعطى الإنسان حقوقه الكاملة غير المنقوصة، ولم يترك صنفا من الناس إلا ونص القرآن على حقه، وفصلت السنة النبوية ذلك وبينته، مما لم يوجد في دين أو منهج غير الإسلام. ومن أهمها:

حقوق الوالدين والأقارب

لقد أمر الإسلام ببر والدان وطاعتهما والإحسان اليهما وعدّ ذلك من اعظم القربات عند الله. كما أمر بالإحسان إلى الأقارب لأنهم رحم الإنسان. وقد كثرت النصوص في الحث على صلة الرحم. وقال الله في القرآن: وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ ، وقال: وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى .

حقوق الجيران

جعل الله للجار حقوقاً شرعية على جيرانه تُشبه حقوق الأرحام، ومن هذه الحقوق البر والصلة، والعيادة حين المرض، والمواساة حين المصيبة وكف الأذى عنه وإيصال الخير إليه وان اختلفت العقيدة. وروي عن رسول الله: «"لا يؤمن لا يؤمن لا يؤمن" قالوا ومن؟ قال: "الذي لا يأمن جاره بوائقه".»

حقوق الطفل

اهتم الإسلام بالأطفال اهتماما بالغا وجعل لهم حقوقــاً على والديهم، وأيضًا على المجتمع .

إنّ للطفل حقوقاً على والديه كفلها له الإسلام، وشدّد على الوالدين العمل بها. فالعناية بالطفل يجب أن تكون عناية شاملة لغذائه وكسائه ومأواه وصحته وتربيته وأمنه والترفيه عنه وكل ذلك يشكل حقوقه على والديه واسرته ومجتمعه. كما ان تربية الأطفال في الإسلام مهمة ودقيقة وقد أوجب على الوالدين تعليم أطفالهم المعتقدات الإسلامية الأساسية، والواجبات الدينية والصفات الأخلاقية كالأخلاق السليمة، والصدق، والتواضع، والجود والكرم. ويجب أن تكون المعاملة مع الأطفال بكلّ حب وصبر وأناة وصدور رحبة وإن قاموا ببعض الأعمال الخاطئة فتكون معاقبتهم بشكل جدي ودون قسوة. كما كان النبي محمد يُحسن إلى الأطفال وهو يحذر من اهمالهم ويعدّ ذلك إثما كبيرا.

يحذر الإسلام المعاملة القاسية والأفعال القمعية تجاه الأطفال وخصوصا اليتامى، وقد عظم مكافأة الإحسان إليهم، وهو يدين أولئك الذين لا يكرمون الأيتام.
﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ١٧﴾ [الفجر:17]

حقوق الأقليات

احترم الإسلام سائر الأديان، وأقام المساواة بين المسلمين وغير المسلمين في القضاء وفي سائر المعاملات. وقد جاء في القرآن:﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة:8]

ووقف الإسلام حيال الأديان الأخرى وأهلها موقفا إنسانيا يتسم بالتسامح واحترام عقائدهم وشعائرهم. وعلى أساس هذا الموقف أقام الإسلام القواعد والمباديء لتنظيم العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين فمثلا أوجب الإسلام على بيت المال الإنفاق إلى الفقراء ولا يفرق في ذلك بين المسلم وغير المسلم. كما أوجب الإسلام اتباعه بأن يتركوا أتباع الأديان الأخرى، الذين يعيشون في ظلِّ الإسلام، أحرارا في عقائدهم وعباداتهم وشعائرهم. وأيضا أوجب عليهم رعاية حقوقهم، فالإسلام يقرر لهم حقوق، وتطبق عليهم القوانين نفسها.

التكافل الاجتماعي والاقتصادي

يعتبر التكافل الاجتماعي والاقتصادي من أبرز وجوه ومظاهر البعد الإنساني في الإسلام، حيث أوجبت الشريعة مدّ يد العون لكافّة أصناف الفئات الفقيرة والتي تحتاج إلى المساعدة حفظاً لكراماتهم واحتراماً لإنسانيتهم وذلك فعلاً يؤديه المكلف قربةً إلى الله وتوسما للأجر والثواب. وقد شرع الإسلام من الوسائل والنظم ما

يحقق التكافل الاجتماعي والاقتصادي، وقد أناط عدداً من هذه الوسائل بالأفراد وجعل بعضها إلزامياً، وترك البعض الآخر للتطوع فيها .

الزكاة

الزكاة في الشرع الإسلامي فريضة شرعية فرضها الله وجعل المقصود منها صلاح أمور البلاد والعباد، وهي ثالث أركان الإسلام الخمسة. ويقول القرآن:﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ [فصلت:7] تعالج الزّكاة المشاكل الاجتماعية الناتجة عن الفقر في المجتمع وفضلاً عن آثارها المعنوية حيث تزيد من الألفة والمحبّة بين النّاس وتنفي الأحقاد والبغضاء من المجتمع، خاصّةً بين الطّبقات الغنيّة والفقيرة.

الصدقة المستحبة

الصدقة هي ما تعطى للمحتاج على وجه التقرب إلى الخالق والمعبود فقد شرع الإسلام الصدقة وجعلها من أفضل الأعمال في حين انها اختيارية وخارجة عن نطاق الوجوب. وقد تضافرت الأدلة والنصوص القرآنية والأحاديث في الحث على الصدقة بأنواعها، رغبة وداعية إلى الإنفاق ومحذرة من الشح والبخل.

السلوك الأخلاقي

يعدّ البحث الاخلاقي من أهم الأبحاث القرآنيّة والحديثية.اهتمّ الإسلام بتنمية الوعي الأخلاقي وتهذيب النفوس، باعتبارها مسألة أساسية تنشأ منها وتبني عليها جميع الأحكام والقوانين الإسلامية وقد اعتبر الإسلام التّكامل الأخلاقي وسيلة رادعة لمحاربة كلّ أنواع الفساد والانحراف وقد حذّر من انحدار الإنسان نحو الرذيلة والتسافل الأخلاقي.وقد قال رسول الله: «إنّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

ومن أهم الأخلاقيات الحسنة التي حثّ الإسلام عليها ورغّب فيها هي: الصبر والحلم والرفق واحترام الكبير، والكرم والحياء والتواضع، وطلب الإذن قبل دخول بيوت الآخرين، تحية الآخرين بطريقة صحيحة، الصدق في الأقوال والأفعال، كظم الغيظ والعفو عن الناس، الإصلاح بين الناس وقضاء الحوائج وكف الأذى.

مكونات البعد الإنساني في العلاقات الدولية الإسلامية

الإسلام وتكريم الإنسان

يشكِّل الرصيد القيمي والأخلاقي في أي حضارة أو أمّة ما، المرتكز الأهم لاستحقاق وجود تلك وضمان استمرارها وسيادتها، فأي حضارة تغيب البعد الإنساني الأخلاقي، هي حضارة محكوم عليها بالزوال،لأن مركزيّة الأخلاق في حياة الشعوب والأمم هي منبع المخزون القيمي والحضاري لضمان الاستمرارية

السننية التاريخية، تحت مبدا إتمام مسيرة الاخلاق، (إنّما بُعِثت لأتمم مكارم الأخلاق)، ومكارم الأخلاق، هي جملة من المبادئ والقوانين الناظمة للسلوك الإنساني بغية تحقيق معنى الاستخلاف الإلهي للإنسان مصدر محورية الكون.

وبالتالي فالحديث عن القيم والأخلاق هو حديث عن الإنسان ذاته، الإنسان الذي احتل قيمة مركزية في الكون،وتقلد مسؤولية الاستخلاف في الارض، تكريماً له وتشريفاً، تكريم سخرت معه مخلوقات الكون كافة ليتحقّق له مقام منزلته وتشريفه عند الله (أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)الحج 65

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا) الاسراء :70 وهو تكريم غير مقيد بشرط الجنس ولا اللون ولا الدين أو المذهب، وهنا نستحضر الرقي في مقام البيان القرآني، حين تحدث عن النفس، مستخدماً صيغة من صيغ العموم، فذَكَرَ النفس الإنسانيّة بصيغة النكرة مسبوقةً بالاسم الموصول "من"، وكلّ ذلك من الصيغ التي تفيد العموم والعالمية في احترام إنسانية الإنسان،(مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً..) المائدة : 32، فنص الخطاب القرآني هنا يشمل كلّ الأنفس الإنسانيّة، دون النظر إلى الفوارق الإيمانيّة أو غير الإيمانيّة، لأن الأصل، حماية الدم الإنساني وصيانته من أي اعتداء. بل ان رقي الإنسانية في الإسلام، يسمو الى حماية الإنسان حتى من إذاية نفسه (وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ

كَانَ بِكُمْ رَحِيماً) النساء : 29وتعدّاه ليشتمل حماية كل الحالات الاستثنائيّة، كحالات القتال في النزاعات الدولية، لتوضح على أنّ هناك أصنافاً معيّنة من الرعايا المنتمين للعدوّ المحارِب، لا يجوز قتالهم ولا يجوز الاعتداء عليهم، وحددت التعامل مع أسرى العدو حالة الحرب ينحصر بـ"المن أو الفداء"، مؤكّدة بذلك على أن الأخلاق الإسلاميّة تأبى الاعتداء على الأسرى بالقتل أو الإيذاء.

لقد أقر الإسلام في منظومة علاقاته الدولية، قيم التضامن والتكافل المعبرة عن روح المساواة في البعد الإنساني بين البشر: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عندالله أتقاكم) الحجرات : 13 وهذه الآية الكريمة تؤكد قضيتين هامتين في الإطار الحضاري الإنساني:

الأولى : أن الله تعالى، قد خلق الناس شعوباً وقبائل لكي يتعارفوا، وليس لكي يتخاصموا، وهكذا فإن الحضارة الإسلامية في محكم الآيات القرآنية تدعو إلى الحوار الحضاري وليس إلى الصراع الحضاري، وتؤكد أن الإسلام يعترف بالشعوب الأخرى وعقائدها وحضاراتها.

والثانية: أن الله تعالى يؤكد أن أكرم الناس عند الله هو أتقاهم وليس أبيضهم أو أسودهم أو أغناهم أو أشرفهم نسباً، مما يبرز بوضوح تام الفهم الإنساني العميق لدى الحضارة الإسلامية لحقائق الوجود البشري. لقد انطلقت استراتيجية التعامل الحضاري في التاريخ الإسلامي من هذا المفهوم، فلم يقم المسلمون بإجبار الآخرين

على تغيير معتقدهم، ولا يذكر التاريخ أن فترة أو حاكماً أو مرحلة من مراحل التاريخ الإسلامي شهدت عمليات إرهاب ديني أو قمع مذهبي. ويؤكد هذا وجود عدد من الأديان والطوائف والمذاهب تمتعت بحرياتها خلال المراحل المختلفة لحكم الإسلام عبر أربعة عشر قرناً.

نص كتاب المعاهدة

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى عبدالله أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان .

أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها بريئها وسائر ملتها، وأنه لا تسكن كنائسهم، لا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيّزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضارّ أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود.وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم، ويخلي بيعهم وصلبهم، فإنّهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم، فإنّهم يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم قعد، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله،

فإنّه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم. وعلى ما في الكتاب عهد الله وذمة رسوله، وذمة الخلفاء، وذمة المؤمنين، إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان، وكتب وحضر سنة خمس عشرة للهجرة*.ثم سار عمر رضي الله عنه من الجابية إلى بيت المقدس، وتنفيذاً لبنود المعاهدة وموادها، أقام رضي الله عنه مصلاّه إلى كناسة نظفها وطهّرها مع من كان معه من النّاس، ولم يصلّ في كنيسة القيامة كي لا يقال صلّى هنا عمر، فلتحوّل إلى مسجد، وعلى مقربة من الكنيسة بنى مسجد عمر دليل التّسامح والتّآخي والاعتراف بالآخر.لقد عبّر عمر رضي الله عنه بوضوح حينما سئل لِم لم تصل داخل الكنيسة، قال: "لو صليت داخل الكنيسة خفت أن يقول المسلمون من بعدي: هذا مصلى عمر، وأن يحاولوا أن يقيموا في هذا المكان مسجداً"

آداب حروب النزاعات الدولية في الإسلام

القاعدة الإسلاميّة في الفتوح الأمان لكلّ مدين، ولكل من لم يقاتل، ناهيك عن الأمان للأطفال والنساء والشيوخ وعلماء الدين، مع كفالة حرية المعتقد، فللحروب آدابها، لخصها أبو بكر الصديق رضي الله عنه في عشر خصال، جاءت في خطبته التي ودع بها جيش أسامة بن يزيد، وفيها يقول:(يا أيها النّاس، قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عنّي: لا تخونوا ولا تغلوا، ولا تغدروا ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تغفروا نخلاً ولا تحرقوا، ولا تقطعوا شجرة

مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلاّ لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له.وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطّعام، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء، فاذكروا اسم الله عليها. وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب، فاخفقوهم بالسّيف خفقاً، اندفعوا باسم الله)، وهذا يعني أن يقاتل المقاتلون فقط في ميدان المعركة.

حقوق غير المسلم في دولة الإسلام

واستناداً إلى العهدة العمريّة المستمدّة من الكتّاب والسنّة، والتي وقعت على منوالها معاهدات كثيرة في بلاد الشام، ومصر.. استخلص الفقهاء حقوقاً لغير المسلم في دولة الإسلام، منها :

1 - **حفظ النفس**، فدم الذّمّي كدم المسلم، قال علي رضي الله عنه: من كان له ذمّتنا، فدمه كدمنا، وديته كديتنا.

2 - **والقانون الجنائي** سواء فيه المسلم والذّمّي، يتساوى فيه الاثنان درجة.

3- **والقانون المدني** سواءٌ فيه الذّمّي والمسلم، وأموال الذّمّيّين كأموالنا، جاء في الدّار المختار 2/273: ويضمن المسلم قيمة خمره (خمر الذّمّي وخنزيره إذا أتلفه).

4- **مع حفظ الأعراض**: فلا يجوز إيذاء غير المسلم لا باليد ولا باللّسان، ولا شتمه ولا غيبته، ورد في الدّر المختار: ويجب كفّ الأذى عنه، وتحريم غيبته كالمسلم.

5- **وثبوت الذّمّة**: إنّ عقد الذّمّة يلزم المسلمين لزوماً أبديّاً، أي إنّه ليس لهم أن ينقضوه بعد عقده، ولكن أهل الذّمّة لهم الخيار أن يلتزموه ما شاؤوا, وينقضوه متى شاؤوا، ومهما ارتكب غير المسلم من كبيرة فلا ينقض بذلك عقده.

6- **والأحوال الشّخصيّة**: يقضي بها الذّميّون بحسب قانونهم الشّخصي.

7- **ولغير المسلم الحق** في إظهار شعائره في معابده.

8- **ولا يجوز في الجزية** أن يكلّفوا ما لا يطيقون، ومن يفتقر أو يحتج فلا يعفى من الجزية فحسب، بل يجرى له العطاء من بيت المال. وللإشارة فالجزية هنا تعني بالمفهوم المعاصر بدل التجنيد الاجباري العسكري أو بدل الجندية،كضريبة يؤديها من لايخرج للقتال وهم قادرون عليه،والدليل عدم فرضها على الشيوخ ورجال الدين والنساء.

9- **عدم خيانة العهد**، اليوم وبلغة العصر تمثل القاعدة القانونية الدولية في قدسية العهود واحترامها. كما صيغت في العهدة العمرية ووصاية ابي بكر الصديق، ترجمة مبسطة لمبدأ عدم خيانة العهد، كقاعدة قانونية أساسية في العرف الدولي المسمى بـ«Pacta Suct Servanda» أو الحفاظ على العهود، وكذلك هي الوصايا الخاصة

بعدم التعرض للأطفال والنساء والشيوخ، والتي اقرها الإسلام بقرون،قبل المبادئ التي وثقتها اتفاقية جنيف الرابعة الخاصة بمعاملة المدنيين وقت الحرب.

استشراف لمستقبل الديبلوماسية الإسلامية ؟

لا يخفى على أي مطلع تعرض الإسلام لحملة منظمة وشرسة لتشويه علاقاته الديبلوماسية عبر التاريخ، لأسباب سياسية مفهومة، منها محاولة استبدال العدو،وإعادة صياغة بؤر الخطر في النظام الدولي لأسباب توازنات سياسية واقتصادية وعقائدية مختلفة، وعلى الرغم مما تملكه الحضارة الإسلامية من تراث إنساني ضخم، فإننا كمثقفين جدد، نظل في حالة انبهار بالمنتج الثقافي والقانوني والحضاري الخارجي على كافة المستويات، فهل عجزنا حتى اليوم على صياغة خطاب حضاري لمختلف روافد الحضارة العربية الإسلامية؟ خطاب مؤصل بلغة يفهمها العالم الخارجي وترقى لمقومات الانفتاح الحضاري، بدلا من الانعزالية الثقافية!.

وبالتالي المشكلة الحقيقية التي تواجهنا اليوم،هي ليست في ريادة المنظومة الإسلامية في مجال حقوق الإنسان والقانون الدولي الإنساني، بقدر ماتتمثل في النقص التوثيقي الا كاديمي العلمي لهذه المنظومة، بلغات عالمية تجاري المتغيرات الدولية والأسس القانونية الدولية، وتأخذ حقها من النشر والتعريف والتدويل، لتعتمد ضمن مكتبات القانون الدولي بكل أطيافه وتوجهاته.وقد يستدعي منا التوقف على حقيقة

هذه الأبعاد الإنسانية في المنظومة الدولية الإسلامية تقديم رؤية تعارفية إنسانية لمكونات المنظومة الإسلامية في العلاقات الدولية، والعمل الجاد على تدويلها في سوق المنافسات الحضارية العالمية بجميع اللغات، بمعنى آخر الاستشراف المستقبلي لرؤية ديبلوماسية إسلامية، تنعتق كليا من سياسة الفوضى الخلاقة المحتكمة لمفاهيم التنميط الدولي الاستراتيجي،الذي يحفظ مصالح القوى العالمية على حساب زرع فتيل الصراعات الداخلية بين الشعوب، والضغط عليها بمزيد من االارتهان لعبودية قوانين بنك النقد الدولي، رؤية جديدة تخضع لمبدا توازن مصالحنا في دول العالم الإسلامي وترتكز على المفاهيم التالية:

ـ الإنسانية الإسلامية: التعارف – التعايش- الإخاء – المساواة – العدالة – التسامح – التكافل- التعايش- الخلافة الإنسانية- إنسانية الرسالة الإسلامية للعالمين.

ـ السنن الإلهية في التعامل الدولي: التعارف / التعايش الحضاري – التدافع الحضاري – ابتلاء الأمم – الطغيان / الاستكبار الدولي العالمي – العمارة الحضارية – قيام وسقوط الحضارات من رؤية إسلامية سننية – التوازن الحضاري – الإبدال الحضاري والتداول بين الدول الأمم – الفقه الحضاري وأصوله- الحوار الحضاري – عالمية الرسالة.

ـ وسطية الأمة الإسلامية – الشهود الحضاري (خيرية الأمة – أمة الشهادة...)- مقاصد الشريعة والتعامل الدولي – عناصر فاعلية الأمة الإسلامية – سنن: الاختلاف، والتنوع، والتعددية، والتعاون الحضاري - الصراع الحضاري...

ـ التأصيل للعلاقة مع الآخر.

ومن ثم بناء رؤية إسلامية للعلاقات الدولية تمتد إلى منظومات مفاهيم تتعدى التأصيل العام للأصل في العلاقات الدولية في الإسلام بحيث لا ينحصر في كونه حربًا أم سلامًا، ولكن متى الحرب ومتى السلام؟

وبالتالي فإن الظرفية التاريخية، وحالة عناصر التمكين السياسي والقوة للتداول السنني للحضارات هي المحدد الرئيسي لشروط حركية عناصر وغايات الحرب والسلام. وقد استفاد القانون الدبلوماسي المعاصر من آراء أئمة الفقه الإسلامي من خلال مؤلفاتهم الزاخرة، التي أرست القواعد الفقهية للسياسة الخارجية للدولة الإسلامية فضلاً عن تأكيدها لمبدأ الحصانة الدبلوماسية.

وإلى هذه المنظومة المتكاملة للإسلام (عقيدةً ومبادىء وقيمًا)، رد "ميشيل بوازار" أسباب إنتشار الإسلام بسرعة خلال القرون الأولى. حين يقول ": إن مفهوم الإسلام عن الإنسان والجماعة والعالم ينعكس على الهدف من الحرب وعلى طريقة سير المعارك، وطرق التعامل مع الأعداء، بحيث لا تتعارض الحرب مع المبادئ الإسلامية (العدل) ومع أخلاقيات الإسلام وبالطبع مع شريعته.

والحقيقةً كثير هم من تناولوا قواعد وأحكام فقه القتال والسلم في الإسلام وأهداف وأسباب الحروب، ولكن رؤية "ميشيل بوازار" تبين أن الفقه الإسلامي للعلاقات الخارجية، وخاصة الفقه العام الكلي- المتصل بأصل رؤية الإسلام للعلاقة مع الآخرين حربًا أم سلمًا- ليس أحكامًا فقط، ولكنه أيضًا فكر ورؤية للعالم، يساعد فهمها على فك الاشتباك بين الاتجاهات المتقابلة حول هذا الأصل. فهو ليس حربًا فقط أو سلمًا فقط. ولكن حربًا أو سلمًا وفق الأحداث التاريخية.

إن المجال جد مهيأ في عصرنا الحالي،إن نحن أردنا تنفيذ مقومات هذا الخطاب، من خلال أسمى وأرقى مبدأ إسلامي عنوانه البعد الإنساني في الديبلوماسية الإسلامية، عنوان يدعونا للبحث الا كاديمي الجاد عن تفعيل قيم الديبلوماسية الإسلامية عبر التاريخ، ويدعونا لعقد مؤتمرات عالمية موسعة، بمشاركة جادة لخبراء القانون الدولي والقانون الإنساني من المسلمين وغير المسلمين، لمناقشة وتوثيق الدور الريادي للإسلام في مجالي القانون الدولي الإنساني والقانون الدولي لحقوق الإنسان، وهنا يصح لي أن أنوه بمبادرة مركز السلطان قابوس في عقد مؤتمرها الدولي تحت عنوان أسبوع الوئام والتقارب الإنساني، وقد أعتبر هذا المؤتمر رسالة عربية من دولة إسلامية، اعتمدت منهج التقارب الإنساني لتوحد لغة المؤتمرين، وتجعل من محاور مشاركتهم آليات عمل مبنية على أسس اللغة الدولية الرافعة لصوت حقوق الإنسان ومفرداتها، تناقش القيم الإنسانية والدينية وتأثيرها المباشر

على تطور المفاهيم الإنسانية الدولية، وتحيي دور القيم التي ولدتها الحضارة الإسلامية العربية في تطوير مفهوم حقوق الإنسان دوليا

منهاج الرسالة الإسلامية في الإصلاح

أهتم منهج رسالة الاسلام بالإنسانَ بالمطلق، ورسم مسار حياته منذ خَلْقِه وبعد مماته، وحدد له المصير الأبدي، وأوضح له معاني الشر والخير، وطريقي الضلال والهدى، ومفاهيم الحق والعدل، وربط له ذلك كله بالمصير الأبدي والحياة السرمدية للإنسان، وزوده قبل ذلك وبعده بعقيدة كاملة الأصول والفروع - أيديولوجية - تتغلغل أنوارها في أغوار النفس البشرية وأعماقها، وتخاطب بالنواميس العقل والفكر، وتلامس المشاعر والخواطر، فتتفاعل وتتكامل، وتنشأ عنها مراقبة ذاتية من داخل الإنسان، لينبثق المؤمن المثالي، أو المصحف الناطق، أو السوبرمان كما يحلو للغربيين تخيله أو البحث عنه.

إن الأيديولوجية الإسلامية التي تملأ حياة الإنسان وتغوص معانيها ومفاهيمها في عقله وقلبه وروحه ومداخل نفسه، ترتكز على دعائم تتفرع عنها وتنبثق منها، أبرزها أو أهمها :

1- **وحدة الرسالات وأخوة الأنبياء**: فالأديان السماوية من لدن آدم وحتى النبي الخاتم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم تستقي من معين واحد، وترمي في دعواتها إلى تحقيق غاية واحدة، وترسم لأبناء الإنسان طريقاً واحداً مستقيماً، كلما

بعث نبي أكمله وزاد فيه: {شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً، والذي أوحينا إليك، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه}، وأن الأنبياء إخوة لا تفاضل بينهم من حيث الرسالة، وأن على المسلمين أن يؤمنوا بهم جميعاً: {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى، وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون}، وعلى المؤمنين ليكتمل إسلامهم أن يؤمنوا بالرسل جميعاً، وهذا أمر جوهري وحاسم في التعاون بين أتباع الرسالات، وإحلال التفاهم والتقارب والتعاون بينهم، بدلاً من النـزاع والصراع، والتنافر والاقتتال بين أتباع الأنبياء.

2- ***الأخوة الإنسانية*** : فاتحة الكتاب ـ وهي أعظم سور القرآن ـ تبدأ بالآية الأولى من آياتها السبع: الحمد لله رب العالمين، فالمولى جل شأنه ليس إله عالم واحد أو شعب بعينه أو عرق متفوق كما يزعم الأدعياء زوراً وسخفاً بأنهم شعب الله المختار، بل هو سبحانه رب الكون كله والعوالم جميعاً، والشعوب التي خلقها من نفس واحدة، والقرآن المجيد ـ كما رأينا من قبل ـ يخاطب الناس كأبناء أسرة واحدة: يا بني آدم، ويكرر هذا النداء في ثنايا الكتاب الخالد وفي كثير من سوره وآياته، وقد أكمل المصطفى صلى الله عليه وسلم بسنته القولية والفعلية هذا المعنى وأكد عليه، وبنى المجتمع الإسلامي الراسخ على أسسه، ولأمر ما كانت النواة المباركة الأولى لهذا المجتمع تضم مع النبي صلى الله عليه وسلم سلمان الفارسي

وبلالاً الحبشي وصهيباً الرومي، منوِّهاً صلى الله عليه وسلم إلى هذه البنية الطيبة أو هذه اللبنة المباركة في هذا الصرح الميمون، فقال صلى الله عليه وسلم: أنا أسبق العرب، وبلال أسبق الحبشة وسلمان أسبق الفرس وصهيب أسبق الروم. ليبشر الإنسان بفجر جديد يغمر بضيائه البشرية كلها ـ كأسرة واحدة ـ فتفيض عليها أنوار المودة وشموس المحبة في ظل المجتمع الإنساني المثالي الذي طالما حلم الفلاسفة والمصلحون بميلاده وبعثه.

بل إن النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم رسم للإنسان سبيل الفوز، وطريق القرب من خالقه، ودرب الخلاص الذي يفضي بذويه وسالكيه إلى النعيم المقيم، بفعل الخير والإحسان إلى الناس، ومد يد العون للمعذبين والمحرومين والمكروبين والمرضى، ولكل صاحب حاجة من بني آدم، ومن أفراد الأسرة البشرية، فقال صلى الله عليه وسلم: (الناس كلهم عيال الله، فأحبهم إليه أنفعهم لعياله) كما مر معنا في صفحات سابقة، واستمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتأكيد على هذه المعاني في تربيته لآل بيته الأطهار وصحبه الأبرار حتى استحالت هذه المبادئ الإنسانية المثلى إلى واقع عملي سجله التاريخ بصحائف غر وأحرف مضيئة، فهذا بلال الذي حرره الإسلام من قيود العبودية، يعتلي سطح الكعبة المشرفة، ويعلن من فوقها كلمة التوحيد، ويتقدم بعمله الصالح وصبره الجميل وجهاده المبارك على وجهاء مكة وصناديد قريش، وقل مثل ذلك عن المئات والألوف من بني آدم وحواء الذين

حررتهم رسالة الإسلام وسمت بهم إلى مصاف العلماء والفقهاء وكبار رجال القضاء، إن لم نقل إلى مصاف الملائكة المقربين أخلاقاً وسلوكاً وتهذيباً.

فالأخوة الإنسانية ثابتة وراسخة في معاني الرسالة الإسلامية ومبادئها ثبات الجبال ورسوخها، يجب وصلها، ولا يجوز ولا يصح بحال قطعها، فقد أمر الله تعالى أن توصل القلوب بالمودة، والعلاقات الإنسانية بالبر والقسط والمحبة، ومن المناسب التأكيد على قول الله تعالى في محكم آياته، فيما يخص البر وعمل الخير لغير المسلمين طالما أنهم لم يشنوا حرباً على عقيدة المسلمين ولم يعملوا على إخراجهم من أوطانهم: {لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم، إن الله يحب المقسطين}. وكي لا تكون مبادئ الأخوة الإنسانية محل مساومة أو جدل فإن: الإنسان أخو الإنسان أحب أم كره.

3- ***التعاون الإنساني***: نفذ الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم منذ الأيام الأولى لقيام الدولة الإسلامية في المدينة أحكام التعاون الدولي بين المسلمين وغير المسلمين، فعقد مع اليهود حلفاً أساسه التعاون على البر، وحماية الفضيلة، ومنع الأذى، وكرر عليه الصلاة والسلام عقد هذا الحلف مع قبائل يهودية عديدة، وقبائل عربية أخرى لإيجاد تعاون إنساني وإعلاء المعاني الإنسانية، وكان يعلن عليه الصلاة والسلام أن الله يمد بالقوة والعون كل من يسعف أخاه الإنسان في أي موطن،

ومن أي جنس، ويفرج عنه فيقول: (واللهُ في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه).

لقد هيأت العناية الربانية سيد الخلق منذ نشأته، وقبل أن ينـزل الوحي عليه، على حب الخير للناس جميعاً، وعلى نصرة الضعيف، إنصافاً له ورحمة به، فعندما كان في الخامسة والعشرين من عمره الميمون، حضر حلفاً لبعض أشراف قريش، فَسُرَّ عليه السلام لذلك سروراً عظيماً، فقال الهادي الأمين: لقد حضرت بدار عبد الله بن جُدعان حلفاً ما يسرني به حُمُر النعم، ولو دعيت إليه في الإسلام لأجبت، وكان من بنود هذا الحلف إنصاف المقهورين، ورد الاعتداء عن المستضعفين.

4- **المساواة بين الناس:** قام المجتمع الإسلامي على المساواة في الاعتبار البشري، وأن هذه المساواة لا تتحقق كاملة إلا في ظل الحرية التي ينبغي أن تتوفر وتتاح في اعتقاد الإنسان وفي تفكيره، وفي تصرفه وسلوكه، فالاعتبار البشري لكل الأفراد واحد، لأنهم جميعاً من نوع واحد، مهما كانت الفروق الفردية داخل الإطار العام للطبيعة البشرية، وعلى أساس من هذه الفروق يتم التمايز بين الأفراد كأفراد، دون أن يدعو ذلك إلى قيام الطبقية، وتقسيم النوع الإنساني إلى فئات يفضل بعضها بعضاً بالقيمة الإنسانية، ويؤدي هذا التفاضل إلى استغلال الأعلى منها للأدنى، على نحو ما هو شائع ومعروف في تاريخ المجتمع الأوربي .

فالمجتمع الأوربي ـ والغربي عموماً ـ تأصل وقام على روح طبقية، ولازمته هذه الروح في تطوره وتغييراته المختلفة، وما زالت باقية فيه، بالرغم من صنوف الثورات التي شهدها، ومن تعدد شعاراتها، ولن تنعدم هذه الروح أو تخف وتتلاشى إلا إذا سادت الروح الإنسانية وحدها، وعلت كل عامل آخر في تسيير المجتمع.

إن مجتمع الثورة الماركسية يكاد يمثل مجتمع العبيد كما كان في القرن العشرين، فقد استحلَّ فيه الرقَّ الجماعيَّ فريق من الأسياد عن طريق الإرهاب الذي تقوم به أو تشرف على تنفيذه تشكيلات بوليسية وأمنية وحزبية مختلفة لحماية ما يسمى بالثورة. وإذا كان للأفراد الأرقاء في نظام الرق القديم أمل في التحرر عن طريق العتق والمكاتبة، فالنظام الماركسي في الاسترقاق لا يترك بصيصاً من أمل في الخلاص من رقه وعبوديته، ومن إكراهه وإرهابه

يقول توينبي أكبر مؤرخي القرن العشرين: إن الإسلام قد قضى على النـزعة العنصرية والصراع الطبقي بتقرير مبدأ الإخاء الإنساني والمساواة المطلقة بين المسلمين، وعلى الغرب أن يأخذ بهذا المبدأ الإسلامي لتنجو المدنيّةُ الحالية مما يدب فيها اليوم من عناصر العداء. ويقول برنادشو: الإسلام يوحد بين أهل العقيدة المشتركة دون أن يجعل أي فرق بينهم بسبب أوطانهم وألوانهم وجنسياتهم، وهو المبدأ الذي لم يُعرف عند الرومان السابقين، ولا عند الأوربيين والأمريكيين الحاضرين .

الإسلام لا يسمح بقيام نظام طبقي تسيطر فيه طبقة أو مجموعة، كما لا يسمح بتحكم فئة تدعي لنفسها الاستعلاء بالثقافة أو البيئة أو العنصر أو اللون أو الجنس على الفئات الأخرى، بل جاء ديناً يقرر المساواة بين أفراد البشر بشكل مجرد، يطبق على نطاق الإنسانية كلها بلا تمييز، فالبشر متساوون في أصل المنشأ، فهم من تراب، وحتى الرسل عليهم السلام لا يختلفون عن بقية البشر في ذلك: {إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب، ثم قال له: كن فيكون}، ويقرر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فيقول: الناس ولد آدم، وآدم من تراب، ويقول: الناس متساوون كأسنان المشط، ويقول: من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه.

ومن مظاهر المساواة أمام القانون الإسلامي قصة المرأة المخزومية التي سرقت كما سبق ذكرها، وحادثة المصري القبطي ـ المسيحي ـ عندما تسابق مع ابن والي مصر عمرو بن العاص فسبقه المصري، فاعتدى عليه ابن الأمير بالضرب، فشكاه القبطي إلى الخليفة عمر بن الخطاب الذي أحضرهما، واقتص للمصري من الوالي ومن ولده، وأطلق صيحته التي ما زالت مدوية في أرجاء الزمان: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً، كما نقل ذلك ابن الجوزي في كتابه: تاريخ عمر ابن الخطاب، ومن معالم هذه المساواة التامة، حادثة جبلة بن الأيهم الذي لطم الأعرابي لأنه داس على طرف ردائه في أثناء الطواف، فحكم عليه الخليفة أن يرضي الأعرابي أو يلطمه الأعرابي، وعندما اعترض على هذا الحكم بدعوى أنه ملك، والأعرابي من العامة، أجاب الخليفة: الإسلام سوَّى بينك وبينه، فهرب

جَبلةُ وارتد كما رواه البلاذري في كتابه فتوح البلدان طبعة القاهرة 1959 في الصفحة 142، فليس في الإسلام فرد لا تطوله يد القضاء، وهذا ما تميز به القضاء الإسلامي على النظم القضائية الأخرى، وفي رسالة عمر بن الخطاب لعامله على الكوفة أبي موسى الأشعري: آس بين الناس في وجهك ومجلسك وقضائك، حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك، وقد مر ذكرها في صفحات سابقة.

ادعى جماعة ضد الخليفة المنصور أمام القاضي محمد بن عمر الطليحي، فاستدعى القاضي الخليفة، وأجلسه مع الخصوم، ثم حكم القاضي ضد الخليفة، وبعد انصراف الناس وعودة الخليفة إلى دار الحكم، استدعى الخليفة القاضي ليقول له: جزاك الله عن دينك ونبيك، وعن حسبك وعن خليفتك أحسن الجزاء، وأخيراً ـ وليس آخراً ـ فالإسلام سوّى بين الجميع في تحمل مسؤولية الجهاد والدفاع عن البلاد والعباد دون أي استثناء بسبب الحسب أو النسب أو الجاه، قال الله تعالى: {انفروا خفافاً وثقالاً، وجاهدوا في بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله}، وعندما تخلف عن الحشد ثلاثة من المسلمين، كان عقابهم عبرة لكل أبناء الأمة، ثم نزل فيهم قرآن قرر أحكاماً أبدية تطبق على الجميع وتكون عظة لهم: {وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه، ثم تاب الله عليهم ليتوبوا، إن الله هو التواب الرحيم}.

5- **إقامة العدل:** يُثَبِّتُ العدلُ دعائمَ الحياة الاجتماعية البشرية كما تثبت الجبال الأرض أن تميد بذاتها وبسكانها، لهذا أكد الإسلام على العدل تأكيداً شديداً كجزء من نظامه ـ أو أيديولوجيته ـ وقرر إقامته بين الخلائق جميعاً، والأنبياء قد بعثوا جميعاً منذ بدء الخليقة لإذاقة الناس حلاوته، قال الله تعالى: {لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط}، وقال سبحانه: {إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل}. وما دام العدل في نظر الإسلام غاية تقصد لذاتها، فكل ما يوصل إليه يُعد شريعة، وإن لم يصرح الشارع به ويذكر تفاصيله.

قال ابن القيم: من له ذوق في الشريعة، واطلاع على كمالها، وتضمنها لغاية مصالح العباد في المعاش والمعاد، ومجيئها بغاية العدل الذي يسع الخلائق، وأنه لا عدل فوق عدلها، ولا مصلحة فوق ما تضمنته من المصالح، تبين له أن السياسة العادلة جزء من أجزائها، وفرع من فروعها : {يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله، شهداء بالقسط، ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى، واتقوا الله، إن الله خبير بما تعملون}.

الجميع أمام العدل في نظر الإسلام سواء، لأن العدالة لا تتجزأ، وهي في نظام الدولة كالفضيلة في حياة الفرد، أو الشعاع في طبيعة الشمس، لا تتخلف ولا تتغير، فالمؤمن والكافر أمام القانون سواء، لقد عاب القرآن الكريم على اليهود أنهم يفاوتون

بين أتباع الأديان في معاملاتهم، وبيّن أن ذلك ينافي التقوى والوفاء: {ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك، ومنهم إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً، ذلك بأنهم قالوا: ليس علينا في الأميين سبيل، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون، بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين}.

روى سفيان: سمعت من حماد بن أبي سليمان يحدث عن الشعبي أن أم الحارث بن أبي ربيعة ماتت وهي نصرانية، فشيعها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم. وأن قريشاً استشفعت لإحدى نسائها كيلا يقام عليها الحد، فأجاب المصطفى من فوق المنبر خطيباً: إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد. وأن عمر قال لجبلة بن الأيهم وهو أحد ملوك الغساسنة في خلافه مع فرد من أبناء الأمة: الإسلام سوّى بينكما كما سبق. لقد التزم الإسلام جانب العدالة المطلقة، يوم دانت له الأرض، ولم يبق على ظهرها سلطان مرهوب غير سلطانه.

لقد تمتع غير المسلمين في المجتمع الإسلامي بالعدل كالمسلمين سواء بسواء، فعن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من قتل معاهداً لم يُرح رائحة الجنة، وفي رواية أخرى: من قتل قتيلاً من أهل الذمة حرّم الله عليه الجنة، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يقفن أحدكم موقفاً يُضرب فيه رجل ظلماً، فإن اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه، وروى الأصبهاني عن

النبي صلى الله عليه وسلم: من مشى مع مظلوم حتى يثبت له حقه ثبت الله قدميه على الصراط، يوم تزل الأقدام.

6- **ضمان الحياة الكريمة للإنسان**: وكما قررت الرسالة الإسلامية في أحكام الشريعة الإسلامية الضرورات التي تحفظ للإنسان عقله ونفسه ودمه وماله ونسله، فإنها ضمنت للإنسان حياة كريمة في تأمين أسباب معيشته بكرامة في المأكل والمشرب والملبس والمسكن والدواء وما يتبع ذلك، وجاء التكافل بين أفراد المجتمع وفي مسؤولية الدولة في مقدمة ذلك، واتخذ الشارع لتنفيذ ذلك طريقين، حرم في الأول كل ما يؤدي إلى استغلال الإنسان لأخيه الإنسان في ابتزازه وسرقة جهوده وحقوقه، ومن ذلك: التحريم القاطع للتعامل الربوي، وتهديد المرابين بأشد العقوبات عاجلة وآجلة، وإعلان الحرب عليهم: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله، وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله، وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون}لأن الربا يجعل رأس المال متحكماً بالإنسان، بدلاً من أن يتحكم الإنسان بالمال يتصرف به طبقاً لموازين العدل والإنصاف ومصلحة الفرد والمجتمع، ومن ذلك أيضاً تحريم جميع المعاملات التي تنطوي على غش أو رشوة أو تطفيف بالكيل والميزان، وتحريم الاحتكار. ومَقْت المحتكرين ولعنهم بنص الحديث الشريف، ولا سيما الذين يحتكرون الأغذية وأقوات المواطنين، فقال صلى الله عليه وسلم: المحتكر ملعون، كما اتخذ الإسلام إجراءات عدة ليستفيد المجتمع كله وبجميع أفراده من ثروة الأمة التي

يشارك المواطنون بتداولها، فلا تبقى دُولة بين الأغنياء دون الآخرين، فقد شرع الإسلام قانون الإرث ليوزع الميراث على أكبر عدد من الوارثين، وفرض الزكاة على الأرباح ورؤوس الأموال، أي الثروة العامة (الثروة القومية)، بحيث لا يبقى ضعيف أو فقير أو مسكين أو مدين خارج أحكامها، إلا ويناله تكافلها وأسهمها، وكذا أحكام الصدقات المفروضة في المواسم العديدة مثل عيدي الفطر والأضحى، وتسديد مبالغ النذور والكفارات، كذلك فتح الإسلام باب التبرع والتصدق الطوعي على مصراعيه والترغيب في ذلك والتشجيع عليه بما أعده الله من الأجر العظيم للمتبرعين والمصّدّقين، كما شرع الإسلام أحكاماً استثنائية لعلاج الأزمات الطارئة والظروف القاسية في الحروب وتفشي الأمراض المعدية كالطاعون، وذلك لتعديل الأوضاع وتحقيق التوازن الاقتصادي في المجتمع إذا تعرض للاضطراب أو الخلل، من ذلك ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم في إعطاء الفيء للمهاجرين ولرجلين من الأنصار بعد المعركة مع بني النضير، ورغّب فيه في إنفاق ما زاد أو فاض عن الحاجة، واتخاذ الإجراء الحاسم إذا داهمت المجتمع مجاعة أو نزلت بساحته أزمة خانقة، قال المصطفى صلى الله عليه وسلم: الأشعريون مني وأنا منهم، قالوا: وما الأشعريون يا رسول الله، قال: قوم إذا أرملوا - أصابهم القحط - جمعوا كل ما لديهم ثم تقاسموه بالسوية، فهم مني وأنا منهم. ولقد تم تطبيق هذا الإجراء الاستثنائي الذي يعالج به المسلمون حالات طارئة وقاهرة في مناسبات عدة، كالذي حدث في غزوة مؤتة، عندما استلم خالد بن الوليد قيادة الجيش بعد

استشهاد القادة الثلاث، جعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة، فاستأذن الجنودُ الأمير بذبح بعض الإبل ليقتاتوا فأذن لهم، فاعترض بعض القادة على ذلك وقالوا: إنها عدتنا في الحرب وفي السفر، فقال وما العمل؟ قالوا: تجمع الأقوات في مكان واحد ثم يشترك الجميع بها في السوية، فنادى منادي الأمير الجند قائلاً: توقفوا عن ذبح الإبل، واجلبوا كل ما لديكم من مؤونة وضعوه في الخيمة التي خصصها لذلك، وهكذا حلت أزمة تموين الجيش في غزوة مؤتة، وقد صح عن أبي عبيدة بن الجراح وثلاثمائة من الصحابة رضي الله عنهم أن زادهم فني، فأمرهم أبو عبيدة، فجمعوا أزوادهم في مزودين، وجعل يقوتهم إياها على السواء، ثم كانت بعد ذلك أشد الإجراءات صرامة وحسماً، عندما أعلن المصطفى صلى الله عليه وسلم إنذار المجتمع بكل فئاته وأفراده أنهم سيكونون خارج دائرة الإيمان إن كان فيهم جائع أو مضطر فلم يسعفوه، وأقسم النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك فقال: والله ما آمن، والله ما آمن، والله ما آمن، من بات شبعان وجاره جائع إلى جانبه وهو يعلمه .

7- **الإسلام والمرأة:** كم بلغت تعاسة المرأة وبؤسها قبل بزوغ شمس الإسلام وانبلاج فجر الهداية؟ وكم بلغت فداحة المظالم التي وقعت عليها ونالت منها على مدى عشرات القرون!! فمن الشعوب من اعتبر المرأة سلعة تورَّث، وبعضهم شكك في آدميتها، واعتبرها خارج الجنس البشري، والبعض حكم عليها بالانتحار أو الاحتراق لتلحق بزوجها إن سبقها بالوفاة، وآخرون لم يقروا لها باستقلال الذمة

المالية والحق الكامل بالملكية وهكذا.... فالرومان لم يعترفوا لها بالأهلية الحقوقية، بل وضعوها تحت وصاية الأب أو الزوج الدائمة، لا تملك أية حرية في تصرفاتها، فهي موروثة لا وارثة، وهي في ميزان الشريعة الرومانية شيء من الأشياء التابعة للرجل، وفي أوربا كانوا يتساءلون: هل المرأة تتمتع بروح كروح الرجل؟ أم أن روحها كروح الحيوانات كالكلاب والثعابين، وكانت المرأة عند كثير من العرب عاراً وشراً على ذويها ، كما كانت سلعة للمقايضة، يزوجها الرجل بابنة أو أخت رجل آخر، وكانت في العرب الجاهليين وصمة عار، لأنها تسبى ولا تشارك في دفاع أو قتال، فإذا ولدت اربد وجه والدها وتجهم، واستعاذ وتشاءم، وقد وصف القرآن الكريم هذه الحالة: {وإذا بُشِّرَ أحدُهم بالأنثى ظلَّ وجهُه مُسْوَدّاً وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّرَ به، أيمسكه على هون أم يدسُّه في التراب، ألا ساء ما يحكمون}، {وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم}. وهذا ما دعا البعض منهم إلى التخلص من المولودة بالوأد والدس في التراب دونما شفقة أو رحمة. فهي محرومة من الإرث، بل كانت جزءاً من الميراث والتركة، يزوجها الوارث من يشاء دون إرادة منها أو سماع رأيها، روى ابن عباس قال: كانوا في الجاهلية إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاؤوا زوجوها، وإن شاؤوا لم يزوجوها وهم أحق بها من أهلها.

انتقل الإسلام منذ الساعات الأولى لظهوره بالمرأة من الحضيض إلى أعلى عليين، قفز بها من العدم إلى الوجود، ومن الشك في آدميتها إلى كامل إنسانيتها، ومن

منتهى المهانة إلى أعلى الكرامة، ومن فقدان الشخصية إلى كامل الأهلية، لا فرق بين ذكر وأنثى في أهلية الولاية لكل منهما على الآخر {والمؤمنون والمؤمنات، بعضهم أولياء بعض، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويطيعون الله ورسوله، أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم}، بل إن المرأة تقدم في بعض الحالات على الرجل في الأحكام الفقهية، مثل الحضانة، إذ تقدم الزوجة على الزوج، وفي بر الوالدين تقدم الوالدة على الوالد.

لقد خص القرآن الكريم المرأة بعدد من سوره، مثل سورة النساء من طوال سور القرآن، وسورة الطلاق التي تعالج موضوعه، وسورة المجادلة التي احتوت على الحوار بين الزوجين، لتؤكد الأخذ والرد بين الرجل والمرأة لعلاج ما ينتاب العلاقة بين الزوجين في بعض الأحيان من اختلاف، وسورة الممتحنة التي تحدثت عن هجرة النساء ومبايعتهن، بالإضافة إلى كثير من الآيات الكريمة التي تحدثت عن النساء وشؤونهن، تكريماً للمرأة التي احتلت مكانتها المرموقة في المجتمع الإسلامي تشارك الرجل في تحمل المسؤولية، والاضطلاع بأعباء الدعوة، وإصلاح المجتمع، وتقويم الاعوجاج فيه، وإشاعة الفضيلة ومكافحة الرذيلة وتربية الجيل وإعداده للمستقبل في النهوض بأمته، وقيامه بما يلزمه ويترتب عليه من الواجبات حيالها.

إن تحرير المرأة من الظلم والعسف، والنهوض بها ورفع شأنها يختلف في موازين الحضارة الغربية عنه في معايير الرسالة الإسلامية، فالإسلام يرفض بشكل قاطع أن توظف أنوثة المرأة في الترويج للسلع التجارية أو الدعاية الانتخابية، أو أن يُدفع بها

إلى العمل الشاق في ساحاتٍ تصادم فطرتها وتكوينها على حساب مسؤولياتها ووظائفها الأساسية، كما هو حال العاملات في تنظيف محطات السكك الحديدية كالذي نراه شائعاً في الغرب، أو العمل الشاق في المناجم. كما يرفض الإسلام للمرأة أن تمارس حرية التعري والتبذل والفوضى الجنسية التي تقوض أركان العائلة، وتفرز أجيالاً من اللقطاء أو الأطفال خارج الحياة الزوجية تُملأ بها الملاجئ، فيفقد الإنسان اعتباراته الإنسانية ومقوماته الشخصية وصحته النفسية.

أما الإسلام فقد رفع شأن المرأة، وسما بها إلى مقامات كريمة، فجعل الجنة تحت أقدامها والدة، وجعل طريق النعيم لوالديها مولودة، (من ربى جاريتين ـ فتاتين ـ فأحسن تربيتهما أدخلتاه الجنة) ، وأوصى الرسول صلى الله عليه وسلم بها زوجة وحض على تكريمها وإسداء الخير لها، فقال: خيركم خيركم لأهله ـ لزوجته ـ وأنا خيركم لأهلي، وأعطاها الإسلام حريتها الكاملة في ذمتها المالية وملكيتها، وفي إبداء رأيها في كل ما يتصل بحياتها ومستقبلها كالزواج وغيره، وشؤون الأمة والمجتمع، دونما خوف أو وجل، فكانت المرأة المسلمة في عصور الازدهار، تثبت الرجال في الأزمات، وتناقش الخلفاء، وتحاور العلماء، دون أن يكلفها الإسلام عبء الإنفاق على نفسها أو زوجها أو أطفالها، لأن الإسلام بنى العلاقة بين الزوجين على المودة والرحمة، وليس على الشراكة الاقتصادية التي تجعل الزوجين في محاسبة يومية كثيراً ما تفضي إلى الخلاف والشنآن كما يحدث في كثير من المجتمعات الغربية، فالمرأة تكون دائماً أو غالباً في بحبوحة ويسر بما ترثه ـ وإن كان نصف ما

ينال الرجل ـ لأنها غير مسؤولة عن النفقة ـ إلا تطوعاً ـ مهما كانت ثرية، وكان حال الزوج معسراً.

في هذا المناخ الذي هيأته رسالة الإسلام للمرأة استعادت ثقتها بنفسها، واستكملت بناء شخصيتها، وأخذت مكانتها في المجتمع الإسلامي، وأدَّتْ دورها في بناء حضارته، كثمرة للتعاليم الإسلامية الخاصة بالمرأة، وللنصوص القطعية التي وردت في الكتاب والسنة، فدخلت المرأة المسلمة التاريخ من أوسع أبوابه، فأقبلت على العلوم بمختلف فروعها، بدءاً بعلوم القرآن والسنة الشريفة منذ فجر الإسلام، فقد كانت عائشة رضي الله عنها من كبار من حدث على لسان الرسول عليه السلام، وكانت واسطة العقد بين الرسول والمسلمات، قال النبي صلى الله عليه وسلم بشأنها: خذوا شطر دينكم عن هذه الحميراء، كما أقبلت النساء على رواية الحديث إقبالاً عظيماً، حتى إن ابن سعد عقد فصلاً كبيراً في كتابه الطبقات الكبرى خص به النساء المحدثات، فأحصى أكثر من سبعمائة محدثة روت الحديث عن الرسول وعن الثقات من أصحابه، وترجم ابن حجر حياة أكثر من ألف وخمسمائة محدثة قال عنهن: إنهن كنَّ ثقات عالمات، كما خصص النووي في تهذيب الأسماء، والخطيب في تاريخ بغداد والسخاوي في الضوء اللامع حيزاً كبيراً للحديث عن النساء اللائي كانت لهن ثقافة عالية، ولا سيما في العلوم الإسلامية وفي رواية الحديث. وقد عد ابن عساكر أساتذته وشيوخه الذين تلقى عنهم، فكان من بينهم إحدى وثمانون امرأة، واشتهرت من النساء نفيسة بنت الحسن بن زيد كمحدثة،

سمع منها الشافعي نفسه، وزينب بنت عبد الرحمن الشعري التي أجازت ابن خلكان، وكريمة بنت أحمد المروزي التي قرأ عليها الخطيب البغدادي صحيح البخاري، وفي مجال الأدب والطب والفلسفة اشتهرت كثيرات من أمثال زوجة الفرزدق، ورابعة العدوية وزبيدة زوجة الرشيد، كما برعت بعض النساء بالطب حتى ترجم ابن أبي أصيبعة لبعضهن في مؤلفه طبقات الأطباء، وأورد ذكر بعضهن القفطي في أخبار الحكماء، ومنهن زينب بنت أود المختصة في طب العيون، وأم الحسن بنت القاضي أبي جعفر الطنجالي، وكان الميدان الذي شمل عدداً من النساء الاشتغال بالتربية والتعليم، والوعظ والتدريس.

فمتى تُحقق المرأة ما بلغته في العهود الإسلامية الزاهية وفي عصور الازدهار من شأن في كل ميدان، وما نالته من حقوق؟ ستستغرق وقتاً طويلاً حتى يتم لها استرجاعها، وهذا الانتصار المأمول ستبلغه المرأة بسهولة ويسر، ودونما عنت أو عناء عندما تعود الأمة عودة صادقة إلى رحاب الإسلام، وتتفيأ ظلاله الوارفة الهنيئة.

8- **حقوق غير المسلمين:** ليس ثمة فروق في الحقوق بين المسلمين وغير المسلمين في المجتمع الإسلامي أو ظل الحكم الذي يلتزم بتعاليم الإسلام، وقد أدهش هذا الأمر المفكرين الغربيين والمستشرقين المنصفين وكبار المؤرخين من أمثال أرنولد توماس وبروكلمان وبيكاي وجيب وغيرهم، وهم يقارنون بين ما كانت عليه

المجتمعات البشرية في الصين والهند في آسيا، وفي الإمبراطورية الرومانية وبلاد فارس قبل الإسلام، وفي الدول الأوربية في العصور الوسطى مثل إسبانيا وبلاد الغال من تفرقة مقيته وامتهان للأقليات ولبعض الفئات والطبقات، على أساس من الدين أو العرق أو اللون أو الجنس أو غير ذلك، وبين ما كان يسود المجتمع الإسلامي من مساواة كاملة بين جميع أفراد المجتمع، بل لقد كان التأكيد على حماية غير المسلمين في حقوقهم وحرياتهم على أشده، وكان التحذير بالغاً لكل من يمس معاهداً أو مواطناً من أهل الكتاب ـ يهود ومسيحيين ـ أو من هم في حكمهم، في شعوره أو كرامته أو أي حق من حقوقه.

لقد نصت أحكام الشريعة السمحاء على أن للذميين من أهل الكتاب ومن هم على شاكلتهم الحرية في الاحتكام إلى كتبهم وشرائعهم في الزواج والطلاق وأحوالهم الشخصية، بله المعتقدات والعبادات، وحماية أديرتهم وصلبانهم وكنائسهم ومقراتهم ودور سكنهم. ويرى أبو حنيفة أنه لا يجوز التعرض لهم في معاملتهم وعلائقهم الاجتماعية التي لا يتعدى ضررها إلى الآخرين، كما يرى أن يقضى بينهم بأحكام دينهم، كما أباح الإسلام لهم التعامل بما لا تحرمه ديانتهم كالخمر والخنزير، وبه قال جمهور العلماء كما ورد في الجزء 19 ص138 من كتاب المبسوط للسرخسي، وإذا أتلف أحد المسلمين خمر الذمي أو قتل خنزيره كان عليه غرامة، وقد أكد صاحب الدر المختار ذلك بقوله: ويضمن المسلم قيمة خمره وخنزيره إذا أتلفه .

لقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسمح لأهل الكتاب من اليهود والنصارى بالرجوع إلى أهل دينهم في شؤون المواريث والحقوق الخاصة كما جاء في بدائع الصنائع للكاساني في الجزء الثاني ص312، كتب خالد بن الوليد لأهل الحيرة: أيما شيخ ضَعُفَ عن العمل أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنياً فافتقر، وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته، وعيل من بيت مال المسلمين هو وعياله كما جاء في كتاب الخراج لأبو يوسف ص144، وكتاب المودودي الخاص بحقوق أهل الذمة في الدولة الإسلامية .

أما تسامح المسلمين في تولية غير المسلمين في الوظائف فقد كان مثار إعجاب ودهشة الغربيين، ومنهم آدم ميتر الذي قال: من الأمور التي نعجب لها كثرة عدد العمال والمتصرفين (الموظفين) من غير المسلمين في الدولة الإسلامية. وتعقب لورافيشيا (المفكرة الإيطالية) على ذلك فتقول: الواقع أن اليهود والنصارى لم يمنحوا حرية المعتقد الديني فحسب، بل عُهد إليهم بتولي المناصب الحكومية، واستمر هذا الوضع على ذلك في الدول الإسلامية وحتى في عهد الأتراك العثمانيين كما قال كارل بروكلمان . وزبدة القول في هذا الموضوع، أن أملاك المعاهدين وغير المسلمين والذميين مصونة، تنقل إلى ورثتهم، ويكون لهم فيها جميع حقوق التصرف كالبيع والهبة والرهن، ولا يجوز للدولة الإسلامية أن تحرمهم من شيء من أملاكهم، وأن دم الذمي كدم المسلم، فإن قَتَل مسلمٌ أحداً من أهل الذمة اقتُصَّ منه له كما لو قتل مسلماً، فقد قتل رجل من المسلمين رجلاً من أهل الذمة، فرفع ذلك إلى

رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أنا أحق من وفى بذمته، ثم أمر به فقتل. وفي زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قتل رجل من بني بكر بن وائل رجلاً من أهل الذمة بالحيرة، فأمر عمر بتسليم الرجل إلى أولياء المقتول، فسلم إليهم فقتلوه، وقال علي رضي الله عنه: من كان له ذمتنا فدمه كدمنا وديته كديتنا، كما لا يجوز إيذاء الذمي باليد أو اللسان أو شتمه، كما لا تجوز غيبته، بل يجب كف الأذى عنه وتحريم غيبته كالمسلم، كما ورد في كتاب الدر المختار، وللذميين وغير المسلمين في المجتمع الإسلامي الحق في أن ينظموا أمر تعليمهم الديني في المعاهد المخصوصة بهم، ولهم الحق في الدخول في الوظائف الحكومية حسب الأهلية والكفاءة بلا تمييز بينهم وبين غيرهم من المسلمين.

لقد طبقت هذه الأحكام وسادت تلكم السياسات حيال غير المسلمين في طول البلاد الإسلامية وعرضها، على مدى القرون الخمسة عشر التي انقضت على ظهور الإسلام، فعاش أهل الكتاب من اليهود والنصارى وأهل الذمة والمعاهدين في أمان واطمئنان في المجتمعات الإسلامية كجزء منها، لا يمسهم فيها نصب ولا ذلة، حقوقهم محفوظة، وكرامتهم موفورة، ودور عباداتهم مأمونة، ودماؤهم تتكافأ مع دماء المسلمين، حتى غدت الأرض الإسلامية ملاذاً آمناً لكل المضطهدين والمعذبين يلجؤون إليها، ويحيون حياة كريمة في رحابها كلما نالهم ظلم أو وقع عليهم عدوان بسبب معتقدهم أو عِرقهم، فلا يجدون الملجأ والأمن إلا في بلاد

المسلمين، وفي مجتمعهم وظل سلطانهم كالذي جرى لليهود في أوربا، وفي إسبانيا على وجه الخصوص.

بيد أن هذه المبادئ أو الأصول التي أتيت على ثمانية منها، وهي: وحدة الرسالات، والأخوة الإنسانية، والتعاون الإنساني، والمساواة بين الناس، وإقامة العدل على الجميع، وضمان الحياة الكريمة لكل إنسان، ورد الاعتبار إلى المرأة كما هو حال الرجل سواء بسواء، وضمان حقوق غير المسلمين في المجتمع الإسلامي كما هو حال المواطنين المسلمين، أقول: ستبقى هذه المبادئ حبراً على ورق، لا أثر لها في واقع الناس وفي حياتهم إذا لم ترتبط بإحكامٍ في عقيدة المسلمين وفي أيديولوجيتهم التي تحدد للإنسان البداية والنهاية والمصير المحتوم، وتواجهه بالمساءلة التفصيلية عن السلوك الإنساني، وما يقدمه الفرد لنفسه ولغيره من الخير والشر في المآل ليبلغ السعادة الأبدية أو يؤول حاله إلى الخسران المبين، قال تعالى: {كل نفس بما كسبت رهينة}.

لهذا نجد القرآن الكريم دائب التذكير باليوم الآخر والتأكيد على الإيمان به، بل وربطه بالإيمان بالله، ليجعله الإنسان نصب عينه في كل تحركه وسلوكه، بل وفي سكناته عندما يخلو لنفسه، فينأى بنفسه عن كل الدنايا والأعمال المنكرة، ويبتعد عن كل عمل لا يرضي الله، أو يلحق ضرراً بالآخرين من أبناء الإنسان أياً كان دينهم أو جنسهم أو عرقهم، ويسعى جاهداً ودائباً على فعل الخيرات والإحسان إلى الناس، وقضاء حوائجهم والتخفيف من آلامهم وأحزانهم، ومد يد العون إليهم،

فهذه هي رسالة المسلم في الدنيا، وهذا هو طريق الفوز والنجاة والسعادة في الحياة الأخرى، فالذين يؤمنون بالله ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات هم السعداء والمفلحون .

5

البعد العملي (التطبيقي)

ان الاسلام ليس مجرد مسألة روحية اعتقادية بل هو فعل وعمل وممارسة وسلوك أيضا إن الإسلام قدم رؤية متكاملة لبناء مجتمع قوي اقتصادياً ومتماسك اجتماعيا

الإسلام عقيدة وشريعة؛ أمّا العقيدة فهي الجانب النظري التصديقي، وأما الشريعة فهي الجانب العملي التطبيقي. ويُلخّص ذلك قوله تعالى:"...آمنوا وعملوا الصالحات"

سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم هي الصورة العملية التطبيقية لهذا الدين

ويمتنع أن تعرف دين الإسلام ويصح لك إسلامك بدون معرفة الرسول صلى الله عليه وسلم، وكيف كان هديه وعمله وأمره ونهيه.

لقد سالم وحارب، وأقام وسافر، وباع واشترى، وأخذ وأعطى، وما عاش صلى الله عليه وسلم وحده، ولا غاب عن الناس يوماً واحداً، ولا سافر وحده. وما أصيب المسلمون إلا بسبب الإخلال بجانب الاقتداء به صلى الله عليه وسلّم،

والأخذ بهديه، واتباع سنته، وقد قال الله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}.حتى اكتفى بعض المسلمين من سيرته صلى الله عليه وسلّم بقراءتها في المنتديات والاحتفالات ولا يتجاوز ذلك إلى موضع الاهتداء والتطبيق..... وبعضهم بقراءتها للبركة أو للاطلاع على أحداثها ووقائعها أو حفظ غزواته وأيامه وبعوثه وسراياه. وهذا راجع إما لجهل بأصل مبدأ الاتباع والاهتداء والاقتداء وعدم الإدراك بأن هذا من لوازم المحبة له صلى الله عليه وسلم، وإما لعدم إدراك مواضع الاقتداء من سيرته صلى الله عليه وسلم نظراً لضعف الملكة في الاستنباط أو لقلة العلم والاطلاع على كتب أهل العلم.وهنا تأتي أهمية استخراج الدروس واستنباط الفوائد والعظات واستخلاص العبر من سيرته صلى الله عليه وسلم.

إن السيرة النبوية لا تدرس من أجل المتعة في التنقل بين أحداثها أو قصصها، ولا من أجل المعرفة التاريخية لحقبة زمنية من التاريخ مضت، ولا محبة وعشقاً في دراسة سير العظماء والأبطال، ذلك النوع من الدراسة السطحية إن أصبح مقصداً لغير المسلم من دراسة السيرة، فإن للمسلم مقاصد شتى من دراستها، ومنها:

أولاً: أن الرسول صلى الله عليه وسلم هو محل القدوة والأسوة، وهو المشرع الواجب طاعته واتباعه قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً} (الأحزاب: 21)، وقال تعالى: {وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا} (النور: 54)، وقال: {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ} (النساء: 80)، وقال: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ} (آل عمران:

31).فهو التجسيد العملي والصورة التطبيقية للإسلام، وبدونها لا نعرف كيف نطيع الله تعالى ونعبده. فسيرته صلى الله عليه وسلم يستقي منها الدعاة أساليب الدعوة ومراحلها، ويتعرفون على ذلك الجهد الكبير الذي بذله رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل إعلاء كلمة الله، وكيف التصرف أمام العقبات والصعوبات والموقف الصحيح أمام الشدائد والفتن.

ويستقي منها المربُّون طرق التربية ووسائلها. ويستقي منها القادة نظام القيادة ومنهجها. ويستقي منها الزهَّاد معنى الزهد ومقاصده. ويستقي منها التجَّار مقاصد التجارة وأنظمتها وطرقها. ويستقي منها المبتلون أسمى درجات الصبر والثبات وتقوى عزائمهم على السير على منهجه والثقة التامة بالله عز وجل بأن العاقبة للمتقين. ويستقي منها العلماء ما يعينهم على فهم كتاب الله تعالى، ويحصلون فيها على المعارف الصحيحة في علوم الإسلام المختلفة، وبها يدركون الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول وغيرها وغيرها من المعارف والعلوم. وتستقي منها الأمة جميعاً الآداب والأخلاق والشمائل الحميدة.

ولهذا قال ابن كثير: «وهذا الفن مما ينبغي الاعتناء به، والاعتبار بأمره، والتهيؤ له، كما رواه محمد بن عمر الواقدي عن عبد الله بن عمر بن علي عن أبيه سمعت علي بن الحسين يقول: "كنا نعلّم مغازي النبي صلى الله عليه وسلم كما نعلّم السورة من القرآن. قال الواقدي: وسمعت محمد بن عبدالله يقول: سمعت عمي الزهري يقول: في علم المغازي علم الآخرة والدنيا» .

وقال إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص: «كان أبي يعلمنا مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعدها علينا، ويقول: هذه مآثر آبائكم فلا تضيعوا ذكرها».

وقال علي بن الحسين: «كنا نعلم مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم كما نعلم السورة من القرآن» لقد خلف التاريخ عظماء وملوكاً وقُوَّاداً، وشعراء، وفلاسفة، فمن منهم ترك سيرة وأسوة يؤتسى بها في العالمين؟ لقد طوى التاريخ ذكرهم فلم يبق منه شيء وإن بقيت بعض أسمائهم.

لقد أصبحت سير كثير من العظماء أضحوكة للبشر على مدار التاريخ كله

فأين نمرود الذي قال لإبراهيم: {أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ}؟! (البقرة: 258) وأين مقالة فرعون وشأنه الذي قال: {أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى} (النازعات: 24)، وقال: {مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي}؟! (القصص: 38).إن هؤلاء العظماء في زمانهم يسخر منهم اليوم الصغير والكبير والعالم والجاهل، فإن كانوا دلسوا على أقوامهم في زمنهم واستخفوا بهم فأطاعوهم؛ فقد افتضح أمرهم بعد هلاكهم، وأصبحوا محل السخرية على مدار الزمان.

إن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم جاءت بإخراج الناس من ظلمات الشرك والأخلاق وفساد العبادة والعمل إلى نور التوحيد والإيمان والعمل الصالح: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً} (الأحزاب:45-46)

ثانياً: ندرس السيرة ليزداد إيماننا ويقيننا بصدقه، فالوقوف على معجزاته ودلائل نبوته مما يزيد في الإيمان واليقين في صدقه صلى الله عليه وسلم، فدراسة سيرته العطرة وما سطرته كتب السيرة من مواقف عظيمة، وحياة كاملة كريمة، تدل على كماله ورفعته وصدقه.

ثالثاً: ولينغرس في قلوبنا حبه، فما حملته سيرته من أخلاق فاضلة، ومعاملة كريمة، وحرصه العظيم على هداية الناس وصلاحهم وجلب الخير لهم، وبذل نفسه وماله في سبيل إخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الشقاء إلى السعادة، وما كان من حرصه صلى الله عليه وسلم على أمته في إبعادها عما يشق عليها ويعنتها

متى يتحول التنظير إلى تطبيق عملي ؟

لم يكن من منهج النبي صلى الله عليه وسلم أن يربيَ أصحابه على منهج بحت؛ بمعنى أنه صلى الله عليه وسلم لم يجعل مهمته في بناء الإنسان السوي مجرد أن يتلو على أتباعه ما يوحى إليه دون أن يعمل على نقلهم من الجانب النظري إلى الجانب العملي التطبيقي؛ بحيث يتم ترجمة ما اشتمل عليه الوحي من أحكام شرعية إلى واقع يعيشه الأتباع، وبحيث يؤتي البلاغ المبين ثمرته في غرس الإيمان وقطف ثماره، وفي تطابق المعرفة مع السلوك، واستواء الباطن والظاهر، ومعرفة مدى تحقيق الغاية التي لأجلها أرسل عليه الصلاة والسلام. ومن أجل هذا الفهم الصحيح، لِما كُلف به عليه الصلاة والسلام من أداء رسالته والقيام بحق البلاغ على الوجه الأوفى،

فإن الله سبحانه وتعالى قال في شأنه: {لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ} [آل عمران: 164]. فأمَّا تلاوة آيات الله سبحانه وتعالى فيعني البلاغ لما أوحي إليه عليه الصلاة والسلام. وأمّا تعليم الكتاب والحكمة فيعني: حمل الأتباع على حفظ العلم المصحوب بالفهم الصحيح لمراد الله سبحانه ومراد رسوله صلى الله عليه وسلم. وأما التزكية فتعني: التطهير من رواسب الجاهلية وغرس الفضائل بكل أنواعها. والمتتبع لحياة الرسول عليه الصلاة والسلام مع أصحابه منذ الأيام الأولى في تاريخ الرسالة يجد الاهتمام البالغ من جانبه عليه الصلاة والسلام في تعهده لأصحابه، وحسن رعايته لهم، والارتقاء بهم في مدارج الكمال الإيماني؛ إذ لم يكن بمعزل عن حياتهم اليومية، كما أنه لم يكتفِ بتلاوة الوحي عليهم ثم ينعزل عنهم وينكفئ على نفسه. ولقد كان أبرز صورة للتزكية والتطهير هي القدوة التي برزت في حياته في أعلى صورها؛ وذلك في تطبيقه لما يوحى إليه، فكان سلوكه ترجمة عملية يعرف من خلالها الآخرون كيف يحوّلون العلم والفقه إلى سلوك، ذلك أن الإسلام لم يكن مجرد جملة من النظريات التي تتلى ويقف المرء عند حد فهمها ومعرفتها؛ لأنَّ هذا وحده لا يغير من الواقع شيئاً. إن الإسلام جاء من أجل صياغة الإنسان صياغة جديدة ليتم من خلال ذلك تغيير الأنماط والأوضاع والتصورات الجاهلية. وبهذا المنهج الذي سار عليه النبي صلى الله عليه وسلم أوجد جيلاً مثالياً أحسن فهم الإسلام وتطبيقه، وحملِه إلى الناس.

واليوم نرى الكثير من الدعاة يهتمون اهتماماً بالغاً بالإسهام في الجانب النظري، فيكثرون من الكتابة عن الأساليب والوسائل التي تنقل الناس إلى السلوك السوي الذي يتمثل فيه التطبيق للنص، والمتأمل في هذه الكتابات يجد الإبداع في المفهومات التي تطرح، كما يجد حسن الفهم لاستنباط الكثير من المعاني سواء من النص أو من منهج النبي صلى الله عليه وسلم فيما يتعلق بالتربية العملية، وما تزال المكتبات الإسلامية تتلقى كل يوم أعداداً من مثل هذه المؤلفات. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل صارت مهمة الدعاة والكتاب الإسلاميين منحصرة في مجرد التنظير والكتابة؟ وهل انتهى واجبهم عن هذا الحد؟ وهل كان الحل للواقع المؤسف لأحوال المسلمين وبخاصة شبابهم في هذه الكتابات التي طفحت بها المكتبات؟ وهل يتوقع كل كاتب وهو قابع في مكتبته أن مجرد انشغاله بهذا الجانب يعفيه من أي واجب؟ ثم إذا صار همُّ كل داعية وكاتب أن يكون في مصدر الموجه لغيره في الجانب النظري، فمن الذي سيتولى التربية المباشرة لشباب المسلمين؟ ومن يرعاهم؟ ومتى يظهر على الساحة القدوة الحسنة التي يقتفي الناس أثرها؟ إن الناس اليوم لا ينقصهم وجود من يكتب أو يملي عليهم المواعظ والنصائح، ثم ينعزل عنهم ولا يعرف شيئاً عن آثار موعظته ونصائحه، ولكنهم في حاجة إلى بروز القدوة الحسنة التي تتمثل فيها محاسن الإسلام التي كادت تختفي من الساحة الإسلامية، إنهم في حاجة إلى التربية العملية من خلال الصحبة الدائمة والتوجيه المستمر، ومعالجة جوانب الانحراف عند حدوثه، والترغيب في فضائل

الأعمال وتطهير النفوس من أدران المعاصي، والترغيب في الآخرة والتزهيد في الدنيا؛ بحيث تكون التربية قائمة على الملاحظة الدائمة والمتابعة التي لا تعرف الكلل ولا السآمة، وبحيث تقر عين كل داعية وعالم بثمرة جهده ونتاج عمله، وبهذا المنهج يبلغ الدعاة غاية ما يطمحون إليه، وتختفي كثير من السلبيات والممارسات الخاطئة على الساحة، كما تنتشر صورة الفضيلة والخير في الأمة. وأهم من ذلك أن تبرأَ ذمتهم أمام الله سبحانه بما يؤدونه من واجب، وما يبذلونه من جهود في إصلاح أوضاع الأمة المتردية يوماً بعد يوم. إن حدوث الجفوة بين العلماء والعامة بسبب انعزال العلماء وانكفائهم على أنفسهم بحيث أصبحت الساحة خالية من المعلم والمربي إلا ما ندر نذيرُ شؤم يؤدي إلى شيوع الجهل، وبالتالي التباس الحق بالباطل والسنة بالبدعة، ويغيب عن الناس حُسن الأداء للعبادات بما يضمن موافقة الشرع؛ بل يصبح العامة في هذه الحالة فريسة للأفكار التي تحمل كثيراً من الانحراف خاصة مع وجود القنوات المفتوحة وتعدد مصادر التلقي، وعدم وجود ما يحصنهم من علم يحملونه، أو عالم يُحسن توجيههم، وسوف تكون الكارثة أعظم على الأجيال اللاحقة. من أجل هذا كله؛ فإني أدعو أهل الغيرة على دين الله وعلى المسلمين أن يشمروا عن ساعد الجد، وأن يبذلوا الجهود المستطاعة في نشر العلم والفضيلة، وفي تربية الأمة، وفي مقاومة كل باطل بالحجة والبرهان حتى تظل الغلبة للحق وأهله. ومما تجدر الإشارة إليه أن إمامة الصلاة كانت من الوظائف الشرعية التي يتولاها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه،

وكان يقوم بها الخلفاء من بعده بأنفسهم، وقد أصبحت اليوم مضاهية للوظائف الدنيوية بعد أن عزف عنها أهل العلم، فصار يتسابق عليها الباحثون عن الجُعل المادي مقابل القيام بهذه الوظيفة، حتى صار يتولاها، في كثير من الأحوال، من ليس لها بأهل؛ إذ أنّ الصفات التي حددها رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن يقوم بهذه الوظيفة لا يُلتفت إليها اليوم، ولم تعد معياراً للأهلية لمن يؤم الناس، فكثيراً ما نرى في المأمومين من هو أحفظ وأفقه وأعلم وأسن من إمام الصلاة، وحتى صار يُنظر إلى هذه المهمة بنظرة دنيا، وهذه في الحقيقة كارثة عظيمة؛ فكم من واجبات تتبع إمامة الصلاة من الإفتاء، والإرشاد والتوجيه، ومتابعة النصح، وملاحظة سلوك الناس؛ وهي أمور لا يحسنها إلا قليل من الناس؛ لذلك نرى الصلة مبتورة بين جماهير المصلين وبين أئمة الصلاة. وقد يكون من الكوارث أن يتصدر للفتيا من الأئمة بحكم إمامته من لا يُحسن الفتيا خشية أن يُتهم بالجهل. ومعنى هذا كله أن العلماء يحتاجون إلى مراجعة موقفهم من هذه الوظيفة ذات الشرف العظيم؛ فإن العزوف عنها إحدى الأسباب التي تعمق الجهل في الناس، وعندما يصبح العلماء في عزلة عن جماهير المصلين؛ كيف إذن تتحقق الوراثة النبوية عند أهل العلم؟

قل آمنت بالله، ثم استقم

أن الإسلام من حيث مفهومه العام كدين سماوى ذو شقين يكمل كل واحد منهما الآخر والشق الأول من مفهوم الإسلام: وهو الإيمان بالله عن يقين كامل لا يتزعزع، والإقرار بوجود الله وحده لا شريك له، وبصفاته الكمالية التى تليق به، وبأنه المُنزه عن كل صفات البشر وجميع خلقه.

وأما الشق الثانى من الإسلام بعمومه: فهو المتعلق بالجانب العملى والقانون التشريعى التطبيقى، الذى ينظم للناس والحياة الإنسانية والبشرية جميعًا، علاقتهم الاجتماعية ومعيشتهم الدينية فى هذه الحياة ومعاملاتهم المدنية مع أنفسهم، ومع جميع بنى جنسهم محليًّا وعالميًّا، وعباداتهم الدينية مع الله فى الصحة والمرض والحل والترحال والسلم والحرب، وذلك بما يناسب العباد والبلاد فى كل زمان وفى كل مكان .

متن الحديث

عن أبي عمرو سفيان بن عبد الله الثقفي ، رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدا غيرك ، قال : (قل آمنت بالله ، ثم استقم) رواه مسلم في صحيحه .

إن غاية ما يتطلع إليه الإنسان المسلم ، أن تتضح له معالم الطريق إلى ربّه ، فتراه يبتهل إليه في صلاته كل يوم وليلة أن يهديه الصراط المستقيم ، كي يتخذه منهاجا يسير عليه ، وطريقا يسلكه إلى ربه ، حتى يظفر بالسعادة في الدنيا والآخرة .

ومن هنا جاء الصحابي الجليل سفيان بن عبدالله رضي الله عنه ، إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وانتهز الفرصة ليسأله عن هذا الشأن الجليل ، فجاءته الإجابة من مشكاة النبوة لتثلج صدره ، بأوضح عبارة ، وأوجز لفظ : (قل آمنت بالله ، ثم استقم) .

إن هذا الحديث على قلة ألفاظه ، يضع منهجا متكاملا للمؤمنين ، وتتضح معالم هذا المنهج ببيان قاعدته التي يرتكز عليها ، وهي الإيمان بالله : (قل آمنت بالله) ، فهذا هو العنصر الذي يغير من سلوك الشخص وأهدافه وتطلعاته ، وبه يحيا القلب ويولد ولادة جديدة تهيئه لتقبل أحكام الله وتشريعاته ، ويقذف الله في روحه من أنوار هدايته ، فيعيش آمنا مطمئنا ، ناعما بالراحة والسعادة ، قال الله تعالى مبينا حال المؤمن : { أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها } (الأنعام : 122) ، فبعد أن كان خاوي الروح ، ميّت القلب ، دنيوي النظرة ، إذا بالنور الإيماني يملأ جنبات روحه ، فيشرق منها القلب ، وتسمو بها الروح ، ويعرف بها المرء حقيقة الإيمان ومذاقه.

فإذا ذاق الإنسان حلاوة الإيمان ، وتمكنت جذوره في قلبه ، استطاع أن يثبت على الحق ، ويواصل المسير ، حتى يلقى ربّه وهو راض عنه ، ثم إن ذلك الإيمان يثمر له العمل الصالح ، فلا إيمان بلا عمل ، كما أنه لا ثمرة بلا شجر ، ولهذا جاء في

الحديث : (ثم استقم) فرتّب الاستقامة على الإيمان ، فالاستقامة ثمرة ضرورية للإيمان الصادق ، ويجدر بنا في هذا المقام أن نستعرض بعضاً من جوانب الاستقامة المذكورة في الحديث .

إن حقيقة الاستقامة ، أن يحافظ العبد على الفطرة التي فطره الله عليها ، فلا يحجب نورها بالمعاصي والشهوات ، مستمسكا بحبل الله ، كما قال ابن رجب رحمه الله : " والاستقامة في سلوك الصراط المستقيم ، وهو الدين القويم من غير تعويج عنه يمنة ولا يسرة ، ويشمل ذلك فعل الطاعات كلها : الظاهرة والباطنة ، وترك المنهيات كلها " ، وهو بذلك يشير إلى قوله تعالى : { فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون } (الروم : 30).

وقد أمر الله تعالى بالاستقامة في مواضع عدة من كتابه ، منها قوله تعالى : { فاستقم كما أمرت ومن تاب معك } (هود : 112) ، وبيّن سبحانه هدايته لعباده المؤمنين إلى طريق الاستقامة ، كما قال عز وجل : { وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم } (الحج : 54)، وجعل القرآن الكريم كتاب هداية للناس ، يقول الله تعالى في ذلك : { كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد } (إبراهيم : 1).

ولئن كانت الاستقامة تستدعي من العبد اجتهاداً في الطاعة ، فلا يعني ذلك أنه لا يقع منه تقصير أو خلل أو زلل ، بل لا بد أن يحصل له بعض ذلك ، بدليل أن الله تعالى قد جمع بين الأمر بالاستقامة وبين الاستغفار في قوله : { فاستقيموا إليه واستغفروه } (فصلت : 6) ، فأشار إلى أنه قد يحصل التقصير في الاستقامة المأمور بها ، وذلك يستدعي من العبد أن يجبر نقصه وخلله بالتوبة إلى الله عزوجل ، والاستغفار من هذا التقصير ، وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم : (استقيموا ولن تحصوا) رواه أحمد ، وقوله أيضا : (سددوا وقاربوا) رواه البخاري .

والمقصود منه المحاولة الجادة للسير في هذا الطريق، والعمل على وفق ذلك المنهج على قدر استطاعته وإن لم يصل إلى غايته، شأنه في ذلك شأن من يسدد سهامه إلى هدف ، فقد يصيب هذا الهدف ، وقد تخطئ رميته ، لكنه بذل وسعه في محاولة تحقيق ما ينشده ويصبو إليه .

وللاستقامة ثمار عديدة لا تنقطع ، فهي باب من أبواب الخير ، وبركتها لا تقتصر على صاحبها فحسب ، بل تشمل كل من حوله ، ويفهم هذا من قوله تعالى : { وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا } (الجن : 16) ، وتستمر عناية الله بعباده المستقيمين على طاعته حتى ينتهي بهم مطاف الحياة ، وهم ثابتون على كلمة التوحيد ، لتكون آخر ما يودعون بها الدنيا ، كما قال الله تعالى : { إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا

بالجنة التي كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ، نزلا من غفور رحيم } (فصلت : 30-32)

وإذا أردنا أن تتحقق الاستقامة في البدن فلا بد من استقامة القلب أولا ، لأن القلب هو ملك الأعضاء ، فمتى استقام القلب على معاني الخوف من الله ، ومحبته وتعظيمه ، استقامت الجوارح على طاعة الله ، ثم يليه في الأهمية : استقامة اللسان ، لأنه الناطق بما في القلب والمعبّر عنه ، نسأل الله أن يهدينا إلى صراطه المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا .

تعتبر الاستقامة الجانب التطبيقي للإيمان بالعقيدة الإسلامية

فالإيمان هو الجانب النظري ولا يصحّ إلّا باقترانه مع الاستقامة. ومعنى الاستقامة اتّباع مبادئ الدين الحنيف في الحياة الدنيا، من قول وعمل، فيقوم المسلم بكلّ ما أمره الله تعالى، وينتهي عن كلّ ما نهى عنه، كالبحّار الذي يقود سفينته إلى شاطئ الأمان معتمداً البوصلة التي ترشده إلى الطريق الصحيح. وميزان العمل في الإسلام هو ما جاء به القرآن الكريم من أحكام وشرائع، وما جاء به الرسول من حديث شريف وسُنّة مطهّرة، ومن هنا يمكننا اعتبار الاستقامة أنّها التمسك بكتاب الله تعالى وبسنّة نبيّه محمّد (ص) وآله الأخيار، والتمسك بكتاب الله يعني العمل بمقتضاه وبكلّ ما جاء فيه من عقيدة وعبادات وشرائع وأحكام وأخلاق فاضلة،

وتصبح كلّ الأعمال التي يقوم بها المسلم في سبيل الله، لنَيْل مرضاته، فيحبّ في الله ويكره في الله، ويفكِّر في الله. لا يضر ولا يؤذي أحداً، بل يعامل النّاس بالحسنى وينفعهم ويخدمهم، ولا يخاف في الله لومة لائم. ويحقّ للإنسان المسلم أن يتساءل: ما هي النتيجة التي أحصل عليها من جراء هذا التمسّك بكتاب الله وسنّة رسوله وآله؟ أو بمعنى آخر ما هي نتيجة الاستقامة التي نطالب بها؟ وللإجابة على هذا السؤال نعود إلى كتاب الله تعالى ذاته فهو الذي يجيبنا الإجابة الصادقة الصحيحة. يقول الله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (الأحقاف/ 13-14)، وهذا يعني أنّ المسلم يؤمن أنّ الله تعالى هو ربّه الذي يعبده وليس المال أو الجاه أو أيّ مخلوق من المخلوقات، وأنّه لا يُشرك بربّه أحداً في عبادته. هذا المسلم عندما يستقيمُ، ويسير على خُطى الإسلام، لا خوف عليه من أن يضِل أو يذلَّ أو يجهل أو أن يغويه الشيطان ويزيّن له متاع الحياة الدنيا وبهرجها، لا خوف عليه لأنّه يهتدي بنور الله الذي لا يضل من اهتدى به، ولا هو يحزن أبداً، وكيف يحزن من كان الإيمان يغمر قلبه ويملأ عليه حركاته وسكناته، كيف يحزن من يؤمن بالقضاء والقدر ويرضى بحكم الله العادل!؟ كيف يحزن من إذا أصابته حسنة شكر وإذا أصابته مصيبة صبر؟ كيف يحزن من يرى أنّ هذه الحياة الدنيا ليست سوى دار عبور، دار تزوّد بالتقوى أي بما يتقي به الإنسان نار جهنم ويبعده عنها، وبما يؤهّله لدخول جنّة عرضها السماوات

والأرض أعدّت للمُتّقين؟ أنّ النتيجة الحتمية التي بشّر بها ربّ العالمين عباده المخلصين المؤمنين هي الخلود في الجنّة جزاء بما كانوا يعملون، هذا ما وعد الله به عباده عندما قال لهم: (وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) (فصّلت/ 30) .

عود على بدء

أنهينا القسم الأول من هذا الكتاب الذي خصصناها لمعنى فلسفة الدين وأبعادها وجوانبها ولقد رأينا كيف ان الايمان بالله هو أساس العقيدة والدين وكل عمل أو فعل تعبدي أو دنيوي ينبع منها ويجب أن يرتبط به على قاعدة التي وضعها الحديث النبوي الشريف (أن تعبد الله كأنك تراه فأن لم تكن تراه فأنه يراك) .

والعبادة هنا لا تعني فقط أداء الفرائض من صلاة وصيام وزكاة وحج بل كل عمل وفعل في حياتنا نريد به وجه الله تعالى وحده .

والذي نستفيده من الحديث الشريف هو أن الله يرانا في كل الأحوال وهذا هو المهم والأهم وقوله تعالى : (وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير) أي : رقيب عليكم ، شهيد على أعمالكم حيث أنتم ، وأين كنتم ، من بر أو بحر ، في ليل أو نهار ، في البيوت أو القفار ، الجميع في علمه على السواء ، وتحت بصره وسمعه ، فيسمع كلامكم ويرى مكانكم ، ويعلم سركم ونجواكم ، كما قال : (ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور) [هود : 5] . وقال (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به

ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار) [الرعد : 10] ، فلا إله غيره ولا رب سواه .

ان الأيمان بالله وأنه معنا في حلنا وترحالنا وأنه هو الرقيب علينا هي تلخص لما تعنيه فلسفة الأيمان والدين .

فأكثر أخطاؤنا وذنوبنا وسيئاتنا وعيوبنا سببه هو نسياننا أو تناسيننا هذه الحقيقة المطلقة ذلك لو أن المسلم يبقى مثابرا على أعتقاده ويقينه بأن الله يراه ومعه لما وقع في الآثم وأرتكب المعاصي وأنحرف وأنسلخ عن دينه .

وفي الحديث النبوي الشريف (لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وهو مُؤْمِنٌ، ولا يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وهو مُؤْمِنٌ، ولا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وهو مُؤْمِنٌ، ولا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً، يَرْفَعُ النَّاسُ إلَيْهِ فيها أبْصارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُها وهو مُؤْمِنٌ. وعَنْ سَعِيدٍ، وأَبِي سَلَمَةَ، عن أبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِثْلَهُ إلَّا النُّهْبَةَ.

الراوي : أبو هريرة | المحدث : البخاري | المصدر : صحيح البخاري

جاء في تفسير الحديث في موسوعة الدرر السنية :

(المسلِمُ قدْ يَرتكِبُ كَبيرةً مِن الكبائرِ ثمَّ يَتوبُ منها، واللهُ سُبحانه وتعالَى يَغفِرُ الذُّنوبَ جَميعًا، بما فيها الكبائرُ والعَظائمُ والموبِقاتُ، فلو ارتكَب المسلِمُ مَعصيةً، مهْما بلَغَت، ثمَّ تاب إلى ربِّه، فإنَّ اللهَ تعالَى يَتوبُ عليه، ويَمُنُّ عليه بالغُفرانِ.

وفي هذا الحديثِ يبيِّنُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ المؤمنَ قد تقَعُ منه كَبيرةٌ مِن الكبائرِ، ولكنَّه حالَ إتيانِ هذه الكبيرةِ وارتكابِها لا يتَّصِفُ بصِفةِ الإيمانِ، بلْ إنَّ الإيمانَ يُنزَعُ منه وهو يَرتكِبُ هذه الكبائرَ، فَمَن يَزْني لا يَزْني وهو مُتَّصِفٌ بالإيمانِ. أو يُنزَعُ منه نورُ الإيمانِ، والإيمانُ هو التَّصديقُ بالجَنانِ، والإقرارُ باللِّسانِ، والعمَلُ بالجَوارحِ والأركانِ، فإذا زَنى المسلمُ، أو شَرِبَ الخمْرَ، أو سَرَقَ؛ ذَهَبَ نُورُ الإيمانِ وبَقِيَ صاحبُه في ظُلمةٍ. ويَصِحُّ أنْ يكونَ المَنفيُّ هو كَمالَ الإيمانِ وليس أصْلَ الإيمانِ، فيكون المعْنى: لا يَزْني الزَّاني حِين يَزْني وهو مُؤمِنٌ كاملُ الإيمانِ. أو المرادُ مَن فَعَلَ ذلك مُستحِلًّا له فهو غيرُ مُؤمنٍ؛ إذ استحلالُ الحرامِ مِن مُوجِباتِ الكفْرِ. أو كَلامُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن بابِ الإنذارِ والتَّحذيرِ مِن زَوالِ الإيمانِ إذا اعتادَ هذه المعاصيَ واستَمرَّ عليها. والسَّرِقةُ: هي أخْذُ المالِ المُحترَمِ على وجْهِ الخُفْيةِ مِن حِرزٍ لا شُبهةَ فيه.

ومَن يَنتهِبُ لا يَفعَلُ ذلك وهو مُتَّصِفٌ بالإيمان، والنَّهْبُ والانْتِهابُ هو: أخْذُ المالِ على وجْهِ العَلانيةِ والقهْرِ والغَلَبةِ. وقولُه: «يَرفَعُ النَّاسُ إليه فيها أبصارَهم» إشارةٌ إلى حالةِ المَنهوبينَ؛ فإنَّهم يَنظُرون إلى مَن يَنهَبُهم، ولا يَقدِرون على دَفْعِه، ولو تَضرَّعوا إليه، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ كِنايةً عن عدَمِ التَّستُّرِ بذلك، فيكون صِفةً لازمةً للنَّهْبِ، بخِلافِ السَّرِقةِ والاختلاسِ، فإنَّه يكونُ في خُفْيةٍ، والانتهابُ أشدُّ؛ لِما فيه مِن مَزيدِ الجَراءةِ، وعدَمِ المُبالاةِ. وقيل: النُّهبةُ اسمٌ لِما يُؤخَذُ مِن المالِ قبْلَ القِسمةِ والتَّقديرِ، كالسَّرِقةِ مِن الغَنيمةِ قبْلَ قِسمتِها. وعليه يكونُ معْنى: «يرفَعُ النَّاسُ إليه

فيها أبصارَهم» أنَّها كَبيرةُ المِقدارِ، بحيث تَتبَعُها أنظارُ النَّاسِ، ويَتطلَّعون إليها، كنَهْبِ الفُسَّاقِ المالَ العظيمَ في الفِتَنِ) .

في هذا الحديث بيان واضح على ان الأيمان الثابت بالله عز وجل يمنع الوقوع في المعاصي والسؤال هنا هل الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر كما جاء في أيات القرآن الكريم .

جاء في قوله تعالى: {وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر} (العنكبوت:45)، فالآية الكريمة تأمر بإقَام الصلاة، وتبين أن في إقامتها انتهاءً عن فعل الفحشاء، وارتكاب المنكر. هذا من حيث الجملة، ذكر المفسرون قولين في المراد من {الصلاة} في هذه الآية :

أحدهما: أن المراد القرآن الذي يُقرأ في موضع الصلاة، أو في الصلاة. وقد روي عن ابن عمر رضي الله عنهما، قوله: القرآن الذي يُقرأ في المساجد.

ثانيهما: أن المراد الصلاة نفسها. روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، قوله: (في الصلاة منتهى ومزدجر عن معاصي الله). وفي رواية ثانية عنه: (من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر، لم يزدد بصلاته من الله إلا بُعداً). وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (لا صلاة لمن لم يطع الصلاة، وطاعة الصلاة أن تنهى عن الفحشاء والمنكر). وروى الطبري عن الحسن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من لم تأمره صلاته بالمعروف، وتنهه عن المنكر، لم يزدد بها من الله إلا بعداً)،

بمعنى: أن صلاة العاصي لا تؤثر في تقريبه من الله، بل تتركه على حاله ومعاصيه، من الفحشاء والمنكر والبعد، فلم تزده الصلاة إلا تقرير ذلك البعد الذي كان سبيله.

وقد صوَّب الطبري القول الثاني في المراد من {الصلاة} في الآية، استناداً لما رواه ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما. وأثار إشكالاً في هذا الخصوص، فقال: "فإن قال قائل: وكيف تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر، إن لم يكن معنيًّا بها ما يتلى فيها؟ قيل: تنهى من كان فيها، فتحول بينه وبين إتيان الفواحش، لأن شغله بها يقطعه عن الشغل بالمنكر، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (من لم تأمره صلاته بالمعروف، وتنهه عن المنكر، لم يزدد بها من الله إلا بعداً).

وقال أبو العالية: إن الصلاة فيها ثلاث خصال، فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخلال، فليست بصلاة: الإخلاص، والخشية، وذكر الله. فالإخلاص يأمره بالمعروف، والخشية تنهاه عن المنكر، وذكر القرآن يأمره وينهاه.

وقال ابن عون الأنصاري: إذا كنت في صلاة فأنت في معروف، وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر، والذي أنت فيه من ذكر الله أكبر.

قال ابن عاشور وهو بصدد تفسير قوله سبحانه: {إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر}، قال: وأمره بإقامة الصلاة، لأن الصلاة عمل عظيم، وهذا الأمر يشمل الأمة، فقد تكرر الأمر بإقامة الصلاة في آيات كثيرة. و(إن) في قوله: {إن

الصلاة} في موقع فاء التعليل، وهذا التعليل موجه إلى الأمة؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم معصوم من الفحشاء والمنكر. واقتصر على تعليل الأمر بإقامة الصلاة، دون تعليل الأمر بتلاوة القرآن؛ لما في هذا الصلاح الذي جعله الله في الصلاة من سر إلهي، لا يهتدي إليه الناس إلا بإرشاد منه تعالى.

وقد يتبادر إلى الذهن هنا سؤال، حاصله: إننا نجد أناساً يصلون، ومع ذلك فهم يرتكبون الفواحش، ويفعلون الموبقات، فكيف لم تنههم الصلاة عن ذلك. وقد أجاب ابن عاشور عن هذا السؤال بما حاصله: "إن الفعل {تنهى} محمول على المجاز الأقرب إلى الحقيقة، وهو تشبيه ما تشتمل عليه الصلاة بالنهي، وتشبيه الصلاة في اشتمالها عليه بالناهي، ووجه الشبه أن الصلاة تشتمل على مذكرات بالله من أقوال وأفعال من شأنها أن تكون للمصلي كالواعظ المذكر بالله تعالى؛ إذ ينهى سامعه عن ارتكاب ما لا يرضي الله. ففي الصلاة من الأقوال تكبير لله وتحميده وتسبيحه والتوجيه إليه بالدعاء والاستغفار وقراءة فاتحة الكتاب المشتملة على التحميد والثناء على الله والاعتراف بالعبودية له وطلب الإعانة والهداية منه واجتناب ما يغضبه وما هو ضلال، وكلها تذكر بالتعرض إلى مرضاة الله، والإقلاع عن عصيانه، وما يفضي إلى غضبه، فذلك صد عن الفحشاء والمنكر.

وفي الصلاة أفعال هي خضوع وتذلل لله تعالى من قيام وركوع وسجود، وذلك يذكر بلزوم اجتلاب مرضاته والتباعد عن سخطه. وكل ذلك مما يصد عن الفحشاء والمنكر.

وفي الصلاة أعمال قلبية من نية واستعداد للوقوف بين يدي الله، وذلك يذكر بأن المعبود جدير بأن تمتثل أوامره، وتُجتنب نواهيه.

فكانت الصلاة بمجموعها كالواعظ الناهي عن الفحشاء والمنكر، فإن الله قال: {تنهى عن الفحشاء والمنكر}، ولم يقل تصدُّ وتحول، ونحو ذلك مما يقتضي صرف المصلي عن الفحشاء والمنكر.

ثم إن الناس في الانتهاء متفاوتون، وهذا المعنى من النهي عن الفحشاء والمنكر هو من حكمة جعل الصلوات موزعة على أوقات من النهار والليل ليتجدد التذكير وتتعاقب المواعظ، وبمقدار تكرر ذلك تزداد خواطر التقوى في النفوس، وتتباعد النفس من العصيان حتى تصير التقوى ملكة لها. ووراء ذلك خاصية إلهية جعلها الله في الصلاة يكون بها تيسير الانتهاء عن الفحشاء والمنكر".

وبناء عليه، فليس يصح أن يكون المراد من نهي (الصلاة) عن الفحشاء والمنكر، أنها تصرف المصلي عن الفحشاء والمنكر ما دام متلبساً بأداء الصلاة؛ لقلة جدوى هذا المعنى. فإن أكثر الأعمال يصرف المشتغل به عن الاشتغال بغيره، بل المراد

من الآية التنويه بالصلاة وبيان مزيتها في الدين، وأن الصلاة تُحذر من الفحشاء والمنكر تحذيراً هو من خصائصها.

وقال ابن عطية وهو بصدد تفسير هذه الآية: "إن المصلي إذا كان على الواجب من الخشوع والإخبات صلحت بذلك نفسه، وخامرها ارتقاب الله تعالى، فاطرد ذلك في أقواله وأفعاله، وانتهى عن الفحشاء والمنكر".

على أن الإنسان إذا أدى صلاته بمعناها الكامل تتوسع عنده فترات النور، وتقل عنده فترات الظلام، وتنمو عنده حالات البسط، وتكاد تمحي عنده حالات القبض، تضيق في عالمه الداخلي المنافذ المفتوحة للنفس وللشيطان، وتنفتح الأبواب الروحانية والملائكية على مصاريعها. ولكن كل هذا مرتبط بأداء الصلاة عن وعي، ومرتبط بالصلاة التي تحرك القلب، وتغذي المشاعر، وتهز الإحساس. أي: إن الصلاة الواردة في قوله تعالى: {تنهى عن الفحشاء} هي الصلاة بمعناها الكامل. أما الذين لا يبلغون في صلاتهم هذا الأفق، فلا مناص من وقوعهم في الأخطاء والمنكرات.

وعلى الجملة، نستطيع القول هنا: إننا بدرجة المستوى الذي نبلغه في الصلاة، نكون بعيدين عن المنكرات. وبمرور الوقت تكون مثل هذه الصلاة بأبعادها العميقة عاملاً مهماً في توجيه سلوكنا، وتسديد خطانا، وضبط توجهاتنا.

ومن المهم أن يسأل الإنسان نفسه دائماً: ماذا لو ردت علي هذه العبادة، وماذا لو رُميت صلاتي بوجهي كخرق بالية! فمثل هذا السؤال يجعل العبد يراقب صلاته، ويأتي بها على الوجه المشروع والمأمول والمطلوب.

إن الصلاة التي تؤدى تنفيذاً لأمره تعالى، وابتغاءً لمرضاته، وبتعبير آخر: إن الصلاة التي تؤدى بإخلاص، والهادفة إلى رضا الله، تستطيع مع الزمن إبعاد الإنسان عن الفحشاء، وتجنبه الوقوع في المنكرات، وأولها الشرك وما يؤدي إليه، أو يقرب منه، من الأسباب المؤدية للضلالة.

وقد روى الإمام أحمد وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: (جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: إن فلاناً يصلي بالليل، فإذا أصبح سرق، فقال: (سينهاه ما تقول) رواه البزار في "مسنده". فالصلاة في المحصلة هي مفتاح كل خير، ومغلاق كل شر، إذا أقيمت على الوجه المطلوب والمقصود .

ويمكننا أن نقول ان الصلاة اذا أقمناها وفق شروطها التي وضعها الله وفرضها علينا من اخلاص في النية والاعتقاد بأن المولى عز وجل يراقبنا حركاتنا من وقوف وركوع وسجود ويسمع كل ما نتلفظ به من أيات ودعاء وقول فالنتيجة المضمونة والمؤكدة من أن صلاتنا وفق ذلك ستنهانا عن الفحشاء والمنكر والبغي .

والعكس بالعكس فاذا أقمنا الصلاة ونحن غافلين عن مسألة الرقابة الالهية فمن المؤكد أيضا ان مثل هكذا صلاة لا تحمينا من الوقوع في مستنقعات الفحشاء

والمنكر اذ تتحول الى صلاة شكلية لا خشوع فيها ولا خضوع ولا شعور وبعبارة أوضح تتحول الى مجرد حركات شكلية وتمتمات صوتية وهذا حال صلاتنا نحن مسلمو هذا الزمان .

كان هذا تمهيدا ضروريا للدخول في مناقشة محاور ومواضيع الباب الثاني من هذا الكتاب وهو بعنوان ظاهرة التدين الشكلي وأنواعه .

ظاهرة التدين

في بداية بحثنا أمامنا عدة مصطلحات علينا معرفة تفسيرها لكي نفهمها بشكل تام اذ أن فهمها سيساعدنا كثيرا في فهم الكثير من الاشكالات التي ربما تصافنا أثناء معالجتنا للموضيع البحثية .

ما معنى ظاهرة وما المقصود منها ؟

الظاهرة (بالإنجليزية: Phenomenon) هي لفظ يطلق على أي حدث يمكن مراقبته. و في الاستخدام العام، الظاهرة كثيرًا ما تشير إلى حدث غير عادي.

وماهي يهمنا هنا تعريف الظاهرة الدينية التي تدخل الاجتماعيات :

(فهي أمر ينجم بين الناس ويعم مثل الظواهر الخلقية فهي تعبر عن القواعد الاخلاقية التي تسود كل شعب في حقبة زمنية معينة) .

الظاهرة الدينية أو ظاهرة التدين

الظاهرة الدينية تعبر عن وضع الإنسان وسبب وجوده في العالم، وهي تؤثر في مجموع الظواهر النفسية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية والقانونية والفلسفية. هي ظاهرة مركبة من عدة أبعاد في الحياة الإنسانية. ليس التدين ظاهرة خارج الزمان والمكان والناس والتاريخ، وهناك فرق بين نظرة المتدين للدين ونظرة الباحث. فالدين عند المتدين إيمان، وظاهرة روحية أعلى من بقية المكونات

المادية والمعنوية في الحياة البشرية. ليست موضوعاً للبحث، بل هي موضوع للتقديس. والظاهرة الدينية تنشأ من خارج التاريخ وليس من داخله، معطاة وليست مصنوعة، قبْلية وليست بعدية. في حين أن الظواهر الإنسانية موضوعات للبحث في العلوم الإنسانية من وجهة نظر الباحث. توضع تحت مجهر التحليل والنظر والتفسير. واعتبارها خارج التاريخ قد يحول دون الفهم، وينقص في أدواته ومناهجه. وبمجرد ما تتحول الظاهرة الدينية إلى موضوع مفهوم وإلى ممارسة وتحقق تزول منها الرهبة والخوف. والأدلة على ذلك كثيرة في القرآن الكريم. وهو ما يطابق أيضاً نتائج الدراسات الاجتماعية للظاهرة الدينية. ويتفق مع ما يشعر به الإنسان بنفسه، متى يشعر بالتدين وبالحاجة إلى الدين ومتى يلجأ إليه، في حالة الضيق والعسرة أو في حالة الطلب والعجز. وهو ما سماه القرآن الكريم «الخوف» و«الطمع». وقد يتدين الإنسان لاتقاء مكروه أو لتحقيق منفعة مثل الطالب الذي يتدين قبل أداء الامتحان حتى لا يرسب. ومثل الجندي الذي يحارب العدو حتى لا ينهزم بل ينتصر، ومثل صاحب رأس المال الذي يتدين حتى يتجنب الخسارة ويحقق الكسب، ومثل المريض وهو على فراش الموت يذكر الله حتى يمن الله عليه بالشفاء ويبعد عنه شبح الموت، ويطيل له الأجل .

الظاهرة الدينية ذات آثار نفسية بالأساس. وهي موضوع علم خاص هو علم النفس الديني. هي حاجة نفسية، اقتضاء ومطلب، وازع وباعث، هي وسيلة للتكيف مع الواقع النفسي كما وصف علماء النفس الاجتماعي مثل دوركهايم وبرجسون،

سواء كانت ظاهرة نفسية اجتماعية كالدين البدائي، أو ظاهرة روحية كالدين الصوفي. الدين وسيلة للإجابة على الأسئلة الغامضة بالإجابة عن أصلها ونشأتها وليس وضعها وقانونها. فسؤال التكوين سابق على سؤال البنية. فالعالم مخلوق دون معرفة قوانين الخلق. هي ظاهرة مرتبطة بحاجات الناس، واللجوء إلى قوى فوقية لتحقيقها. وهو ما نقده القرآن الكريم، الإيمان بدافع الخوف أو الطمع (وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً)، وكذلك (وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمعاً)، و(يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً). وكأن الظاهرة الدينية تنتهي بانتهاء دوافعها، الخوف من الضرر، والطمع في النفع، والتحول من الخوف إلى الأمان (وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً)، وكذلك (وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلا تَخْوِيفاً). فالله هو المؤمِّن بعد الخوف، والمطعم بعد الجوع (فليَعْبُدُوا رَبَّ هَذا البَيْتِ. الذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ). والمؤمن لا خوف عليه ولا ينتابه الحزن (وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ). فإذا ما انتهى الخطر وتحقق الأمان انتهت الظاهرة الدينية والحاجة إلى التدين (وَإِذا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قَائِماً فلمَّا كَشَفنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّه). وينطبق ذلك على الأفراد والجماعات. (ثُمَّ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ. ثمَّ إِذا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ). فالإنسان لا يتذكر الله إلا في وقت العسرة (قلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظلمَاتِ البَرِّ وَالبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفيَةَ لئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ). التدين ظاهرة اجتماعية مرتبطة بوجود الناس وضرورة التضامن

الاجتماعي. وهو موضوع علم الاجتماع الديني، فالدين عامل من عوامل التماسك الاجتماعي. ولذلك كانت صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد. والعبادات جميعها لها هدف اجتماعي. فالصوم إحساس بالفقراء والمحتاجين والمعوزين واليتامى والمساكين وأبناء السبيل. والزكاة حق الفقراء في أموال الأغنياء. والحج التقاء سنوي للأمة كلها، ثلاثة ملايين حاج في مكان واحد، وفي زمان واحد (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ. لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ). والأعياد والموالد كلها مظاهر اجتماعية للفرح والرضا عن النفس والتبرك بالأولياء والصديقين. بل إن التصوف ذاته تجربة ذاتية للفرد وطريقة للجماعة. والطرق الصوفية هي التي ورثت التصوف الفردي. وما أكثر الآيات على نبذ التفرق والتشيع والدعوة إلى التجمع. فوحدة الأمة انعكاس لوحدة الألوهية (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ). وما أكثر الأحاديث والآثار في هذا المعنى مثل: «يد الله مع الجماعة»، و«الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه». وتكثر التشبيهات أن الأمة جسد واحد، إذا اشتكى عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى. ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم. وليس من الأمة من بات جوعان وجاره طاو. فالإسلام دين الجماعة. لذلك انتشر في أفريقيا وآسيا، حيث يسود الترابط الاجتماعي. كما انتشر أخيراً في الغرب نظراً لتأكيده أيضاً على الحرية والمسؤولية الفردية (وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً)،

وكذلك (وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنقِه). والتدين ظاهرة ذات أبعاد اقتصادية، تجارة ومكاسب. وهو موضوع علم الاقتصاد الديني. ارتبط بالتجارة عند العرب. واستعملت التجارة كتشبيه في سياق ديني (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ). والإيمان مكسب لا خسارة، ويضاعف الله الأجر لمن يشاء. والمؤمنون (يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُور). ومن يشتري الضلالة بالهدى لا تربح تجارته وهو من الخاسرين. وكثيراً ما يكون الدافع على الأمانة في التجارة الخوف من الخسارة، والزيادة في المكسب. وهذا ما حلله ماكس فيبر في كتابه الشهير «الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية». التقوى تؤدي إلى الربح، والحلال هبة من الله. وقد يتحول الدين نفسه إلى تجارة مثل التكسب بالعلم وقراءة القرآن وبالإفتاء، ووضع لافتات دينية لازدهار التجارة مثل محلات «التوحيد والنور»، وجزارة «الإخلاص»، وبقالة «الأمانة» و«إسلامكو»، وأزياء الحجاب المرصع بالجواهر و«الترتر» الذي يعكس الأضواء على الوجه الأبيض فيزداد جمالًا ولإيجاد فرص أكثر للزواج، وتخصيص الدور الأرضي كمصلى للإعفاء من العوائد والضرائب العقارية، والمباراة في الفتاوى من بعض مشايخ الفضاء والمدارس الإسلامية الخاصة التي تفرض اللغات الأجنبية وكلاهما هدم للتعليم الوطني، ودور النشر المتخصصة في كتب التراث. وكأن الإيمان الديني يقوم على الرهان وهي نظرة تجارية تقوم على تحقيق الربح وتجنب الخسارة .

مفهوم الاسلام الشكلي

مدخل

تلفت هذه الأية الكريمة ({قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الحجرات : 14] انتباهنا وعقولنا الى أمر بالغ الأهمية والخطورة بنفس الوقت لأنها فصلت بشكل واضح بين الأيمان والاسلام

فالله سبحانه وتعالى ينفي عن هؤلاء الاعراب الذين نزلت فيهم ينفي صفة الأيمان عنهم بقوله (قل لم تؤمنوا) لكنه طلب منهم أن يقولوا (أسلمنا) .

وقد تضاربت التفاسير في فهم هذه الاية فمن المفسرين من يقول أن الايمان والاسلام شئ واحد ومنهم من يقول ان الايمان اعتقاد قلبي باطني والاسلام ظاهري فعلي أي يبان بالعبادات الظاهرة للعيان .

ونثبت هنا تفسيرا حديثا للاية الكريمة لأبن عثيمين رحمه الله يقول فيه :

(يراد بالإيمان الأعمال الباطنة، وهي أعمال القلوب كالإيمان بالله تعالى، وحبه وخوفه ورجائه وتقواه وخشيته والإخلاص له، أما الإسلام فيراد به الأعمال الظاهرة التي قد يصحبها الإيمان القلبي، وقد لا يصحبها فيكون صاحبها منافقًا أو مسلمًا ضعيف الإيمان. ويضيف :

«إذا اقترن أحدهما بالآخر فإن الإسلام يفسر بالاستسلام الظاهر الذي هو قول اللسان، وعمل الجوارح، ويصدر من المؤمن كامل الإيمان، وضعيف الإيمان، قال الله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ١٤﴾ [الحجرات:14]، ومن المنافق، لكن يسمى مسلمًا ظاهرًا، ولكنه كافر باطنًا. ويفسر الإيمان بالاستسلام الباطن الذي هو إقرار القلب وعمله، ولا يصدر إلا من المؤمن حقا كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٢﴾ [الأنفال:2]، وبهذا المعنى يكون الإيمان أعلى، فكل مؤمن مسلم ولا عكس.»

ونحن نؤيد هذا التعريف بقوة بسبب أن أركان الايمان تختلف عن أركان الاسلام

ويلاحظ أن أركان الايمان وهي الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الأخر

هي باب الاعتقاد القلبي الباطني وليس هناك دليلا عمليا ظاهريا على وجودها .

بينما أركان الاسلام وهي الشهادة والصلاة والصيام والزكاة وحج البيت وهي عبادات تمارس بشكل ظاهر ولها طقوسا خاصا بكل منها .

لذلك من السهل الحكم على المسلم من خلال عباداته وأداءه للفرائض لكن لا يمكن الحكم على أي شخص بأنه مؤمن ولو كان مسلما ونرجع لقول ابن عثيمين هنا

من الأيمان يكون أعلى فكل مؤمن هو مسلم والعكس غير صحيح كما بينا .

وهناك أية أخرى تؤكد على التفريق بين المؤمن والمسلم في قوله تعالى ({فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (35) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (36)

إنما قال فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين دون أن يقول : فأخرجنا لوطا وأهل بيته قصدا للتنويه بشأن الإيمان والإسلام ، أي أن الله نجاهم من العذاب لأجل إيمانهم بما جاء به رسولهم لا لأجل أنهم أهل لوط ، وأن كونهم أهل بيت لوط ؛ لأنهم انحصر فيهم وصف المؤمنين في تلك القرية ، فكان كالكلي الذي انحصر في فرد معين .

والمؤمن : هو المصدق بما يجب التصديق به .

والمسلم المنقاد إلى مقتضى الإيمان ولا نجاة إلا بمجموع الأمرين ، فحصل في الكلام - مع التفنن في الألفاظ - الإشارة إلى التنويه بكليهما وإلى أن النجاة باجتماعهما .

والآية تشير إلى أن امرأة لوط كانت تظهر الانقياد إلى زوجها وتضمر الكفر وممالاة أهل القرية على فسادهم ، قال تعالى (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما) ، فبيت لوط كان كله من المسلمين ولم يكن كله من المؤمنين فلذلك لم ينج منهم إلا الذين اتصفوا بالإيمان والإسلام معا .

وندعم قولنا الذي ذكرناه للتفريق بين معني الايمان والاسلام بقوله تعالى :

({إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ} [المنافقون : 1]

فظاهر حال المنافقون أنهم قد أسلموا وصاروا من المسلمين والرسول الكريم عليه الصلاة والسلام حكم على صحة اسلامهم بمجرد شهادتهم بأن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله وهي شهادة ظاهرة علنية والرسول الكريم لا يعلم ما تضمر قلوبهم لذلك يتدخل المولى عز وجل ليفضحهم ويكشف حقيقتهم ويشهد بنفسه من أنهم لكاذبون لم يؤمنوا بقلوبهم ويذعنوا للحق .

ان هذه التفرقة ستفيدنا كثيرا في مناقشة محاور هذا الباب المخصص للحديث عن ظاهرة الاسلام الشكلي وأنواعه .

مفهوم ظاهرة الاسلام الشكلي (المظهري)

يعرّف الاسلام الشكلي بكونه اسلاما سطحيًا لا يتجاوز حدود المظاهر الخارجية، مثل أداء العبادات والشعائر والطقوس دون فهم عميق لمعانيها أو شعور روحي حقيقي. ويُظهر صاحب هذا الإيمان التزامًا شكليًا وظاهريا بالدين دون أن يتغلغل في حياته اليومية أو يؤثر على سلوكه وممارساته داخل محيطه الأسري والمهني والاجتماعي.

يعكس انتشار الإسلام الشكلي نطاقًا واسعًا من التعامل مع الخرافات والطقوس الدينية والمناسبات الاستعراضية المتزايدة. حتى شكّل الالتزام بها عند البعض حجر الزاوية في هويتهم وحياتهم إلى درجة التعصب والغلو. وغالبًا ما يعطي هؤلاء الأفراد الأولوية للطقوس والشعائر التي يعتبرونها جزءا من الدين، وما هي منه.

ومن الأسباب التي ساعدت على الالتزام بهذه الممارسات الشكلية على حساب جوهر الدين، كثرة الفتن والتحديات، مثل الحروب والفقر والفساد، ما يُؤدّي إلى شعور بعض المسلمين باليأس والابتعاد عن الدين الحقيقي.

وكذلك انتشار وسائل التواصل الاجتماعي التي ساهمت في نشر أفكار خاطئة عن الإسلام، ما يُؤثّر على إيمان بعض المسلمين ويجعلهم أكثر عرضة للإيمان الشكلي. إضافة إلى غياب القدوة الحسنة، حيث لا يرى الكثير من المسلمين

نماذج حية تجسد قيم الإسلام الحقيقية، وخصوصا من النخب السياسية أو الشخصيات الفاعلة في المجتمع المدني .

وعلى العكس من ذلك، تتبنى شريحة مثقفة من المسلمين نهجًا أكثر مرونة في ممارسة الشعائر الدينية، ودمج عناصر التقاليد مع النظرة الشخصية والقيم المعاصرة. ويتجلى هذا الاتجاه بشكل خاص بين الأجيال الشابة التي نشأت في مجتمعات مفتوحة، حيث يمنحون الأولوية للسلوك الأخلاقي والعدالة الاجتماعية والروحانية الشخصية على الالتزام الصارم بالطقوس والممارسات الدينية.

إن إلهاء الناس المساكين والمغفلين والجهلة بممارسة خرافات وطقوس ما أنزل الله بها من سلطان، يهدف إلى صرف الأنظار عن الاهتمام بالقضايا الأساسية لهم، كالمطالبة بحقوقهم المشروعة وبالمساواة والعدالة وحرية التعبير وإبداء الرأي في القضايا العامة، وإبعادهم عن إدراك حجم السلب والنهب المنظم، والتسلط الظالم.

إن التدين الشكلي والمظهري يسبب ازدواجية الشخصية، ويشكل خطرا داهما للمجتمعات، كما يعتبر حاضنة للعنف، ويتسبب في مشاكل نفسية متعددة، إضافة إلى الانحلال الأخلاقي. كما أنه يتنافى مع السلوك الإنساني السليم والمصالحة مع النفس، ويؤدي إلى التطرف والمغالاة، بعيدا عن روح التسامح وتقبل الغير، ويدفع الى العنف الفكري والسلوكي الذي يعد من أهم أسباب خراب المجتمعات والدول فإن ظاهرة الإيمان الشكلي تُعد خطيرة ويجب معالجتها بشكلٍ جذري، من خلال

تعزيز التربية الدينية السليمة، ونشر الوعي بقيم الإسلام الحقيقية وتوفير القدوة الحسنة بعيدا عن الخزعبلات والتزييف .

الأسباب والدوافع

يمكن أن نجمل الأسباب والدوافع التي أدت الى انتشار ظاهرة الاسلام الشكلي واستشراءها في المجتمعات الاسلامية الى عدة أسباب وعوامل وهي :

العامل الايماني العقائدي

عامل العقل الديني

العامل الديني السياسي

عامل الجهل والتخلف والمصائب والويلات

العوامل المادية الحضارية و المعرفية

أولا

العامل الايماني العقائدي

لقد شكل المؤمنون المسلمون عصبة ايمانية خالصة ألتفت حول الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام فكانوا رجالا صدقوا ماعاهدوا الله عليه ولقد مدحهم الله سبحانه

وتعالى في قوله : (مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (23) الأحزاب .

وبالرغم من ذلك فكانت درجة الأيمان وقوة الاسلام فيهم متفاوتة فمنهم من طلب الشهادة في سبيل دينه واسلامه حتى نالها بقلب سليم ومنهم كان على درجة أقل من ذلك فبذل ماله وما يملك في سبيل الله ومنهم من آوى الرسول الكريم والذين هاجروا معه .

وهذا لا يعني ان المجتمع الاسلامي أيام الرسول الكريم كان مجتمعا نقيا فلقد ظهرت فئة المنافقين الذين أمنوا بألسنتهم وخالفوا بأفعالهم ومواقفهم ومنهم من كان يبحث عن المال والغنيمة وغير ذلك من أصناف المسلمين .

وبشكل عام كانوا أكثر تعاضدا وصدقا من المسلمين الذين عاصروا عهد الخلافة الراشدي ولقد ظهر ذلك عقب وفاة الرسول الكريم حيث أنقلب من انقلب وأرتد من أرتد وأراد الخليفة أبو بكر رضي الله عنه أن يبين للمسلمين من أن عقيدتهم هي الايمان بالله وحده وليس الأشخاص ولو كانوا أنبياء (فمن كان يعبد محمد فأن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فأن الله حي لا يموت) .

وكلما مرت السنون والقرون على وفاة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام كلما خفت جذوة الايمان بين الناس وضعف اسلامهم ولهذه القاعدة أسبابا نوجزها في مايلي :

أولا : الجهل والحنين الى الجاهلية : لقد أستطاع الدين الحنيف أن يحدث ثورة في العقل الجاهلي العربي كان من أثارها القضاء على النظام الجاهلي المسيطر على عقولهم ومجتمعاتهم لكن ما توفى الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام بدأ العقل العربي يعود شيئا فشيئا بأدراجه الى جاهليته .

ثانيا : العصبية القبلية : لقد كانت العصبية القبلية متجذرة في المجتمع العربي ولازالت أثارها باقية الى يومنا هذا فالأسلام أستطاع بوجود الرسول الكريم أن يفرض معادلة جديدة للتفاضل بين الناس وهي التقوى فلا فرقي بين أسود وأبيض أو بين عربي وأعجمي الا بالتقوى فجعل منها بديلا اسلاميا ايمانيا للعصبية والتفاخر بالأنساب والألقاب لكن هذا الأمر لم يدم طويلا وبدأت عودة العصبية القبيلة مشوار عدتها عشية وفاة الرسول الكريم في سقيفة بني ساعدة وهكذا تغلغلت رويدا رويدا لتعود وتفرض نفسها في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه والذي كان رحمه الله أو ضحاياها .

ثالثا : حب المال والدنيا : لقد عقد المؤمنون المسلمون الأوائل تجارة رابحة مع الله ورسوله فبذلوا نفوسهم وأموالهم وباعوا كل ماعندهم ووضعوه بين يدي النبي الكريم وآدوا زكاتهم وصدقاتهم وأطعموا البائس الفقير لكن سرعان ماتغيرت الأحوال المادية والروحية فكثر المال بين يدي الناس بعد الفتوحات الكبيرة وصار هم المسلمين الوحيد هو جمع المال والعيش بحياة ترف وصخب وتراجع حب

الأخرة لديهم لصالح دنياهم ولم يعد يهتموا بأمور دينهم وكثر القيل والقال والجدال ووقعت الفتن وسالت دماء المسلمين .

هكذا حال العهود التي تلت عصر الرسول الكريم عليه الصلاة و السلام فكيف هو حالنا اليوم:

لازالت مفاعيل ومكونات العقل العربي من جهل وجاهلية وعصبية قبلية وحب المال والدنيا فعالة ونشطة للغاية في المجتمعات الاسلامية الى يومنا هذا .

وإذا سألنا أي شخص مسلم: ما أسباب تشتتنا ؟ سيجيبك بـ : فرقنا حب السلطة والمال، فرقتنا المذاهب، فرقنا الاستخراب، فرقتنا الحدود الوهمية، فرقتنا الوطنية المزيفة، لكن إذا سألته: ما الذي يجمعنا: سيجيب بـ يجمعنا الدين الإسلامي، وهذا هو مربط الفرس والحل الحقيقي الجذري والواقعي الذي سيلم شملنا.

للأسف ركزنا كثيرا على ما يشتتنا، وتجاهلنا ما يجمعنا، وساعد على ذلك غياب موجهين لا يخافون في الله لومة لائم من حكام وعلماء ومؤرخين إلا من رحم ربي، لنكون صريحين جدا، الصليبيون لا يريدون ولا يتمنون نهوض أمة محمد مرة أخرى، ولا يتخيلون أنفسهم في زمن سليمان القانوني، أو سليم الأول أو حتى طارق بن زياد و صلاح الدين الأيوبي، ولا يتخيلون أيضا بروز قائد من هذه الأمة يحاول لم شملها ويكسر شوكتهم كما فعل الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي والأمير عبد القادر الجزائري ويوسف بن تاشفين وعبد الرحمان ناصر، هؤلاء كانوا بحق

من رموز الأمة الذين لا نسمع لهم خبرا لا على الشاشات الفضائية ولا في موقع التواصل.

نحن المسلمون، لدينا مسلمة مفادها "أننا أمة لا تموت أبدا" تجرعنا ونتجرع الأحزان والمآسي في كل البقاع وفي كل الأزمنة، من بداية رسالة الإسلام على يد قادة قريش وفي محاكم التفتيش بشتى أنواع التعذيب على يد الإسبان، وفي القرن الماضي على يد أعتى الجيوش الصليبية ولا زلنا نتجرع من هذا الكأس مزيدا من التقتيل والتهجير من طرفهم، ووصل الحقد إلى البوذيين الذين شردوا مئات الآلاف من المسلمين، وكل هذا لسبب وحيد أننا مسلمون، ورغم ذلك صامدون، صابرون على هذا الابتلاء الرباني الذي يحمل رسائل لكل مسلم.

أؤمن أن أمتنا إذا ثارت، فلن تتوقف، فالمعروف عنها عبر جميع الأزمنة خلال حكم المسلمين يسود العالم سلم وطمأنينة، لذلك علينا أن نعيد النظر في أنفسنا أولا قبل البحث عن تغيير شامل، إصلاح النفس وتطعيمها بشتى العلوم الدينية والدنيوية وتهذيبها وتقويتها، أؤمن أن العلم هو مفتاح نهضة الأمم.

ولنا في أمتنا خير مثال، ففي أيام ازدهارها وازدهار العلوم فيها خرجت وأنتجت لنا نوابغ وعلماء في جميع المجالات، ونذكر بعضهم على سبيل المثال لا الحصر، ثابت بن قرة الذي أكاد أجزم أن أغلب قراء هذا المقال لا يعرفونه، والذي أستحضر ما قاله فيه المؤرخ والكاتب الأمريكي ديورانت ويل: "إن العالم الإسلامي ثابت بن قرة

هو العالم الذي أفاد علماء الغرب فيما بعد في تطبيقاتهم وأبحاثهم الرياضية في القرن السادس عشر، والتي كانت أساسا لظهور الحضارة الغربية المعاصرة". وعبد الرحمان بن عوف والرازي وابن الهيثم والطبراني وعباس بن فرناس ابن رشد وبن خلدون والكثير الكثير...

تمر على أمتنا أيام عصيبة، وخصوصا في الواقع الحاضر، لذلك يتوجب على كل مسلم غيور على دينه أن يحاول بما استطاع من علم ومعرفة أن يمرر رسائل التفاؤل والمضي قدما لبناء مستقبل مشرق لأمة أعزها الله بالإسلام وهو المنهج القويم الذي أشاد به العدو قبل الصديق وحاربوه قبل ظهوره، والاستسلام ليس من شيم المسلم، لذلك يبقى التفاؤل في غد مشرق ليس ببعيد.. عندما تحقق وحدة الأمة وتتوحد أقطارها إلى كتلة واحدة تحت المسمى "العالم الإسلامي الكبير".

ويدور الزمان وتمر القرون، وتنصرم الأعوام، والأمة الإسلامية بين مدٍ وجزر، بين صحوة وكبوة، بين يقظة وغفلة، تمسك بدينها، وتعلي كتاب ربها وسنة نبيها صلى الله عليه وسلم فينصرها ربها، ويعزها ويذل أعداءها، وتغرق في الشهوات وتنغمس في الضلالات، وتنسى شرع ربها فينساها مولاها، ويتخلى عنها، ويكلها إلى نفسها، ويسلط عليها أعداءها إلى أن تراجع دينها.

وتمر الأيام وتخلف الخلوف، وتبحر سفينة الحياة إلى أن ترسو على شاطئ عالمنا المعاصر، وزماننا الحاضر وواقعنا المشاهد، بأحداثه وآلامه، بأحواله المبكية ووقائعه

المؤلمة، وأوضاعه المتردية، فتنٌ كقطع الليل المظلم متعاقبة، ومحنٌ متتابعة، عقائد خاطئة، وأفكارٌ زائفة، وأخلاقٌ ساكنة، وحروبٌ طاحنة، وأحزابٌ متناحرة، وفرقة متأصلة، بلادٌ مغصوبة، وحقوقٌ مسلوبة، ودماء مسفوكة، الأعداء متطاولون، والمسلمون مستضعفون، والأشقاء متناحرون، والألداء يتفرجون.

حتى أصبح العالم الإسلامي في وضعٍ لا يحسد عليه، أصبح مسرحاً لكل مشكلة، ومأوى لكل معضلة، فكل يومٍ نسمع أحداثاً ضد المسلمين وضد بلادهم، ضد مبادئهم وقيمهم ومقدساتهم، مما تتفطر منه الأكباد، وتدمى له القلوب، وتبكي له العيون، ومما يزيد في هم المسلم المتابع لأحداث أمته، المتألم لآلامها. أن هذه المشكلات، أصبحت أمراً مألوفاً عند كثيرٍ من الناس، فلا يسعون لتغيير، ولا يجدون في إصلاح، ولا يأخذون بتأمل حاضر العالم الإسلامي وواقعه المؤلم الذي لا تترجم عنه الكلمات، وهو معلومٌ لكل مهتمٍ بقضايا أمته، ومتابعٍ لأخبارها، وحينما يقلب المسلم صفحات هذا الواقع، يجد جوانب متعددة، تطلب العلاج الناجع بإلحاح، ولا سيما الجوانب المتعلقة بأصول هذا الدين وأسسه، ونواحي الحياة الأخرى، على مختلف الأصعدة، خاصة ما يتعلق بالجوانب التربوية والأخلاقية والتعليمية والإعلامية، كذلك ما يتعلق بأوضاع المسلمين في بقاع كثيرة من العالم الإسلامي، ولا سيما في فلسطين المسلمة، وأفغانستان المجاهدة وغيرها من البلاد التي يقطنها المسلمون وهم أقلية مستضعفة، ومن ناحية أخرى الزحف الهائل من

الأفكار الهدامة، والمبادئ المنحرفة، والقوى المتآمرة على ديننا، من الملحدين الشيوعيين، ومن إخوان القردة والخنازير اليهود، وغيرهم.

ومما يتعلق أيضاً بأوضاع عدة هذه الأمة، وعماد نهضتها، وهم شبابها وما يعيش فيه أكثرهم اليوم من حياة اللهو والمجون والفراغ، وكذلك وضع المرأة المسلمة، المستهدفة في أخلاقها وآدابها، وما يخص تربيتها على كتاب ربها وسنة نبيها على الخير والفضيلة، والعفاف والستر والحياء والحشمة، ولا سيما مع السيل الجرار من حركات السفور والتبرج والاختلاط، التي اجتاحت العالم الإسلامي حتى أصبحت المرأة المسلمة سلعة للعابثين وسوقاً للمغرضين.

وفي اعتقادي أن ضعف عقيدة اليوم الأخر والايمان بها هي أول وأخطر درجات الهبوط الايماني عند المسلمين فكانوا يؤثرون الأخرة على العاجلة ولقد حذرهم القرآن الكريم من أفعالهم مسبقا ودعاهم للتمسك والعمل لأخرتهم لأن فيها الخير كله وهي أبقى لكن كانوا يؤثرون الحياة الدنيا .

ثانيا

عامل العقل الديني

لم يمتلك أيا من أصحاب الرسول الكريم عيه الصلاة والسلام عقلا دينيا مديرا ومنفذا عالما واعيا كعقله وحسن ادارته ودرجة أخلاقه صلى الله عليه وسلم لذلك

فلقد تركت وفاته فراغا عظيما في حياة المسلمين فتشددت عقولهم وكثرت فتاويهم واختلافاتهم .

ولم يعد العقل الديني المسلم يهتم بالقضايا الايمانية من تفسير وتعليم وفهم للقرآن الكريم الذي قاد مسيرتهم منذ اللحظات التي نزل فيها في ليلة القدر وسار معهم خطوة بخطوة يقودهم بخطابات وتوجيهات وينظم حياتهم ويبين شريعتهم ومنهجهم ولقد شغل عقولهم التفكر بفتاوى تتعلق بالغنائم والمال والسلطة والأمصار والفتوحات لقد وضعوا القرأن الكريم على الرف ونسوه .

لقد حذرهم كتاب الله من نسيانه ونسيان ذكر الله وبيان فضله عليهم

(ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون 19 - سورة الحشر .

والحرمان كل الحرمان، أن يغفل العبد عن هذا الأمر، ويشابه قوما نسوا الله وغفلوا عن ذكره والقيام بحقه، وأقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها، فلم ينجحوا، ولم يحصلوا على طائل، بل أنساهم الله مصالح أنفسهم، وأغفلهم عن منافعها وفوائدها، فصار أمرهم فرطا، فرجعوا بخسارة الدارين، وغبنوا غبنا، لا يمكنهم تداركه، ولا يجبر كسره، لأنهم هم الفاسقون، الذين خرجوا عن طاعة ربهم وأوضعوا في معاصيه.

ولقد صدق وتحقق قول الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام يوم نبههم وحذرهم من ترك كتاب الله ولحاقهم الدنيا وفي الحديث الشريف (حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِاللَّهِ، قَالَ: حَدَّثَنِي إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عُقْبَةَ، عَنْ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ، قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: حَدَّثَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ: أَنَّ المِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ أَخْبَرَهُ: أَنَّ عَمْرَو بْنَ عَوْفٍ - وَهُوَ حَلِيفٌ لِبَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ، كَانَ شَهِدَ بَدْرًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ- أَخْبَرَهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ ابْنَ الجَرَّاحِ إِلَى البَحْرَيْنِ يَأْتِي بِجِزْيَتِهَا، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ صَالَحَ أَهْلَ البَحْرَيْنِ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمُ العَلاَءَ بْنَ الحَضْرَمِيِّ، فَقَدِمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِمَالٍ مِنَ البَحْرَيْنِ، فَسَمِعَتِ الأَنْصَارُ بِقُدُومِهِ، فَوَافَتْهُ صَلاَةَ الصُّبْحِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا انْصَرَفَ تَعَرَّضُوا لَهُ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ رَآهُمْ، وَقَالَ: أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ، وَأَنَّهُ جَاءَ بِشَيْءٍ؟ قَالُوا: أَجَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَوَاللَّهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُلْهِيَكُمْ كَمَا أَلْهَتْهُمْ) .

حال العقل الديني اليوم

يتفق الجميع على أن الأمة المسلمة تمر اليوم في مرحلة صعبة جدا من التجزئة والتفكك، وضياع الهوية .

ويتفقون أيضاً على أنَّ التغيير أمر لا بد منه، بعد أن ذاقت الأمة الأَمرين من

الاستبداد والإخضاع للتجارب الأجنبية، ومحاولة تطبيقها قسراً على مدى أكثر من قرنين، منذ بدأت الأمة تشعر أن ثمّة مشكلة تواجهها عقب لقائها في كثير من حواضرها بالحضارة الغربية، وخاصة في تركيا ومصر.

لقد قلّدت خلال هذه المدة الطويلة تجارب الآخرين في السياسة والحكم، والثّقافة والإدارة، والآداب والاجتماع، والعلوم والفنون، لكنها لم تصل إلى ما أملت ورجت، ووجدت نفسها على أحسن الفروض كالذي يدور في مكانه، إن لم تتسع الفجوة على وجه الحقيقة بينه وبين أقرانه.

ومعنى ذلك أن قيادة الأمة لم تستطع أن تحدد المنطق الصحيح في عملية التغيير نحو غاياتها المرجوة. ولقد بدا لنا من خلال التأمل الطويل في الأمر وتقليب وجوه النظر، ومراجعة التجارب السابقة التي بذلتها الأمة للخروج من أزمتها، أن النقطة الصحيحة في عملية التغيير يجب أن تبدأ بالفكر، ذلك لأن الفكر هو المقدمة الطبيعية لكل عمل ينبع منه صحيحاً كان أم خاطئاً.

ومعنى ذلك أنَّ الفكر الصحيح هو الذي يوجد النهضة الصحيحة، وهو الذي يأخذ بيد الأمة للخروج من أزمتها الخانقة.

ولمَّا كان الإسلام هو الذي يشكل للأمة الإسلامية الفكر الأساسي الصحيح،

ولما كان هو الذي يمثّل روح الأمة، ويصوغ وجودها ، ويستجيش ضميرها، ويوقد فيها الطاقة المحركة القادرة على الإبداع والتصدي والمقاومة والعطاء، فإن الفكر الصحيح هو بالضرورة «الفكر الإسلامي».من هنا يمكن أن نقول إن عملية التغيير المطلوبة هي قبل كل شيء عملية فكرية، لا بد من أن تقوم على أساس الإسلام،

إن الباحث في أحوال الأمة الإسلامية لا يصعب عليه تبين ما هي عليه من تخلف حضاري، وهوان سياسي، ومعاناة إنسانية، رغم كل ما تمتع به من إمكانات بشرية ومادية وما تمتلكه من قيم ومبادئ سامية .

هذا هو لب الأزمة التي تعيشها الأمة الإسلامية في مختلف بقاعها وعلى امتداد وجودها، هذا الوجود المتخلِّف التائه الذي ما زال يؤرق الضمير الإسلامي الذي يمثل ضمير أمة بناءة رائدة. ولذلك كان من الطبيعي للأمة الإسلامية أن تتطلع إلى النهضة والإصلاح والتجديد والصحوة.

ومعالجة القصور في كيان الأمة وتحقيق شروط العلاج والنجاح يستلزم فهم أسباب القصور ودواعي التخلف والضعف التي بلغت بالأمة الإسلامية لأول مرة .

في تاريخها إلى تجديد وجودها. وذلك بسبب التحدي الحضاري الغربي الذي

تواجهه في صميم حياتها، وأنماط فكرها ومؤساتها.

ولفهم أسباب القصور وجذور التدهور الحضاري الذي تعاني منه الأمة في هذا العصر لا بد لنا من نظرة شمولية تحليلية عميقة في كيان الأمة وخطوط مسارها الذي بلغ دركاً مازالت تتهاوى في أعماقه حتى اليوم .

ولا شك أن الأمة الإسلامية قد مضت عليها قرون طويلة وهي تترنح وتتدهور حتى وقعت كلها -إلاَّ مناطق محدودة قاحلة وعرة نائية في العمق الإسلامي- تحت سيطرة الاستعمار والدول الأوروبية، والأشد من ذلك ألماً ومرارة أن أمة الإسلام مازالت حتى اليوم تمثل مناطق نفوذ وأسواقاً للإنتاج الصناعي ومصدراً رخيصاً للمواد الأولية والأيدي العاملة غير الفنية، وأمست كلها ميدان صراع بين القوى العالمية عاجزة من إطعام نفسها، مفتقرة إلى القاعدة العلمية و(التكنولوجية)، وإلى الصناعات والخبرات والمؤسسات الفنية المتطورة وكل مقومات القوة الذاتية.

وإذا أردنا أن نتتبع أسباب هذا الضعف والتدهور وجذوره في تاريخنا فإن عوامل الضعف والتدهور والانيار قد لا تبدو ظاهرة للعيان في بدايتها، بل إنّ كثيراً

من الدول في بداية عصر تدهورها تتراكم ثرواتها ومظاهر رفاهيتها نتيجة لسابق تقدمها وتطورها، وذلك هو حال الأمة الإسلامية بعد عصر الصدر الأول، حيث نلمس مظاهر الثروة والغنى والعدد والمباني والأروقة، ولكنا نلمس التدهور الأمة من وانكماش المد الإسلامي وتفشي مظاهر الفساد والانحراف، وفي تحو موقف الهجوم إلى الدفاع، وفي نجاح التعدي عليها واجتياحها في بغداد والقدس وقرطبة وغيرها.

كذلك من المهم لفهم أسباب ضعفنا وتدهورنا، التفرقة بين الأسباب المرضية الأساسية للضعف والتدهور وبين مضاعفات هذه الأسباب، فنشوء الفرق والمذهبيات والإدعاءات المنحرفة ليس أمراً جديداً، فمثل ذلك القرامطة والنصيرية والدرزية وسواها في الماضي، والبهائية او الأحمدية والقديانية ودعاوى الشعوبية والإلحاد في العصر الحديث.

إن هذه كلها مظاهر لأمراض وآفات أساسية نشأت - كحقيقة تاريخية - وبدأت تدب في كيان الأمة حينما اضطرت أمام تحديات إمبراطوريات الفرس والروم إلى تسلّم جنود قبائل البادية العربية -التي كانت حديثة عهد بالإسلام -

زمام القوة والجيش في الدولة، لتضرب بعقليتها القبلية في أساس كيانها وتولد الفتنة الكبرى، ولتقضي بعد ذلك على دولة الخلافة الراشدة في المدينة المنورة عاصمة الدولة النبوية، ولتولد من بعدها دولاً ذات نعرات قَبلية وعرقية، وخليطاً من توجهات إسلامية وجاهلية لا مجال لمقارنتها بدولة الخلافة الراشدة مهما بلغ بنا التسليم الجدلي بما نسب إلى الخلافة الراشدة في ايات عهدها، وقلّ أن ثبت منها شيء أمام النشر العلمي المحقق السليم.

إذا أدركنا في هذه المسيرة عمق الهوة التي بلغتها الأمة اليوم، أدركنا خطورة الحال وجدية الجهد المطلوب وآنيته، لتستنقذ الأمة نفسها من التدهور والمآسي والكوارث التي تتوالى على أقطارها ورقاب رجالها.

وإذا كان الضعف والتدهور والعجز والمعاناة في حاضر الأمة الإسلامية أمراً ملموساً، وهو موضع اتفاق المخلصين والعقلاء، فلا شك أن منطلقات موضوعية تساعدنا للخروج من هذ المواقع ومن هذه الأزمة العميقة المستعصية، وما تتطلبه من وسائل ليست على نفس القدر من الوضوح والاتفاق.

بل إنّ الأدهى والأمر أن من مضاعفات الأزمة والمرض في جسد الأمة تتمثل في ذيوع المذهبيات الشعوبية والعنصرية والقومية والإلحادية والفوضوية والإباحية

المعاصرة التي تصم في كل ركن أسماع الأمة، نجدها مما يشجع عليها ويدعو لها بعض أدعياء الإصلاح، ويروجون لها ولهم بكل الأسباب والحيل والضغوط والحبائل، ويقدمونها على أساس مظاهر للصحة ومنطلقات للتقدم رغم آثارها الوخيمة على الأمة في تعميق جراحا⚠ا، وتمكين أسباب المعاناة والضعف فيها، وتمكين الداءوالأداء منها.

والسؤال الملح اليوم: ما هو المنطلق الصحيح للخروج من الأزمة ؟

والجواب الصحيح - فيما أرى - إنما يبدأ من تحديد وتمحيص المنطلقات والبدائل المعروضة في مواجهة حركة الأمة أولاً، وهذه المنطلقات والبدائل المعاصرة والمعروضة أمام الأمة إنما هي في أساسها تنحصر في توجهات رئيسية ثلاثة، هي:

أولاً : منطلق التقليد الأجنبي أو ما نسميه «بالحل الأجنبي»: وهو يمثل مجموعة الحلول المستوردة من التجربة الغربية المادية الحديثة بكل أشكالها الفردية والشمولية والعلمانية والإلحادية (الرأسمالية والماركسية).

ثانياً : منطلق التقلد التاريخي أو «الحل التقليدي التاريخي الإسلامي» : وهو مجموعة الحلول المنقولة من بطون التاريخ، مع إلغاء الأبعاد الزمانية والمكانية وآثارها.

ثالثاً: منطلق الأصالة الإسلامية أو ما نسميه «بالحل الإسلامي المعاصر» : وهو

يمثل الحل بمواجهة تحديات العصر من منطق إسلامي.

ثالثا

العامل الديني السياسي

ان من أقوى العوامل التي ساهمت بتفريغ الدين من عقيدته ومبادئه وتحويله الى مجرد طقوس وعادات بل والى تراث هو العامل الديني السياسي فلقد شغلت أمور الحكم والخلافة والولاية الذهن العربي طويلا ولازالت .

وعلاقة السياسة بالدين بدأت منذ وفاة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام وتبلورت بشكل واضح في معارك الصراع على السلطة بين علي بن أبي طالب وبين الصحابة رضي الله عنهم جميعا ومنذ ذلك الوقت تأسست بدأ التغيير في طبيعة الاسلام وجوهره .

فالأسلام فكريا سياسيا شعبيا منقسم اليوم انقسامات عمودية وأفقية بين تيارين يمثل أكبره التيار السني السلفي الداعي الى اعادة الخلافة الاسلامية والتمسك بنظامها السياسي وبيت تيار أصغر يمثل الشيعة الذين لازالو ينادون بأحقية الأمام علي بالخلافة وتأصيل وتأسيس نظام حكم قائم على الأمامة والولاية وخصها بأل بيت النبي وقد خصوا فاطمة وزوجها وأولادها بهذه الولاية المستمرة الى أخر الزمن وفق زعمهم .

لقد شغلت هذه القضايا عقول المسلمين في كل العصور ليس هذا فحسب بل تحولت الى قضايا ساخنة خلفت الكثير من الحروب والمواجهات وساهمت في تأسيس الكثير من الفرق الباطنية الدموية ؟

وفي وقتنا الراهن فأن هذه القضية وبفضل تطور وسائل الاتصال والتواصل والمعرفة صار من القضايا الرئيسية التي تشغل العقل العربي وتلهيه وتبعده عن قيم ومعاني وأصل الاسلام والدعوة ومكوناتها فالمسلم اليوم مشغول بالنقاش والحوار مع أخيه المسلم في قضية الخلافة والآمامة ولم يعد يهتم كثيرا بمسائل الدين وأصوله وعلومه وعلى رأسها علوم القرآن الكريم .

لقد ساهم ذلك كله في تسييس الدين وانحراف العقائد والاساءه الى سمعة الاسلام والمسلمين وتبدل المظهر الحقيقي للدين الحنيف وتبدلت معالم الاسلام ومكوناته وصار فعلا دينا عجيبا واسلاما غريبا كما تنبأ رسولنا الكريم محمد صلى الله علي وسلم حينما قال : (بدأ الإسلامُ غريبًا وسيعودُ غريبًا كما بدأ فطُوبِى للغرباءِ، وفي روايةٍ قيل يا رسولَ اللهِ : مَن الغرباءُ ؟ قال : الذين يصلحون إذا فسد الناسُ)

فكلنا يعي ويفهم ويشاهد هذه الحقيقة حقيقة ان الاسلام غريب ووجه الغرابة في اسلام اليوم أنه لا ينتمي الى الاسلام الذي أسسه ربنا الكريم وبنى أسسه رسوله الكريم .

رابعا

عامل الجهل والتخلف والمصائب والويلات

الجهل والتخلف

حينما تتحدث عن الجهل والتخلف في مجتمعاتنا العربية والاسلامية فحدث ولا حرج ولقد أصبحت هاتين السمتين من الصفات الملاصقة والتي تعرف بها هذه المجتمعات بأنها (مجتمعات متخلفة) أو بتعريف ألطف (نامية) .

والجهل والتخلف مصطلحين مترابطين لا ينفصلان فمن النادر أن نرى مجتمعا جاهلا وهو متقدم بنفس الوقت والعكس صحيح فلا يمكن للمجتمع المتخلف أن يكون متنورا أو مثقفا .

وهما أي الجهل والتخلف صفتان مكتسبتان عادة الا في مجتمعاتنا العربية والاسلامية هما من السمات التاريخية المتوارثة فتاريخ الجهل يعود الى ما قبل الاسلام وتاريخ تخلفنا لا نعرف بدايته وربما نهايته .

والمرحلة الزمنية الوحيدة التي تخلصنا من هاتين السمعتين السيئتين كانت في العصر الذهبي للاسلام كما سماه البعض وتحديدا في العهد النبوي الشريف في ذلك الحين وبتعليم وتوجيه من الله وكتابه ورسوله تبدلنا وتبدل أحوالنا من أمة جاهلية

ومتخلفة الى أمة متعلمة لها كتابها المنزل بلسانها المبين يحثها على القراءة والتعلم والمعرفة وطلب العلم وحرك في عقولها خاصية التفكير والفهم والادراك .

{الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} [إبراهيم : 1]

فالجهل والتخلف والعصبية القبلية وعبادة الأوثان والشرك بالله كلها تعد في خانة الظلمات وهدف كتاب الله وغايته أخراج العرب وسائر الناس منها الى النور الذي يعني الوعي والتعقل والتفكر والتدبر ونبذ العصبية القبلية وعبادة الله الواحد الأحد

لذلك فكثير منا اليوم يدعي ويتفاخر بأنه من المسلمين وتتفاخر مجتماعاتنا الاسلامية من أنها تنتمي الى الأمة الاسلامية وهو ادعاء شكلي وانتماء سطحي لا يسمن ولا يغني عن جوع وفوق ذلك نمن على الله وسبحانه وتعالى في ذلك يقول (يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) الحجرات : 17

سمات الجاهل و المتخلف العصري

1 الأفراط و التفريط :

فالجاهل أما يعيش في إفراط , أو تفريط , فهو إما يترك العلم و المعرفة و التقدم و التطور و ينطوي على نفسه , و يكتفي بما عنده ظناً منه إنه كل شيء , كالذي يأخذ شهادة عليا مثلاً , فبمجرد أخذه لها يترك كل شيء , و يبيع كتبه , و لا

تجده في المحافل العلمية و الثقافية , و لا تجده في المكتبات , و المصيبة فوق كل ذلك إنك تجده حاد اللسان ناقداً لكل شيء , مع العلم إنه لا يعلم , و الحقيقة أنه يعيش (خلف الحضارة) , و يعاني من (تصحر فكري) لإنه لا يواكب التطور , بل المصيبة إنك تجده يحارب التطور بحجج و أقاويل باطلة , كل ذلك لكي لا يكشف خواءه المعرفي , فتجده يلتجئ إلى مجالات عفا عليها الزمان , و يتمسك بقديم لا يفيد , و بعلم لا مكانة له ظناً منه إنه هو العلم الحقيقي , بل إنك لو سألته عن عنوان , أو بحث , أو كتاب , أو أطروحة فإنه يعيد لك ما هو قديم يجتره أجتراراً كونه لا يحسن غير ذلك , و لا يعرف غير ما سَمِعَ , و لا يرى أبعد من أرنبة أنفه , فالمستقبل و التطور عنده موجود في أروقة الماضي .

2 **العُجب**:

و المصيبة الموجودة عند (جماعة المتعلمين المجازيين) هو مدى العجب الذي يمتلكونه , و كأن الله سبحانه و تعالى لم يعط العلم إلا لهم , و إنهم خُزانه , و ورثته الحقيقيون دون باقي البشر .

فالعجب بالعبادة لا يضر إلا بنفس الشخص , إنما العجب بالعلم يضر جيلاً كاملاً بل أجيال , لأن ذلك المعلم المعجب بنفسه ـ مثلاً ـ لا يبحث , و لا يتواضع من أجل العلم ليسأل غيره , و لا يستمع من الغير , و لا يعترف بالخطأ , بل (تأخذه العزة في الأثم) فيعوج جيلٌ كاملٌ من وراء غروره و جهله .

يقول (تشارليز ديكنز) : (نسمع أحياناً الكلام عن دعوى التعويض عن الأضرار ضد الطبيب غير الكفء الذي شوه أحد الأعضاء بدلاً من شفائه . و لكن ماذا يقال في مئات آلاف العقول التي شوهتها إلى الأبد الحماقات الحقيرة التي أدعت تكوينها) .

3 محاربة كل شيء لا يعرفه:

فمن سمات (الجاهل المتعلم) أو (المتعلم المجازي) محاربته لكل شيء لا يعرفه بحيث يضع له المثالب , و يخترع له المساوئ , و يحشد عليه المطاعن , لا لشيء إلا لإنه جاهلٌ به .

و من سمات (الجاهل المتعلم) أيضاً محاربة التطور , و التقدم و كل شيء جديد ـ هو جاهل به أيضاً ـ بحجج و أهواء ما أنزل الله بها من سلطان بأسم (الثوابت), و (التراث)) , و (الأصالة) , و ما شاكل ذلك , و في الحقيقة لو سألته عن تلك المصطلحات لم يحسن التمييز بينها , و لا يعرف حقيقة الثابت و المتغير , بل يضل يدور في حلقة مفرغة لا يحسن الخروج منها لعدم وجود سعة فكرية لديه , فهو (منغلق العقل) , بل إن (عقله في أذنه) , و (علمه في لسانه) فقط .

4 أحادية الثقافة و عدم أعطاء حيز للآخر :

فمشكلة أحادية الثقافة , و إنغلاق التفكير , و دوغمائية الفكر هي من أشد المصائب التي ألمت بالأديان , و منها الدين الإسلامي , فالإسلام الحقيقي أمرنا بالأستماع

لكل الأراء , و سماع رأي الآخر , و أخذ الحكمة ممن كان بغض النظر عن الدين , و المذهب , و الأنتماء , فالفكر (الدوغمائي) فكر قاتل , يسبب التخلف , و يمحو العلم , و يعزل الأنسان عن العالم , و عن مجتمعه بأعذار , و أقول واهية لا أساس لها .

إن إقصاء الآخر أزمة تعاني منها أغلب المجتمعات العربية و الإسلامية , لكنها تتفاوت في درجة الكثافة و الشدة , و ترتبط هذه الأزمة بثلاثة عوامل أساس , تنتج هذه الأزمة و تغذيها و تفرضها على المجتمع .

العامل الأول : الفهم الديني السائد في هذه المجتمعات الذي يعد الرأي الآخر ضلالاً و منكراً تجب محاربته و إزالته .

و العامل الثاني : سياسات الأنظمة الحاكمة التي ترفض وجود الرأي الآخر المختلف ... .

أما العامل الثالث : فيتمثل في التربية و الأعراف الأجتماعية التي تربي الفرد على أساس أن إبداء الرأي المخالف للأب أو لشيخ القبيلة أو للرئيس في الأدارة أو لعالم الدين هو إساءة أدب و عدم احترام و تقدير , و قد تترتب عليه ردود فعل غاضبة و إجراءات عقاب) .

5 الأعتقاد أن العلم بكثرة الكلام :

فالكلام المفيد (ما قل و أفاد) , و الخير كل الخير في (الأيجاز و الأفادة) فإن (خير الكلام ما قل و دل) , و الأذى كل الأذى بالهذو , و كثرة الكلام , و تشعيب المطالب , و تشتت الأفكار , فمن علامات إكتمال العقل ؛ قلة الكلام .

لكنك تجد أن من صفات الجاهل (كثرة الكلام) , و (الصوت العالي) , و (مقاطعة الآخرين) , و (عدم إعطاء المجال للغير للكلام) , و (المقاطعة في كل صغيرة و كبيرة) , و كأنها حرب يعيشها ذلك الجاهل يخبط فيها بيديه و رجليه و لسانه , و كل ما أوتي من قوة و جوارح , كل ذلك ليثبت أنه (يعلم) , و أنه (فاهم) , و (عالم) , و (متمكن) , و ما شاكل ذلك .

6 ضيق الأفق :

فالجاهل يبادر بدون سؤال , و يجيب لا للجواب بل لمجرد الكلام , و ينطق بما لا يراعي الآخرين , فهو مؤمن بأراءه الخاصة , معتقد بها , محارب لكل ما ـ و من ـ يخالفها , لا يهمه شيء حين يتكلم حتى لو تجاوز على الآخرين .

7 الحكم المسبق على الآخرين :

فهنالك من لديه أحكام أستباقية عن أشياء هو غير عالم بها , أو لم يرها , أو لم يعرفها , أو لم يسمع بها , لا لشيء إلا للخوف منها , أو حتى لا يقال إنه لا يعلم شيئاً عنها .

أو تجده عندما يريد البحث عن (معلومة) , أو (حقيقة) , أو (قضية معينة) يسبقه لها حكمه المنطلق من جهله الأعمى , أو تعصبه الديني , أو المذهبي , أو الفكري , فيتعامل معها بأحكام مسبقة خالية من الصحة .

فإن الذي يبني لنفسه رأياً مسبقاً لن يقتنع بأي رأي آخر مغاير مهما كانت الأدلة , و مهما كانت البراهين مقنعة .

8 التعلم لغير العلم:

فهو يطلب العلم (للرياسة) , و (التسلط) , و (التوصل) , و (الفائدة) , و (الربح) , و (كسب الأموال) , و (الوجاهة) .

فهو لا يتعلم ليفيد نفسه و غيره معرفياً , و لا لكي يتطور و يطور العلم , و لا من أجل أن يساهم في التقدم العلمي و المعرفي , لذا فإننا نقول لمن يرى و يسمع بكثرة الشهادات لدينا و لا يشاهد تقدماً كتقدم الغرب مثلاً إن المصيبة كون حامليها ـ و ليس كلهم ـ أرادوها , و طلبوها , و سعوا إليها لغايات في نفوسهم لا للتطور , أو للتقدم , أو من أجل أفادة المجتمع و رقيه , و إلا فلماذا تراهم يضعون المعرقلات في وجه الشباب و الجيل الصاعد , في الحقيقة أن كل ذلك لا لشيء إلا للخوف

على مناصبهم , و مكتسباتهم , و خوفاً من الفضيحة العلمية , لذا فلا تقدم إلا بالتخلص من الجيل المتمسك بمقاليد صنع القرار في مؤسساتنا التعليمية ممن يخاف على (عرشه) أن يزول , و أن نبعد العلم عن كل ما يمت للأيديولوجيا بصلة , و أن نحترم العلم و العلماء , و أن نعطي المكانة للمبدعين , و أن نعتني بمراكز الأبحاث و نسعى لتطويرها على أن لا تكون واجهات فقط .

9 التكبر :

و هي حالة في الإنسان تضفي على صاحبها روح الأنانية , و الغطرسة , و الشعور بالإستعلاء , و التفوق على الغير .

فالكبر , و التكبر خصلة تجدها عند عدد لابأس به من (مدعي العلم) , إذ أنهم يعاملون غيرهم ممن لا يتلائم مع أهوائهم بتكبر و تسلط , و كأن الأحاديث التي قرنت بين العلم و التواضع ليست موجودة , و لم يسمعوا بها , أو يقرؤها أبداً .

10 الجاهل ميت :

فالجاهل ميت , و هو أشبه بالشجرة اليابسة التي لا حياة فيها , و لا فائدة منها .

قال علي بن ابي طالب (رضي الله عنه) : ((العالم حي بين الموتى , و الجاهل ميت بين الأحياء)) .

وهكذا نستطيع القول ان حالة الجهل والتخلف المستشرية في المجتمعات الاسلامية ساهمت الى حد كبير في عملية تفريغ الدين والاسلام من محتواهما الحقيقي وتحويل الاسلام الى مجرد طقوس شكلية روتينية ليس أقل من ذلك بل أكثر .

المصائب والويلات والنكبات

تعد المصائب والنكبات والنكسات التي تعرضت لها الأمة الاسلامية منذ عقد من الزمن والى يومنا هذا احد أهم الاسباب التي في ضعف الوازع الديني عند المسلمين في وقتنا الحاضر فمنذ سقوط الدولة العثمانية مرت على العرب والمسلمين نكبات متلاحقة كان أولها ما يعرف باتفاقات سايكس بيكو التي وضعت عدد من البلاد العربية تحت انتداب الدول الاوربية الاستعمارية ثم كان وعد بلفور وقيام دولة الصهاينة ومانتج عن ذلك من هروب نصف الشعب الفلسطيني من وطنه بعدما أرتكب الصهاينة العديد من المجازر بحقهم ثم كانت خسارة العرب لحروبهم مع الصهاينة أعوام 1948 و1967 و1980 .

والنّكبة : مُفردة عربية تعني المصيبة من مصائب الدهر، واحدى نكباته ويُقال : نكبتهُ حوادث الدهر، واصابته نكبةٌ ونكباتٌ ونكوبٌ كثيرة، ، ومنه النّكبةُ وهو ما يُصيب الانسان من الحوادث وعندما تُطلق النكبة على العموم فانها تعني اعلى

درجات المصائب، واذا اطلقت على الخصوص فانّها تعني نكبة اقامة دولة اسرائيل على الاراضي العربية الفلسطينية عام 1948م .

لقد دخلت هذه المفردة الى قاموس المصطلحات السياسية منذ سبعون عاماً، وأصبحت المصطلح السياسي الاول والاكثر شيوعا في كافة المجتمعات العربية من المحيط الى الخليج، حتى صار الجميع يدرك معناها وبُعدها الانساني بما فيهم الصغير والكبير، العالم والجاهل.

وعلى الرغم من عِظم الدلالة الكارثية "للنّكبة " إلا ان تفكيرنا لم يتجاوز الحدود اللغوية لذلك المصطلح، حيث حصرنا تفكيرنا وقيدناه ضمن حدود الحدث، ولم نُحرر عُقولنا منه لغاية هذه اللحظة، واعتقد ان هذا وحده كان له ابعاداً كارثية عميقة، تجاوزت الحجم الحقيقي للمعنى اللغوي، والمعنى الواقعي الذي حددناه مُسبقاً، واختزلناه بفقدان الارض والهزيمة وإقامة دولة إسرائيل عام 1948م.

منذ ذلك الوقت اصيبت عقولنا بالشلل الفكري، واصبحنا عاجزين عن قراءة الاحداث وفهم الواقع ! لماذا ؟ وجواب ذلك : لأنّنا حددنا سقف النكبة (المصيبة) حتى اصبح كل شيءٍ دون ذلك السقف، لا يُعدُّ نكبه (ليس دون ذلك الامر نكبة)، وقد ساعد على تكريس هذا الواقع المرير، طبيعة التركيبة العاطفية للشخصية العربية (وهي الجانب الاضعف للفرد)، فالعربي كان ولا زال يندفع وراء عاطفته (النخوة)، ووراء شبكة مُعقدة من منظومة الاخلاق المُنبثقة

عن العرف والدين، والتي ورثناها جيلاً بعد جيلٍ على مدى عقودٍ وقرونٍ طويلة ٍ من الزمان . وللاسف الشديد فقد تمكّنت القيادات العربية، التي حكمت العالم العربي في كنف الدولة الاسلامية او تحت مظلة الاسلام، من إستثمار هذه الميزة سلبا، حيث تبنّت سياسات مبرمجة ومُمنهجه تهدف إلى إستغلال الجانب العاطفي للشخصية العربية، فتمكّنتْ من تحديد الخطوط الرئيسية لتلك الشخصية، مُعتمدة على فهمنا لتعاليم السماء، وكذلك فقد نجحت القوى الغير اسلامية من ادراك تلك الميزة فإستغلّتها لخدمة اغراضها وغاياتها.

وعلى الرغم من مرارة الهزيمة وفقدان الارض، وما صاحب ذلك من نتائج وخيمة، فإن النكبة كانت ولا زالت نذير شؤم، وبداية طويلة لسلسلة متصلة من النكبات والهزائم والويلات التي ألّمت بالعرب، وغيّرت من مجرى الاحداث ومن مكانة الامّة، وعلة الرغم من مرارة ذلك الواقع، إلا ان إحتلال فلسطين لم تكن اكبر نكباتنا ولا اشد احزاننا، فإذا اعدنا قراءة التاريخ، لوجدنا احداثاً جساماً قد حلّت بالامه، ولم تتوقف مسيرة الامّة على حدودها، بل تمكّنت من تجاوزها، فوفاة نبينا مُحمدا صلى الله عليه وسلم، وما ترتّب على عليها من تبعات ومآسي، الّمت بالامّة منذ ذلك الحين، يُعتبر النّكبة الحقيقية، وعلى الرغم من شدّة الصدمة فقد تجاوزنا حدود ذلك الحدث، وتعاملنا مع الواقع بإيجابية وموضوعية وشمولية.
وحروب الردة كذلك، ومنع الزكاة، واغتيال الخلفاء الراشدين عمر وعثمان وعلياً رضوان الله عليهم اجمعين، على ايدي الروافض والمرقة، وظهور المذهب الشيعي

وانقسام الامّة على اثر ذلك، شكّلت سلسلة متّصلة من النكبات التي عاشتها الامّة، ولا زالت تعاني منها الى يومنا هذا .

وكذلك فإن تحوّل نظام الخلافة الاسلامية الى نظامٍ وراثي ملكي حتمي، كان ولا زال يُشكّل اكبر نكبة المّت بالامّة منذ وفاة نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم، فمنذ تولي الامويين الخلافة فقد انتشرت ثقافة القتل وتعمّقت جذور الفرقة بين ابناء الأمّة، وهُدرت مقدراتها على بذخ وترف الحكام (الا من رحم ربي) !! وتوالت النكبات تترى حتى فقدنا الاصول والفروع، وتجرّأت علينا الامم واُحتلت الارض، وهُتك العرض، وسُفكت الدماء، وسُلبت ونُهبت مُقدّرات الامّة امام اعيننا، وتحت رعاية الخونة من الحكّام العرب، ونحن نقف مكتُوفي الايدي متفرجين، نُتابع فصول النكبات نكبة تلو النكبة، دون ان نُحرّك ساكناً وكأن الدماء جَمُدت في عُروقنا، وتحوّلنا إلى أصنام لا تقوى على فعل شيءٍ، سوى انتظار رحمة الله وانتظار نزول جيشٍ من الملائكة مُردفين !!.

كان حُكّام الاتراك يسلبون اقواتنا، ويأخذون ابنائنا ويزُجُون بهم في حروبٍ ليس لنا فيها ناقة ولا بعير، وكان كل من يقاوم ذلك يُقتّلون ويُصلّبون، وتُرفع رؤوسهم على اسنّة الرماح او يعلقون على اعواد المشانق، او كانوا يُرفعون على خوازيق الموت، التي كانت تُمزّق احشائهم وتستنزف دمائهم دون رحمة، ونحن كالعادة نقف مُتفرجين !وكل ذلك كان يحدث بإسم الاسلام والجهاد المُقدّس . وبعد ان تخلّصنا من الاتراك بدّلناهم بمن هم اسوأ منهم، من البريطانيين والفرنسّيين

وأعوانهم ، الذين فعلوا بنا ما هو اشد من ذلك، وفرّقوا وحدتنا الدينية والقومية والجغرافية، وقطّعوا الارض الى دويلاتٍ صغيرة، لكي يسهُل عليهم القضاء علينا، وزادوا على ذلك وزرعوا الكيان الصهيوني في قلب الوطن العربي في الارض المقدّسة ارض المحشر، ولا زالت دولة الاحتلال الصهيوني تعيث في الارض فساداً، على مدى سبعة عقود من الزمان، فماذا فعل حكام العرب وملوكهم حيال ذلك ؟ الم يدّعوا من ان الإعداد لحرب التحرير هو شُغلهم الشاغل ؟

ألم يزعموا أنهم يُجيّشون الجيوش لتحرير فلسطين والاراضي العربية المُحتلة ؟

فاصبحت الانظمة العربية تُشجّع على الإنفلات، وكل مظاهر الكفر والتسيّب، فهذه هي الأندية الليليّة والكازينوهات تجتاح بلادنا، وصارت الامّة تتنافس فيما بينها على كافة مظاهر الفاحشة، فانتشر الخمر والميسر الدعارة تحت مُسميات كثيرة، وسيطرت ثقافة الفن والطرب على عقول الناس، حتى صارت رافداً رئيسياً من روافد الفاحشة، والاستثمارات السياحية كذلك، حيث تحوّلت الفنادق الى مواخير مرخّصة، وهذا هو حال الوطن العربي الكبير، تحولت الحكومات العربية الى ادوات تخدم اجندات الأعداء من كل صوب، وتحولت الجيوش العربية الى حراس تسهر على أمن حدود الدولة الصهيونية، بل صارت سيوفٌ مُسلطة على رقاب الاشراف والاحرار من ابناء هذه الامّة، الذين يرفضون الذل والهوان والخنوع للظلم والعدوان، فإنقلبت الموازين، وصارت دولة الاحتلال دولة سلام ولا تريد الا العيش بسلام بعيدا عن خطر الارهاب العربي !!! لذلك وُجّهت

فوهات البنادق والمدافع الى صدور الاحرار، والى صدر كل من يقف في وجه التغيير والتحرر من ظلم الحُكام العرب، الذين عاثوا في الارض فساداً وسرقوا كل شيء طالته ايديهم، وباعوا الوطن لليهود والمستثمرين والغرباء، تحت مظلة الخصخصة، وصار اليهودي يشعر بالامن والامان في بلادنا، اكثر مما يشعر فيه في تل ابيب، واكثر ما يشعر فيه المواطن العربي في الحرم المكّي وجوار رب العالمين!!!

ضعُفت قيادتنا فضعُفنا، ووهنت فوهنّا، ولم نفعل شيئا سوى الانصياع والخنوع والخضوع والركون الى انظمتنا البالية المهترءة، واصبحنا نعيش حياة الرقيق، بل حياة قرود السيرك، التي تُنفّذ اوامر القرداتي بحذافيرها !! فإذا قال لها نامي على جنبك اليمين تنام، ونحن كذلك نفعل ذات الشيء، ننام على جنوبنا منتظرين قدوم ذكرى مآسينا، لنستيقظ من سباتنا كي نُحيي ذكرى الهزيمة وما اكثر هزائمنا

وهذا هو حالنا اليوم فنحن نعاني من جراء خياراتنا، فعندما نسينا الله، الله نسينا وسلط علينا من جنسنا، ولا سبيل لنا الى الخلاص الا العودة إلى الله، العودة الى الجذور والاصول، هو طريق الخلاص، فلنبدأ من انفسنا قبل أن نتحول الى الملوك والخونة، فإذا نظّفنا انفسنا من رجسها، كتب الله لنا التمكين في الارض، ولحين ذلك لا تنتظروا اي تغيير، وإنما مزيدٌ من القتل والتنكيل، وما داعش والقاعدة وكافة اشكال التنظيمات المتطرفة، إلا بعض نتائج مُخلّفات الانظمة الفاسدة والامة الخانعة.

واخيرا استذكر كلمات الاديب العربي الراحل جبران خليل جبران الذي حذّر من الخنوع والركون الى الظلم والظالمين ، والله لو دققنا النظر في هذه الكلمات لوجدناها تصف حالنا في الاردن وباقي اقطار الوطن العربي الكبير:

ويلٌ لأمّة تكثُر فيها المذاهب والطوائف وتخلو من الدين..

ويلٌ لأمّة تلبس مما لا تنسج، وتأكل مما لا تزرع، وتشربُ مما لا تعصر..

وويلٌ لأمّة تحسب المُستبدُ بطلاً، وترى الفاتحُ المُذلُ رَحيماً..

ويلٌ لأمّة تكره الشهوة في احلامها، وتدنو لها في يقظتها..

ويلٌ لأمّة لا ترفع صوتها الا اذا مشت بجنازة، ولا تفخر الا بالخراب، ولا تثور الا وعنقها بين السيف والنطح..

ويلٌ لأمّة سائسها ثعلب، وفيلسوفها مُشعوذ، وفنّها فن الترقيع والتقليد..

ويلٌ لأمّة تستقبل حاكمها بالتطبيل، وتودعه بالصفير لتستقبل آخر بالتطبيل.. ويلٌ لأمّة حُكماؤها خُرسٌ من وقر السنين، ورجالها الاشدّاء في أقمطة السرير..

ويلٌ لأمّة مُقسّمةُ الى اجزاءٍ وكل جُزءٍ يحسب نفسه امّة" !!!.

نعم ان نكبتنا العظمى تكمن في انفسنا، وفي حُكّامنا وحكوماتنا الفاسدة، التي تقوم على أشلاء شعوبها، حتى تحوّلت إلى خفافيش تمُتصُّ دماءهم ..

إن نكبتنا تكمن في خنوعنا وضعفنا وقبولنا الذل، ومعايشتنا للفساد ومؤآزرتنا للفاسدين،.. ان نكبتنا تكمن في حُمقنا، فلو كنا مؤمنين ما كنا حمقى، فالمؤمن كيّس فطن، ولا اريد ان اجزم اننا نرى لكنا لا نبصر، وإن كان هذا حال كثيرون منا !! بل سأزعم وأنا صادقاً مُتيقنا، من اننا نرى ونُبصر ولكننا ندّعي العمى (ما شفت ولا سمعت ولا تكلّمت صُمٌ بكمُ) ! فنحن ندرك الحقيقة، ونعرف من هم اعدائنا الحقيقيون، الذين يسلبون كرامتنا واقواتنا، ويتمتعون في خيراتنا، ويدّعون أنهم شرفاء وامناء علينا وعلى اوطاننا !

خامسا

العوامل المادية الحضارية والمعرفية

استطاعت الفلسفة النفعية المادية في عالمنا المعاصر وبفعل الوسائل والأدوات التكنلوجيا والمعلوماتية ان تكتسح العالم اليوم بما طرحته من مفاهيم وقيم ومعاني جديدة للحياة وهذا كله جاء على حساب الجانب المثالي والأخلاقي عند الانسان فضعف الحس الاخلاقي ليحل محل المنفعة ولمصلحة الشخصية ولأننا كمجتمعات اسلامية نعيش في كوكب أصبح قرية كبيرة فمن الطبيعي أن يصيبنا ما أصاب غيرنا من الأمم من خلل في منظومتنا العقائدية والاجتماعية والاخلاقية .

بداية لقد سعت الحضارة الغربية للتخلّص من الحضارة الإسلامية وخطرها على الغرب وعلى الرجل الأبيض من خلال ثلاثة وسائل خطيرة:

1- التبشير: حملات تستغل حالات الفقر والجهل والضعف و تبتز الشعوب. ساهمت الحملات ايضا بشكل غير مُباشر في نشر الفكر القومي بهدف تفكيك الأمة المسلمة الواحدة من خلال الجامعات التبشيرية في لبنان كما فعل بطرس البستاني على سبيل المثال.

2- الاستشراق: يدرسون كافّة البنى الثّقافيّة للشّرق من وجهة نظر غربية. يحفظون لغتنا. يترجمون كتبنا. يدرسون النفسية والشخصية المسلمة وينشئون أقسام ومراكز وجامعات وكراسي مُتخصصة في كلّ علم شرقي. وقد أسهب إدوارد سعيد في تحليل اهتمام الغرب بالشرق في كتابه الشهير: الإستشراق.. المعرفة السلطة الإنشاء.

3- الاستعمار: والذي أظهر الوجه الحقيقي للغرب الهمجي في تعامله مع الآخر حرباً أو سلماً وهنا أريد فقط أن أشير على عجالة للجانب الفكري والإيديولوجي الذي ساهم في دعم الاستعمار لبلادنا. عليك أن تعلم مثلا أن فيكتور هوجو صاحب رواية البؤساء والذي يُعتبر من الأدباء التقدميين قال كلمته المشهورة أيام الغزو الفرنسي للجزائر: اذبحوا الأمّة الملعونة! وقد كتب مرة أن إفريقيا لا تملك تاريخاً فبرر بذلك الغزو والقتل. وقد ذكر جارودي عددا من أدباء الغرب الذين كانت لهم آراء عنصرية حول الشرق والإسلام وذكر من بين هؤلاء هيجو وفلوبير اللذين

كتبا عن شرق منحط لا قيمة له وكذلك فعل شاتوبريان ولامارتين وجيرار دي نرفال وغيرهم الكثير.

والآن وفي ظل غمرة اشتداد الهجمات الضارية الموجهة ضد ثقافة العالم الإسلامي والرامية بشتى السبل إلى طمس الهوية الإسلامية ومحو المعالم الحضارية الّتي تميّزت بها الحضارة الإسلامية عبر تاريخها المجيد، لابدّ للعالم الإسلامي بشكل عام وللمفكرين والمهتمين بشؤونه من استشعار خطورة هذه الهجمات العنيفة المركزة المدروسة، والتفكير الجاد الواعي في التصدي لها باستخدام كافة الإمكانات المتاحة الّتي لا نعتقد أنها قليلة أبداً.

فالغزو الثقافي غزو شرس، والحرب الفكرية حرب لا هوادة فيها، وهما أشد خطراً من عمليات الغزو المسلّح والحروب العسكرية لأنهما موجهان لتحطيم الهيكلية الثقافية الفكرية الإسلامية، وتقويض صرح الحضارة الإسلامية ، وبعبارة أخرى أن الأمن الثقافي الفكري الإسلامي مهدد تهديداً حقيقياً، وها هي معاول الثقافة الهدامة تعمل فيه ليلاً و نهاراً دون أن يثير ذلك ـ وللأسف ـ فزع الكثيرين، أو يحرك فيهم ردة فعل ما، بل هناك من انحاز إلى الجانب المعادي ورفع عقيرته منادياً بضرورة الأخذ بالثقافة الغربية والانسجام معها، ناسياً أنّ ذلك يعني الانسحاق الثقافي والانتحار الحضاري، والنهاية الحقيقية لهذه الأمة الّتي علا نجمها بتوحيد الله وعدم الإشراك به سبحانه،

تشويه العقيدة الاسلامية

وبناءً على ذلك فقد توصل الغرب إلى قناعة بضرورة تشويه العقيدة الإسلامية، وتهشيم الفكر وسحق الثقافة الإسلامية، ولكن ليس عن طريق الغزو المسلّح ـ كما فعل خلال حرب الصليب ـ، ولا عن طريق الإخضاع السياسي والاقتصادي المباشر ـ كما كان عليه حال البلدان الإسلامية في العهد الاستعماري ـ؛ بل عبر عملية غزو فكري ثقافي منظمة ومدروسة لا تثير ردود فعل واضحة ومحسوسة وتمتلك رصيداً عظيماً من النجاح، لاسيّما إذا رافقتها حالة تأنّ وصبر وعدم استعجال في قطف ثمار النصر المرجو.

وكان البيان الأول في هذا الغزو الجديد التشكيك في الدّين الإسلامي، وتشويه صورته الناصعة، ورسم علامات الاستفهام حول القيم والمفاهيم الإسلامية، والتأكيد من جانب آخر على المثل الغربية والبناء الحضاري الغربي الجديد، وما قطعه الغرب من أشواط علمية بعيدة، وتطور تقني هائل، يعني في جملة ما يعنيه وجوب التجدد والتحديث والانفصام عن الماضي السحيق الّذي لم يعد الالتزام بمفرداته منسجماً مع الحالة العصرية الراهنة؛ بل إنّ الالتزام بها يعني الرجعية والتخلف عن مواكبة عجلة التطور وحركة العلم!

وكان تركيز عملية الغزو الجديد على أبناء الإسلام الدارسين في الجامعات والمعاهد الغربية، حيث تمكنت من إجراء عملية غسل أدمغة للكثيرين منهم، فعادوا إلى

بلدانهم محملين بالأفكار الغربية ومكتسين بثقافة الغرب المتعارضة مع الثقافة الإسلامية، فكانوا يداً ولساناً وقلماً لعملية الغزو الفكري الحضاري، وحلقة مهمة من حلقاتها؛ لكونهم في تماس مباشر مع المجتمع الإسلامي، ولتعاملهم مع الشرائح المثقفة في غالب الأحيان، لا سيما طلبة الجامعات، ممّا يعني توفر الشروط
الموضوعية اللازمة لنجاح عملهم في النيابة عن القائمين على عملية غزو المسلمين فكرياً وثقافياً

وراح هؤلاء المتغربون يضمون أصواتهم إلى أصوات الغرب، ويلهجون بما تلقوه من تلقينات في وجوب الانسلاخ عن الثقافة الإسلامية وارتداء جلابيب الثقافة الغربية، وقطع أية صلة ثقافية وفكرية بالإسلام، خاصة وأن الإسلام ـ من وجهة نظرهم ـ ليس إلاّ طقوساً عبادية وشعائر لا تتعدى إطار علاقة ثنائية بين المسلم وربّه !!

وأخذ هؤلاء يثيرون ـ وطبقاً للإيحاءات الغربية ـ قضية التناقض بين الدين والعلم، والماضي والحاضر، ويثيرون سلسلة من الاشكالات على القرآن الكريم والسنة النبوية، ويطرحون المؤاخذات على كل ما له صلة بالإسلام؛ كالفقه الإسلامي والتفسير الإسلامي ومختلف النظريات والطروحات الإسلامية، والتأثير على نقاط الضعف والقضايا السلبية الّتي يحملها التاريخ الإسلامي، والّتي هي في معظمها مدسوسة

معالم الصراع الفكري في العالم العربي

يعد سؤال الهوية من الأسئلة المحورية في الفكر العربي المعاصر، وقد شغل هذا السؤال كثيرًا من مداولات وسجالات المفكرين العرب، وأدخلهم إلى ميادين الصراع الفكري، وقسّمهم إلى فئات متنازعة حول الأصول الفكرية والمعرفية التي ينبغي أن تحكم مسيرة النهضة والتنمية، والخروج من كهف التخلف ومن ظلمات التيه.

وأخذ الصراع الفكري أشكالاً متعددة ، ومر بمراحل مختلفة في العالم العربي في فترة العصور الحديثة ، لكنه وصل اليوم مع العولمة إلى مرحلة متقدمة جدًا تمتاز بوجود أمريكي مهيمن على العالم، وحداثة غربية تنتقل وتسود بشكل كبير - مع تطور ثورة الانفوميديا -.

و يجد الفكر الإسلامي اليوم نفسه أمام تحديات كبيرة في عدة مستويات: مستوى نقد الحداثة الغربية، ومستوى مواجهة ظواهر التشدد والانغلاق والجمود الفكري في الداخل، ومستوى صوغ استراتيجية فكرية تدفع بالإنسان والمؤسسات في العالم العربي إلى المضي بفعالية و قوة في مشروع النهضة والتنمية وتجاوز مرحلة الانكشاف الحضاري السافر الذي وصلنا إليه أمام الآخر، والخروج من الفجوة الكبيرة بين حالتنا الحضارية ورصيدنا الحضاري الكبير..

واجه الفكر الإسلامي هذا التحدي والصراع الجديد من خلال مجهودات ركزت على نقد الأسس الفكرية والمعرفية للحداثة الغربية وتصوراتها العامة في كافة مجالات الحياة، وبرزت في هذا السياق مساهمات أبي الأعلى المودودي في أغلب كتبه، وأيضًا الشهيد سيد قطب ، وأخيه الأستاذ محمد قطب خاصة كتبه : "مذاهب فكرية معاصرة" ، "الإنسان بين المادية والإسلام" ، "جاهلية القرن العشرين" ، وكُتب يوسف القرضاوي ومنها "الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا" ، وكُتب الشيخ محمد الغزالي .

الفكر الإسلامي و العولمة

في حوار سابق مع زكي ميلاد حول أحداث أيلول وأثارها على الفكر الإسلامي، قال: إن على الفكر الإسلامي اليوم أن يعيد بناء رؤيته الشمولية للكون وللمفاهيم الكبرى، ويصوغ من جديد استراتيجية الخروج من النفق الحضاري الذي وصلنا إليه.

و يرى الفضل شلق في مقالة له - في مجلة الاجتهاد - أن الهوية الحضارية ليست دورانًا حول الذات، وإنما عملية دؤوبة نحو تحقيق الذات من خلال النمو والتنمية، وعندها ستصبح الهوية الحضارية منجزاً وليس عائقًا.

وبالتالي؛ فإن الفكر الإسلامي في عصر العولمة مسؤول مسؤولية مباشرة عن طرح الرؤية الاجتهادية الإسلامية في التنمية والنهضة والتقدم، وإدارة الصراع الفكري ليكون جدلاً محركًا ومفعلاً لطاقات الأمة وليس كابحًا لها .

عود على بدء

لقد ذكرنا فيما تقدم أعلاه معنى التدين ومفهومه الحقيقي ثم تطرقنا الى شرح العوامل التي ساهمت في تغيير مفهوم الاسلام وتحوله الى (اسلام جديد , حديث) يهتم أتباعه اليوم بأداء الطقوس والعبادات بصورة شكلية لا تمثل جوهر الاسلام وحقيقته كدين عقائدي يقوم على التوحيد .

وهذا التغيير في السلوك الديني ومساوءه وأسبابه وضعف الوازع الديني قد نبه لها القرآن الكريم كما تنبأ به رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام .

فمن الايات القرآنية نذكر :

(إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ)[الرعد: 11]. وهو قانون الله في التغيير لكن هذا التغيير في الأفراد والأمم في الكون، ليس خبط عشواء، إنه يسير وفق ناموس وقاموس إلهي .

وهذه سنة ثابتة لا تتخلف، فالله يرفع أقواماً ويضع آخرين، ويرزق نعماً، ويحرم أخرى، ويغني قوماً، ويفقر آخرين، ويقوي أناساً، ويُضعف آخرين، وهكذا..

لا يمكن الانتقال من وضع إلى وضع إلا بسبب، وقانون الله لا يحابي أحداً، فإذا غير الناس، إذا غير المجتمع حاله، غير الله عليهم، ونفذت سنته فيهم، فحدوث التغيير من الله مترتب على حدوثه من البشر، إن حسناً فحسن، وإن سوءً فسوء، وقد ذكرت الآية تغيرين:

التغيير الأول: يُحدثه الله: إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ [الرعد: 11].

والتغير الثاني: يحدثه الناس: حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ[الرعد: 11].

وهو في الحقيقة يكون إلى الأحسن ويكون إلى الأسوء، فالله يغير ما بقوم من الهزيمة والضعف إلى نصر وتمكين إذا غيروا ما بأنفسهم من بعد عن دينه، إلى تمسك بدينه، والعكس بالعكس، فهم الذين يختارون لأنفسهم، ويتحملون النتيجة والمسؤولية.

والنعم والنقم، والخيرات والويلات، لا تتأتى هكذا مصادفة عفوية دون سبب، وإنما هي منوطة بأسباب، وأحوال معنية .

وقال رسولنا الكريم محمد عليه الصلاة والسلام : (يأتي زمان على أمتي القابض على دينه كالقابض على جمرة من النار) حديث حسن

أنه يأتي عليه من البلايا والمحن والفتن التي تؤذيه وتضره، ما يكون فيها معها كالقابض على الجمر، من شدة صبره على دينه وعلى إيمانه وثباته عليه، كأنه قابض

على الجمر من شدة ما يصيبه من الآلام والشدائد في ذلك، وقت الفتن وقت الأذى من الأعداء، والعياذ بالله.

وهذا واقع، فينبغي للعاقل إذا بلي بهذا أن يتصبر، فكم بلي بهذا في أوقات الفتن، وفي الحروب، وفي غير ذلك ممن مضى قبلنا وفي وقتنا.

فالحاصل: أن من ابتلي في أي زمان عليه أن يصبر، قد يبتلى ممن يمنعه من الصلاة، أو يؤذيه إذا صلى، قد يبتلى بمن يؤذيه إذا صام فليصبر، يصوم ولو سرًا، فإذا أوذي في ذلك لا يضره، وكذلك يصلي، ولو أوذي يصبر ويتحمل، ولا يدع الصلاة،

الشكوى من ضعف الإيمان شيء معتاد عند الملتزمين بدينهم وتلك ظاهرة صحيّة إذا تجاوزت حالة التشكي إلى تشخيص الداء وتحديد أعراضه ومواجهته بالدواء المناسب.

والإيمان محله قلوب العباد وهو تبعا لذلك يزيد وينقص ويقوى ويضعف ويحيا ويموت وهذا ثابت بالقرآن والسنة والتجربة.

قال الله تعالى: (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيّكم زادته هذه إيمانا فأمّا الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون وأمّا الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون) - سورة التوبة124.

فالآية صريحة في زيادة الإيمان وفي أن محلّه القلب فدلّ ذلك بداهة على أن الزيادة يقابلها النقصان بسبب (مرض القلوب).

وهذه أهم الأعراض والمظاهر التي يستطيع المؤمن أن يعرف من خلالها أن في إيمانه ضعفا فيبادر إلى تقويته وتغذيته.

1- التمادي في المعاصي والإصرار على الذنوب:

لا تكمن المشكلة في ارتكاب الخطإ والوقوع في الخطيئة فهذا شيء ملازم للبشر الإنسان خطّاء والله تعالى عفوّ غفور رحيم لكنّها تكمن في استمراء مخالفة أمر الله تعالى ونهيه والتعوّد على ذلك والتمادي في الانحراف والإصرار على الذنب وهذا دليل على ضعف الإيمان المستند إلى قلب مريض لأن قويّ الإيمان كلما استدرجه الشيطان إلى شرود عن صراط الله المستقيم استفاق وسارع إلى الرجوع إلى حياض الدين تائبا منيبا مستغفرا:

قال الله تعالى: (إن الذين اتقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكّروا فإذا هم مبصرون) - سورة الأعراف.201

وقال عن المتّقين ذاكرا بعض صفاتهم: (وإذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون) - سورة آل عمران 135.

إن المتعامل بالرشوة مثلا يألف هذه المعصية ويعايشها يوميا فلا يحسّ بوخز النّدم أو تأنيب الضمير فيصاب في إيمانه الذي لا يجد حينذاك ما يتدارك ضعفه ويقوّيه ويحدث نفس الشيء للمرأة غير المحجّبة التي تعتاد التبرّج حتى تنسى أنه حرام فماذا يفيد هؤلاء الصلاة أو الصيام أو الصدقة؟

2 التكاسل في أداء العبادات:

من المفروض أن المؤمن يتلذّذ بعبادة ربّه فهو يسارع إليها بهمّة ونشاط ممتثلا أمر الله تعالى: (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم...) - سورة آل عمران133.

(وسابقوا إلى مغفرة من ربكم...) - سورة الحديد 21

لكن ضعيف الإيمان يقوم إلى العبادة كأنها عبء ثقيل ينوء بحملها: (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا) _ سورة النساء 142.

فليعلم من وجد هذا التكاسل في نفسه أنه قد أصيب في إيمانه فليبادر إلى معالجة الوضع وتجديد الإيمان.

3 . عبادات لا تأثير لها:

للعبادات المختلفة تأثير نفسيّ وسلوكيّ على المؤمن لها حلاوة يجدها في قلبه كما أنّها تغيّره نحو الأحسن في علاقته بالله والناس فإذا ضعف الإيمان تلاشى هذا التأثير وأصبحت العبادات طقوساً باردةً وأشكالاً لا حياة فيها فالصلاة ـ في هذه الحالة ـ لا تقرّبه من الله ولا تنطبق عليه الآية الكريمة (فاسجد واقترب) ـ سورة العلق 19 - كما أنّها لا تمنعه من الوقوع في أنواع المعاصي الخبيثة لأنّها فقدت الفعاليّة الّتي أشارت إليها الآية (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) - سورة العنكبوت 45 -.

وقد يصوم صاحب هذا الإيمان الضعيف الفريضة والنافلة لكنّه لا يحصّل التقوى الّتي هي مقصد الصيام: (يا أيّها الّذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الّذين من قبلكم لعلّكم تتّقون) ـ سورة البقرة 183ـ وإنّما يكون نصيبه من الصيام الجوع والعطش.

وقد يزكّي ماله لكن بطريقة آليّة لا روح فيها فلا ينال بذلك طهراً ولا تزكيّةً كما أشار إليهما قول الله تعالى: (خذ من أموالهم صدقة تطهّرهم وتزكّيهم بها) ـ سورة التوبة 103 ـ

فلا بد أن يحرص المسلم على العلاقة التفاعليّة بين العبادات وتقويّة الإيمان حتى ينتفع بالقربات فيتلذّذ بها في قلبه وتقوده إلى الاستقامة والصّلاح في حياته.

4 . عدم التأثّر بالقرآن الكريم:

عندما يتلو المؤمن كتاب الله أو يستمع إليه منصتاً فإن آياته تحرّك قلبه بالخشوع والخشية والرغبة والرهبة وأنواع المشاعر الإيمانية فإذا كان إيمانه ضعيفاً فإنّه يفقد الحسّ المرهف فلا يتفاعل مع الذّكر الحكيم ولا يتجاوب معه يمرّ بآيات الوعد والوعيد والأمر والنهي وكأنّه غير معنيّ بها لأنّ ضعف الإيمان نسج على قلبه غشاوة حوّلته إلى جلمود صخر لا يؤثّر فيه ذكر الجنّة والنار والنعيم والعذاب والمأمورات والمحظورات والرقائق والعظات ولو كان إيمانه قويّاً لاقشعرّ جلده وخفق قلبه وارتعدت فرائسه وسالت دموعه وانطلقت زفراته رغباً في رحمة الله الّتي تبشّر بها هذه الآيات ورهباً من عذاب الله الّذي تنذر بها آيات أخرى.

5 . عدم التأثّر بالموت والمواعظ:

تكمن قمّة الموعظة في رحلة الموت من احتضار المحتضر وبلوغ الروح الحلقوم إلى تغسيله وتكفينه والصلاة عليه ودفنه وإهالة التراب عليه وكلّها مواقف جديرة بخلخلة المؤمن الّذي يشاهدها لأنّها تذكّره بمصيره القريب فيكون أدنى إلى رقّة القلب والرجوع إلى الله فإذا أصيب إيمانه بالضعف مرّ بهذه المشاهد باهتا - ولعلّه يضحك - كأنّه غير معني بها أو هي بعيدة عنه وقد قيل (من لم يتّعظ بالموت فستكفيه جهنّم واعظاً)

وقريب من هذا ما يسمعه من دروس دينية تحرّك القلوب والأحاسيس وتدفع دفعاً إلى الوثبة الإيمانية والتوبة النصوح قال تعالى: (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) ـ سورة ق 37 ـ

إذا لم يتفاعل المسلم مع عظة الموت والدرس فليسأل نفسه أحيّ هو أم أنه في عداد الموتى ولو كان يدبّ على الأرض؟

6 . الغفلة عن الله:

ممّا يضعف الإيمان في القلوب ويكاد ينسفه نسفاً الانغماس في المشاغل الدنيويّة واللهث وراء الغايات المادية إلى درجة الغفلة عن الله تعالى وحقوقه ويوم لقائه هذه العبودية للحياة الدنيا سبب لضعف الإيمان من جهة ونتيجة له من جهة أخرى يترتّب عنها التحوّل من عبد لله إلى عبد للعاجلة: (نسوا الله فنسيّهم) - سورةالتوبة 67 - والتعلّق بالدنيا غير الاشتغال بها فهذا ضروري وواجب للفرد والمجتمع بينما التعلّق هو حصر الاهتمام في الدنيويات وتغافل عن الدين والمصير ونستطيع ملاحظة ذلك في تعلّق القلب ـ وليس اليد ـ بالمناصب ومزيد من المشروعات التجاريّة وبكرة القدم ونحو ذلك بحيث لا يذكر الإنسان ربّه ـ إن ذكره ـ إلاّ عرضاً وقليلاً كأداء صلاة الجمعة مثلاً ولهذا أمرنا الله تعالى بالإكثار من الذكر ليحدث التوازن المحمود في أنفسنا ودنيانا بين المطالب الحياتية والواجبات الدينية:

(يا أيّها الّذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيرا وسبّحوه بكرةً وأصيلا) _ سورة الأحزاب _41-42.

7 . عدم الاهتمام بأمر المسلمين:

يترتّب عن ضعف الإيمان التقوقع على الذات وعدم المبالاة بأمور المسلمين فلا يهتمّ المؤمن حينئذ بمعاناة إخوانه المسلمين من الاحتلال الأجنبي والتسلّط الصهيوني والظلم السافر والفقر المنتشر ونحو ذلك من المصائب لا يلتفت إلى معاناة المسجد الأقصى- فضلا عن أن يفكّر في تحريره - ولا حصار غزة ولا دماء الأبرياء في أكثر من مكان إلى جانب قضايا المسلمين المصيرية .

وبعد فبعلاج هذه المظاهر يقوى الإيمان في القلوب وتستقيم حياة المسلم. أمر الله تعالى: وسارعوا إلى مغفرة من ربكم.

تساؤلات مشروعة

كيف انحسر مفهوم الإسلام في نفوسنا إلى هذا الحد ؟؟

كيف انحسر من مفهوم شامل للحياة البشرية في جميع اتجاهاتها ، بل مفهوم شامل - في الحقيقة - للكون والحياة والإنسان ، لكي يصبح مجرد عبادات تؤدى على نحو من الأنحاء ، بل لا تؤدى أحياناً إلا "بالنية" .. بل لا تؤدى أحياناً على الإطلاق ، لا بالنية ولا بغير النية .. ثم يظل يدور في أخلادنا - مع ذلك - أننا مسلمون صادقو الإسلام ؟

كيف انحسر من دستور شامل يحكم الحياة البشرية كلها وينظمها : يحكم اقتصادياتها واجتماعياتها ، ومادياتها وروحانياتها ، وسياستها وأفكارها ومشاعرها ، وسلوكها العملي في واقع الحياة ، لكي يصبح مجرد مشاعر هائمة لا رصيد لها من الواقع .. مشاعر تدور في نفس صاحبها - إن دارت - وهو يعيش في مجتمع غير مسلم ولا يستنكر الحياة فيه ولا يحاول تغييره . وتدور في نفسه - إن دارت - وهو ذاته لا يسلك سلوك المسلمين في حياته الخاصة ولا العامة . فتقاليده غير إسلامية ، وأفكاره غير إسلامية ، وتصوراته غير إسلامية ، وسلوكه اليومي لا يمت بصلة إلى الإسلام ، سواء في علاقة الفرد بالفرد أو الفرد بالجماعة أو الفرد بالدولة ، أو علاقة الرئيس بالمرءوس ...

كيف انحسر من حياة كاملة قائمة على مبادئ الإسلام وأفكاره ومثله وسلوكه الواقعي ، تشمل الدنيا والآخرة والأرض والسماء والحاكم والمحكوم والرجل والمرأة والأسرة والمجتمع ، لكي يصبح جزئيات مبعثرة لا رابط بينها ولا دلالة فيها ، كالرقعة الشائهة في نسيج غير متناسق الأجزاء ؟

كيف نبتت تلك الأفكار العجيبة التي تقسم الإسلام مشاعر من ناحية وسلوكا عمليا من ناحية أخرى ، ثم تفصل بين هذه وتلك ، وتتصور أن المشاعر وحدها يمكن أن تكون إسلاما بمعزل عن السلوك ؟!

كيف دار في أخلاد المسلمين أنهم يستطيعون أن يستوردوا اقتصادياتهم من أي نظام على وجه الأرض غير إسلامي ، ويستوردوا أصول مجتمعهم وقواعده من أية فكرة على وجه الأرض غير إسلامية ، ويستوردوا تقاليدهم من أي مجتمع على وجه الأرض غير مسلم ، ثم يظلوا مع ذلك مسلمين ؟!

كيف أمكن أن يتصور المسلم أنه يستطيع أن يخالف تعاليم ربه في كل شيء ، ويخون أماناته كلها ، فيغش ويكذب ويخون ويخدع ، ويتجاوز المتاع المباح إلى المتعة المحرمة ، ويقبل الذل والمهانة حرصاً على هذا المتاع ، ويخلي نفسه من تبعة إقامة المجتمع المسلم سواء بسلوكه الذاتي أو بالدعوة إلى ذلك المجتمع ، ويشارك بذلك كله في إقامة مجتمع غير مسلم ، قائم على الظلم والانحراف والمعصية .. ثم

يتصور بعد ذلك أن بضع ركعات في النهار - مخلصة أو غير مخلصة - يمكن أن تسقط عنه تبعاته أمام الله وتسلكه في عداد المسلمين ؟!

كيف أمكن أن تتصور المسلمة أنها تستطيع أن تخالف تعاليم ربها وتخون أماناته : فتغش وتكذب وتحقد وتغتاب .. وتخرج عارية تعرض فتنتها في الطريق لكل عين نهمة وجسد شهوان ، وتخلي نفسها من تبعة إقامة المجتمع المسلم ، سواء بالسلوك المستقيم في ذات نفسها ، أو بتربية أبنائها عليه ، أو بالدعوة إلى ذلك المجتمع .. وتشارك بذلك كله في إقامة مجتمع غير مسلم قائم على الظلم والانحراف والمعصية .. ثم يدور في خلدها بعد ذلك أن "النية الطيبة" في داخل قلبها يمكن أن تسقط عنها تبعاتها أمام الله وتسلكها في عداد المسلمات ؟!

من أين أتت تلك الأفكار الغريبة التي تقول : ما للدين ونظام المجتمع ؟ ما للدين والاقتصاد ؟ ما للدين وعلاقات الفرد بالمجتمع وبالدولة ؟ ما للدين والسلوك العملي في واقع الحياة ؟ ما للدين والتقاليد ؟ ما للدين والملبس - وخاصة ملابس المرأة ؟ ما للدين والفن ؟ ما للدين والصحافة والإذاعة والسينما والتلفزيون ؟

وباختصار .. ما للدين والحياة ؟ ما للدين والواقع الذي يعيشه البشر على الأرض ؟!

كيف فهم المسلمون الأوائل معنى الإسلام ؟

وكيف ينبغي لنا نحن أن نفهم معناه ؟

لا شك أن المسلمين الأوائل لم يفهموا من الإِسلام ما نريد نحن أن نفهمه في عصرنا الحاضر : أنه مجموعة من العبادات يؤديها الإنسان بمعزل عن السلوك العملي ، وأن الإنسان يستطيع أن يتجه إلى الله - مخلصا - في أثناء العبادة ، ثم يتجه لغير الله في أي أمر من أمور الحياة .

إنما الإِسلام - كما فهمه الرسول صلى الله عليه وسلم وكما فهمه عنه أصحابه وأتباعه - هو إسلام النفس كلها لله . هو أن يكون كيان الإِنسان كله متوجها إلى الله . هو أن تكون أفكار الإِنسان ومشاعره وسلوكه العملي كلها محكومة بالدستور الذي أقره الله .

لم يفهم المسلمون من شهادة : أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، أنها كلمة تقال باللسان دون أن يكون لها مدلول مستقر في أعماق النفس وفي واقع الحياة .

وإنما فهموا من شهادة : أن لا إله إلا الله ، أن الله هو المالك الوحيد لهذا الكون ، والمدبر الوحيد لكل ما يقع فيه من أحداث . وأنه هو وحده الذي ينبغي أن يعبد ، وأن تتوجه إليه القلوب بالخشية والتقوى . وأنه هو وحده واهب الحياة ومقدر الموت ، وهو وحده الرزاق ذو القوة المتين . وأن التوجه إلى غيره بالعبادة أو الخشية ، والظن بأن أحداً غيره أو أية قوة من قوى السماوات والأرض تملك للناس نفعاً أو ضراً هو لون من الشرك يستعيذون منه بالله .

وفهموا فوق ذلك من معنى لا إله إلا الله أنه وحده الذي يملك ويحكم . هو الذي يشرّع للبشر ويضع لهم قوانين حياتهم ودستور معيشتهم ، وليس أحد غيره أو أية قوة من قوى السماوات والأرض . وأن هذا الأمر قديم قدم البشرية كلها ، فقد نزل مع آدم منذ هبط آدم إلى الأرض : (قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) ( ) فهو أمر ملازم للبشرية في تاريخها كله : أن يلتزموا هدى الله ويتصرفوا بمقتضاه .. وإلا فما هم بمسلمين .

كما فهموا من شهادة أن محمدا رسول الله ، أنه - صلى الله عليه وسلم - هو الرسول المعتمد لتبليغ هذه الرسالة : هذا الهدي الذي يلتزم البشر بطاعته واتباعه ، وأنه هو المبلّغ عن ربه الذي تنبغي طاعته مع طاعة الله : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ) ( ) ، (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

وأنه - صلى الله عليه وسلم - هو التطبيق العملي الحي لرسالة السماء ، فهو القدوة في كل عمل وكل تصرف ، وهو قائد الجماعة المسلمة ومربيها ، وأستاذها ومعلمها ، والنور الذي تستضيء به في الظلمات .

ذلك كان المفهوم العام - أو الإجمالي - لشهادة ألا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله . المفهوم الذي كان الإنسان يعتبر مسلما بمجرد أن يستقر في خلده ، لأنه في

حقيقته يمثل حقيقة الإسلام ، الكفيلة - وحدها - بمجرد استقرارها في ضمير إنسان أن تحول حياته ، وتوجهه إلى الطريق السويّ .. الطريق إلى الله .

وقد تفرعت عن هذا المفهوم الإِجمالي - أو انبسطت معه بتوجيهات القرآن المفصلة وسلوك الرسول العملي - عدة مفاهيم أخرى ، كانت عميقة الغور في نفوس المسلمين الأوائل ، تنعكس في مشاعرهم وأفكارهم وتصرفاتهم ، وإن لم "يفلسفوها" كما نفلسفها نحن ، ويكتبوا فيها الكتب والمجلدات !

فهم المسلمون - بداهة - أن النية وحدها المضمرة في القلب لا يمكن أن تكون إسلاما ! وأنه ما لم تحقق هذه النية في أعمال محسوسة وسلوك واقعي ، فهي لا تساوي شيئاً في ميزان الواقع وميزان الله . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : "ليس الإِيمان بالتمني ولا بالتحلي . ولكن هو ما وقر في القلب وصدقه العمل"

النية وحدها لا تكفي .. لأنها قوة كامنة لم تتحول إلى حركة وعمل ، ولم تجرب نفسها أمام العقبات !

وتلك بديهية من بديهيات النفس وبديهيات الحياة ، كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدركها حق إدراكها وهو يقول : "ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ، ولكن هو ما وقر في القلب وصدقه العمل" . كما كان يدركها أصحابه الأوائل وهم يجاهدون ويجهدون ليقيموا أنفسهم على النهج ، ويقيموا المجتمع على قواعد الإِسلام .

ما قيمة النية الطيبة المخلصة في واقع الحياة ؟!

إن الرصيد الحقيقي لهذه النية الطيبة ، هو مقدرتها على مقاومة الهوى من داخل النفس ، والطاغوت من خارجها . فإذا لم تتحول إلى المقاومة الواقعية أو لم تقدر عليها .. فهل تزيد على فقاعة جميلة المنظر تنفثئ عند أول لمسة ، وتضيع في الفضاء ؟!

ومن أجل ذلك لم يكتف الإسلام قط بالنية الطيبة ، ولم يَتَّلَهَّ بها عن العمل المثمر في واقع الحياة .

ومن أجل ذلك لم يقل القرآن "الذين آمنوا" وإنما قال دائما : "الذين آمنوا وعملوا الصالحات" .. ما وقر في القلب وصدقه العمل ..

وكان الإسلام بذلك دين الفطرة ، لأنه يتمشى مع فطرة الكون وناموس الوجود .

وكان ذلك - كما قلنا - بديهية من البديهيات التي فهمها المسلمون الأوائل عن الإسلام .

ومن إدراكهم لهذه البديهية في المفهوم الإسلامي عملوا في عالم الواقع لتحقيق الفكرة الإسلامية ، ولم يكتفوا بالأماني الطيبة والمثل المعلقة في الفضاء .

عملوا في السلوك الفردي من ناحية ، وفي الواقع المادي للمجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية من ناحية أخرى .

لم يفهم أحد من المسلمين الأوائل أنه يستطيع أن يكون مسلما - بالنية الطيبة - وهو يخالف الإسلام في سلوكه الواقعي ، اعتمادا على أن الله "رب قلوب" وأنه مطلع على بواطن النفس ، مدرك للنوايا الطيبة المختفية وراء الأعمال !! وإنما أدركوا أن النية والعمل وجهان لأمر واحد لا دلالة لأحدهما بدون الآخر . النية الطيبة وحدها بدون عمل هي تَمَنٍّ فارغ لا رصيد له من الواقع . والعمل وحده المنقطع عن النية الطيبة ، عمل ضائع في السماء والأرض ، لأن الله لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه خالصاً - وهذا هو معنى النية الطيبة - ومقاييس الأرض ذاتها تكشف الزيف ولو بعد حين !

لم يفهم أحد من المسلمين الأوائل أنه يستطيع أن يكون مسلما - بالنية الطيبة - وهو ينساق مع هواه الذاتي في أمر من أمور الحياة ، إيثارا لمغنم قريب ، أو راحة متاحة ، أو ضنا بالنفس عن التعب والجهد والأخطار ! أو ينساق مع المجتمع - غير المسلم الذي كان يواجهه أولا - في تقاليده أو انحرافه ، إيثارا لراحة البال ، أو حرصا على المكانة والتقدير والاحترام في ذلك المجتمع ، أو صونا للنفس من أذاه ، سواء كان هذا الأذى هو الغمز واللمز والتحقير والسخرية ، أو كان الأذى المادي الذي يؤذي البدن ويحرم من القوت أو يعرض الحياة نفسها للزوال .

إنما أدركوا إن الإسلام معناه تنفيذ الإسلام في عالم الواقع . معناه أن السلوك الشخصي لكل منهم يجب أن يكون إسلاميا مهما ترتب على ذلك من الأخطار .

وأن المجتمع الذي يتألف منهم يجب أن يكون إسلامياً كذلك ، مهما ترتب على ذلك من الأخطار .

وهنا حقيقة نذكرها ..

إن النفس لا تستقيم دائما على النهج ، ولا تقدر دائما على مواجهة الصعاب .

وإنها لتضعف أحيانا عن هذا وذاك : (وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً)

والله يعلم من عباده ضعفهم ، ويقيل منهم عثرتهم ويقبل توبتهم .. ما داموا لا يصرون على العصيان : (وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ، وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ) ( ) .

ولكن هناك فرقا بين هذه الحقيقة المقررة في حياة البشرية ، وبين الظن بأن النية الطيبة وحدها تكفي للحياة وتكفي للإسلام ! .. فإنما قبل الله التوبة عن عباده وكتب على نفسه الرحمة ، للذين يجاهدون في تحويل النية الطيبة إلى عمل واقعي مثمر ، ثم يسقطون من الجهد في الطريق ، ولكنهم لا يصرون على سقطتهم ، إنما يقومون من عثرتهم ، يتوجهون إلى الله أن يقيلهم منها ، ويقبلهم في عباده .. فيمن الله عليهم بالمغفرة والرضوان : (إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً) ( ) .

ولم يفهم المسلمون الأوائل أنهم يستطيعون ان يكونوا مسلمين - بالنية الطيبة - ثم يتركوا المجتمع غير المسلم على ما هو عليه ، حتى ولو لم يجاروه في انحرافه وينساقوا معه في الانحراف .

وإنما فهموا أن معنى إسلامهم هو تحويل هذا المجتمع المنحرف إلى مجتمع مسلم يؤمن بالله ويلتزم بحدود ما أنزل الله .. وإلا فما هم بمسلمين !

وكان جهادهم كله هو حصيلة هذه الإدراك البديهي لمعنى الإسلام .

الإسلام حركة في داخل النفس وفي حقيقة الواقع .. وما كان من الممكن أن تستقر هذه العقيدة في نفوس المسلمين دون ان تتحول منها إلى واقع الحياة . وهذا هو الذي حدث في المجتمع الأول الذي نشأ فيه الإسلام . فبمجرد أن استقرت حقيقة الإيمان في نفوس المسلمين القلائل الذين رباهم الرسول صلى الله عليه وسلم وصنعهم على عينه ، أخذت الحركة تمتد من نفوسهم إلى المجتمع الخارجي المنحرف يريدون تقويمه ، وإلى النفوس الضالة يريدون هدايتها ، وإلى التقاليد المنتكسة يريدون رفعها إلى المستوى اللائق ببني الإنسان ، مهتدين في ذلك كله بهدي الله ورسوله ، والقدوة العملية المتمثلة في تصرفات الرسول .

ونجحوا .. لأنهم أرادوا ، وعملوا لتحقيق إرادتهم في عالم الواقع بعد أن حققوها في عالم الضمير ، وعندئذ كانوا مسلمين !

وكان من البديهيات التي أدركها المسلمون الأوائل أن هذا المجتمع - المسلم - ينبغي أن يقوم على شريعة الله ، وأنه لا يمكن أن يكون مسلما بمعزل عن شريعة الله .

وعلى هذه البديهية قام المجتمع الإسلامي فترة طويلة جدا من الوقت ، وكانت هذه سمته المتفردة التي يعرف بها ، ويتميز بها عن غيره من المجتمعات .

وقد أدرك هذه السمة المميزة في تاريخ الإسلام - القائمة على تلك البديهية - كل باحث في هذا التاريخ ، حتى المستشرقون ، الذين نصبوا أنفسهم ومحاولة فصل المجتمع عن الشريعة في حياة المسلمين . حتى هؤلاء المستشرقون أنفسهم أدركوا قوة هذه السمة المميزة ، وعمقها في بنية المجتمع الإسلامي وشدة رسوخها فيه .

يقول جب Gibb في كتابه "الاتجاهات الإسلامية المعاصرة Modern Trends in Islam" :

"إن نوع المجتمع الذي تبنيه جماعة لنفسها يتوقف أساساً على معتقداتها حول كنه هذا الكون وغايته ، وحول مكان النفس الإنسانية فيه . وهذه نظرية مألوفة ألفة كافية ، ولا تفتأ منابر الكنيسة ترددها أسبوعا بعد أسبوع . ولكن ربما كان الإسلام هو الدين الوحيد الذي قصد في ثبات وإلحاح إلى بناء مجتمع وفق هذا المبدأ ، وقد كانت أداته الرئيسية لتحقيق هذا الغرض هي الشريعة" .

ويقول جرونيباوم Von Grunebaum في كتابه "الإسلام Islam" :

"إن الأمر الذي اقتضى عشرات السنين من المسيحيين الأوائل لكي يدركوه قد أدركه محمد (صلى الله عليه وسلم) بعد سنوات قليلة : وهو أنه ما دامت إرادة الله قد اقتضت أن تمتد الحياة الدنيا فترة من الوقت طالت أو قصرت ، فإن جماعته (الجماعة الإسلامية) ينبغي أن تستقر فيها ، في النقاء كامل مع تعاليم الوحي المنزل . ومن ثم أصبحت مهمة الجماعة أن تنشئ نمطاً شاملا للحياة في ظل الله (أي في ظل الوحي الإلهي) يشمل كل وجه من وجوه الوجود البشري ، من أول التصور إلى الدفن (أي يشمل الأمور الفكرية والمعنوية - التصورية - كما يشمل الأمور السلوكية والمادية) ويلغي كل تمييز بين المقدس والدنيوي من مظاهر الحياة ، بجعل كل دقيقة من دقائق هذه الحياة متصلة بعضها ببعض برباط الدين ، ومحتاجة إلى مراسم (دينية) لتكملتها عند أداء أي عمل من الأعمال مهما كان نوعه . وبهذه الطريقة توحدت صورة السلوك إلى حد ما ، ولكن الحياة كلها حتى أدق تفصيلاتها أعطيت صورة سامية مستمدة من دلالتها الدينية . ولم تكن حياة الفرد وحده هي التي ينبغي أن تتحول إلى مجموعة متسقة من الأعمال التي يتطلبها الله منه ، بل إن المجتمع الإسلامي في مجموعه كان ينبغي أن يحول بالمثل : فصارت الدولة والجيش والخزانة (بيت المال) في اصطلاح المؤمنين الأوائل دولة الله وجيش الله وخزانة (بيت مال) الله" .

ويقول ولفرد كانتول سميث Wilfed Cantwell Smith في كتابه "الإسلام في التاريخ المعاصر Islam in Modern History" : في المقدمة : "وإذ كانت السمة الأولى

المميزة للعالم الإسلامي هي أنه" إسلامي "فإننا نقدم لبحثنا بمحاولة لتوضيح ما تعنيه هذه الحقيقة" .

ثم يقول في ص ٢٦ - ٢٧ في فصل "الإسلام والتاريخ"

".. لقد لاحظ الباحثون (في أمر هذا الدين) بروز وضع المجتمع في الإسلام ... ومن البيّن أن المجتمع الإسلامي ذو تماسك ملحوظ ، وأن ولاء أعضائه وترابطهم عظيم القدر . وقد أدرك كثيرون أن الجماعة (الإسلامية) ليست مجموعة اجتماعية فحسب ، بل مجموعة دينية . وأن" الدين والدولة "أمر واحد إذا استخدمنا تعبيرنا الغربي غير المناسب .. إن المجتمع الإسلامي لا يترابط بعضه مع بعض - كالمجتمعات الأخرى - بمجموعة من الولاءات والتقاليد فحسب ، وبنظام متقن السبك من القيم والعقائد . ولا هو نتاج مثل أعلى رفيع فحسب ، بل إنه ينبض بالحيوية الناجمة عن اقتناع شخصي عميق ، اقتناع ديني له حرارته ودلالته في نفس كل عضو من أعضائه . ونستطيع أن نقول إن هذا المجتمع - هذه الجماعة - هي التعبير عن المثل الأعلى الديني ، مستخدمين كلمة" ديني "بالمعنى الفردي الذي سبق شرحه . وإذا كانت عقيدة ما أو نظام ثيولوجي (قائم على أساس ديني) يمكن أن يكون تعبيرا عن الصورة العقلية للاعتقاد الشخصي - كما هو الشأن في كثير من الحالات ، وفي المسيحية بصفة خاصة - فإن النظام الاجتماعي بما يحويه من ألوان النشاط المختلفة هو التعبير - في صورة عملية - عن الاعتقاد الشخصي للمسلم" .

ولا نحتاج أن نمضي طويلا في اقتطاف النصوص أو تتبعها عند المستشرقين ، فقد أبرزوا كلهم هذه السمة الواضحة في المفهوم الإسلامي والتاريخ الإسلامي : وهي أن المجتمع الإِسلامي منبثق من العقيدة الإِسلامية وقائم عليها ، بحيث لا يمكن فصل المجتمع عن العقيدة ، ممثلة في سلوك عملي مستمد من التشريع الشامل الذي يأخذ كل منحى من مناحي الحياة .

وقد كانت تلك - كما أسلفنا - بديهية من بديهيات المفهوم الإِسلامي عند المسلمين الأوائل ، فلا إسلام بغير مجتمع مسلم ، ولا إسلام بغير جهد واقعي - من كل فرد مسلم - لإقامة المجتمع على أسس مستمدة من شريعة الإسلام .

وكان من بديهيات هذه الإِدراك كذلك ان الشريعة الإِسلامية شيء شامل ، يشمل كل نشاط الإِنسان على وجه الأرض .

لم يفهموا أن التشريع الإسلامي يقتصر على العبادات وحدها . أو على "الأحوال الشخصية !" من زواج وطلاق وعتاق وإرث فحسب . وإنما فهموا أنه يشمل كذلك كل "المعاملات" التي يمكن أن تنشأ في المجتمع ، ما دام هذا المجتمع مسلما - أي قائما على أسس إسلامية - وما دام هذا المجتمع هو التعبير المباشر أو الانبثاق المباشر للفكرة الإِسلامية في عالم الواقع والعيان البيع والشراء والملك والرهن والإجارة والدين .. وكل المعاملات "المدنية" أو "الاقتصادية" بين الفرد والفرد أو بين الفرد والمجتمع أو بين الفرد والدولة ، يشرع لها الإِسلام ، وتقوم على أساس

من هذا التشريع . فيحل البيع ويحرم الربا ، ويحرم الاحتكار ، ويحرم الغصب والسلب والنهب والغش والجور ، ويحرم تكديس الأموال في أيدي فئة من الأغنياء وحبسها عن بقية المجتمع ، وتؤدي أموال الزكاة وتنفقها الدولة في مصارفها المنصوص عليها ، وتحدد موارد لبيت المال وقواعد لتوزيع المال بين الناس . وتقوم من ذلك كله قواعد للعدالة الاجتماعية يحددها كتاب الله وسنة رسوله ، وتلتزم بها الدولة لتكون دولة مسلمة .

وسياسة الحكم ، وكل ما يترتب عليها من علاقات الفرد بالدولة والدولة بالفرد ، تحددها نصوص القرآن وروحه ، وتحددها سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم تحددها الجماعة المسلمة من وحي هذه وتلك . فيُنَصّ على مبدإ الشورى . وعلى طاعة الله وطاعة الرسول ، وطاعة أولي الأمر المستمدة من طاعتهم لله والرسول كما حددها الخليفة الأول أبو بكر في صراحة حيث يقول : "أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم" وهو قول مستمد من نص حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق" .

والتشريع الجنائي له نصوص محدودة واضحة تلتزم الجماعة المسلمة بتنفيذها ، في حد القتل والزنا والسرقة والخمر والردة والإفساد في الأرض .. وفيما دون الحدود .. ملتزمين كذلك بالشروح النظرية والعملية التي تحتويها السنة ، من مثل : "ادرءوا الحدود بالشبهات" وقبول الفرد المجرم الذي يوقع عليه الحد فردا عاملا في المجتمع

المسلم بمجرد توبته وإعلانه الإقلاع عن جريمته ، وعدم تعبيره بها ولا قفل سبل العيش الشريفة أمامه من أجلها .

وتقاليد المجتمع وآداب السلوك وآداب الجنس تحددها كذلك تشريعات الإسلام وتوجيهاته ، فَيُنَصّ على أن السلام والإخاء والتعاون والمودة والبر هي سمات المجتمع المسلم المتصل بالله . وتُحَدّد طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة في المجتمع المسلم تحديداً صريحا واضحاً يشمل كل علاقات الجسد والروح ، ويُبيّن ما تلبسه المرأة وما لا تلبسه وما تبديه وما تخفيه . وتبين آداب الجنس بما يحفظ نظافة المجتمع في ذات الوقت الذي ترضي فيه الفطرة السليمة وتشبع كل نوازع الحياة المستقيمة .

وهكذا تشمل الشريعة كل أمر من أمور الحياة .

وقد فهم المسلمون الأوائل من التشريع الإلهي أنه المصدر الدائم للحياة . وأنه لا مصدر سواه - ولا يمكن أن يكون مصدر سواه - لتنظيم الحياة البشرية على الأرض .

أنواع التدين الاسلامي الشكلي

تبدو ظاهرة التدين الاسلامي الشكلي في الوقت الراهن بعدة مظاهر وأنواع ويمكن تصنيفها في ما يلي :

أولا : التدين الفردي .

ثانيا : التدين الجماعي

التدين الحركي

التدين السياسي

التدين الطائفي المذهبي

أولا

ظاهرة التديُّن الفردي

لقد أحدث التدين الفردي موجة من التحولات في المشهد العام بالمنطقة العربية-الإسلامية، إذ إن هذا النمط من التدين قد عمل على تجاوز الكثير من الترسُّبات في أشكال التدين، خصوصًا تلك الترسُّبات المتعلقة بالمجال العام وبعلاقة الدين بالديمقراطية. هذا علاوة على أن هذا التوجه قد جاء نتيجة رد فعل على التناقضات والتوترات التي عاشتها حركات الإسلام السياسي، وهو توجُّه يعمل على ربط الدين

والحقوق والعقائد بالحريات، والإسلام بالتحرر. وهذا يعني أن موجة التدين الفردي أصبحت تُمثِّل جوابًا عن إشكاليَّات لم تُجِبْ عنها حركات الإسلام السياسي من قبل، أو أن إجابتها لم تكن وفق منظور شمولي وناضج، مما أفسح المجال لظهور دينامية تجديدية لأشكال التدين، ومن بينها مظهر التدين الفردي.

بالتزامن مع ذلك، فإن من بين المظاهر الكبرى التي نعتقد أنها تُمِيِّز ظاهرة التدين الفردي، هو بروز مظهريْن من التدين :

الأول : الميل التعصب والتخندق، لما يُغذيه من خطاب هُوِيَّاتي عزيز على النفس وأثير عندها، وما يلقيه في «المستهلك» من صور ونماذج تحنُّ لماضٍ مجيد .

الثاني: ، وهو بروز القيم الاستهلاكية الدينية

وانطلاقًا من هذه المقدمات الأولية، نتساءل: ما هي المقتربات المنهجية والنظرية لفهم حجم التحولات التي طالت الحقل الديني في المنطقة ؟

كيف يمكن تقديم تفسير «مُطابق» لبروز مفهوم التدين الفردي ؟ وهل يُشَكِّل مرحلة فارقة بين أنماط التدين التي عرفتها المنطقة؟ ما تأثير ضعف الثقة في المؤسسات الدينية الرسمية وحركات الإسلام السياسي في بروز هذه الظاهرة؟ وأخيرًا، ما هي التجلِّيات الكبرى لظاهرة التدين الفردي؟ وكيف يمكن قراءة تبعات هذه الظاهرة في مستوييْن اثنين: سَلْعَنة الدين ورَدكَلَتِه ؟ سنحاول في هذه

المبحث أن نناقش هذه الأسئلة وغيرها، منطلقين من إطار منهجي ونظري يمتح من التراكم النظري في سوسيولوجيا الأديان.

الفرضية المركزية لنشوء ظاهرة التدين الفردي

مفاد هذه النظرية أن ظاهرة التدين الفردي برزت نتيجة عدة عوامل خارجية (عولمة الظاهرة الدينية)، وأخرى داخلية: ارتفاع الرأسمال المعرفي، وفقدان الثقة في المؤسسات الدينية الرسمية وحركات الإسلام السياسي، وبروز الإعلام الديني عبر الفاعلين الجدد (الدعاة الجدد). وكل هذه العوامل والعلاقات ليست من النوع البسيط، بل إنها تُشكِّل (علاقة تبادلية) وليست علاقة السبب بالنتيجة. بمعنى آخر، إنها تتجاوز ذلك للحديث عن علاقات تفاعلية وتجاذبية بين بروز ظاهرة التدين الفردي، ومفارقات العلمنة، والتدين في العالم المعاصر.

ولقد توصل «كليفورد غيرتز» عندما درس الدين في كلٍّ من المغرب وإندونيسيا، إذ توصل إلى أن هناك اختلافًا بين التدين المغربي والتدين الإندونيسي، فالأول يتميز بالصلابة والقوة، بينما يتميز الثاني بالروحانية والتوفيقية، حيث يقول: «إسهام علم الاجتماع الديني المقارن بالفهم العام للأبعاد الروحية للوجود الإنساني وتعرية طبيعة هذه الصلات الإمبريقية. والأسباب المادية التي أدت إلى جعل إسلام المغربي إسلامًا نشيطًا وقويًّا وعقائديًّا وإنسانيًّا لدرجة ما، بينما جعلت إسلام

الإندونيسي إسلامًا توفيقيًّا وتأمليًّا وتنوعيًّا تعدديًّا وظواهريًّا بصورة لافتة للنظر، إنما تقع في نوعية الحياة الجماعية التي عاش وترعرع فيها وعلى رأسها كلا المسلمينْ»

ولقد توصل «إرنست غيلنر»، وصاغ النماذج التدينية -التي درسها من خلال تجربته البحثية- في أربعة نماذج: أصوليون، وراد كاليون اجتماعيون، ومحافظون تقليديون، وأخيرًا، معتدلون .:

المشهد الديني بالمنطقة العربية-الإسلامية وبروز نماذج تدينية جديدة

ولعل المثير للجدل هو أن العديد من الباحثين العرب عملوا على استلهام هذه النماذج بنوع من التماهي معها، دون القدرة على الدخول في نقاش نقدي. وهو ما نجده مثلًا عند الباحثينْ «عبد الباقي الهرماسي» و«حليم بركات»، حيث توصل هذا الأخير إلى أن: «الدين الرسمي يسود في المدن، بينما يسود الدين الشعبي في الريف (وخاصة في المغرب العربي ومصر والسودان، وإن كان واسع الانتشار في مختلف المجتمعات العربية الأخرى). وأن التصوف تجربة روحية خاصة ذات صلة وثيقة بردة الفعل لوجود ميل واضح إلى الإغراق في المجردات والماديات، ونتيجة حصول فجوات عميقة بين الطبقات الاجتماعية، يرافقها إحساس بالعجز والاغتراب» . وهناك عدة نَمْذجات دينية برزت مع التحولات التي طالت الحقل الديني؟

استكمالًا لما سبق عرضه، وبالرجوع إلى نتائج البحث يمكن القول بأن الخريطة الدينية ومن خلال انتهاج المقاربة النسقية في معالجة قضية القيم الدينية- تتميز بوجود سبعة أنماط من التدين وهي:

«التدين الرسمي، والتدين التقليدي/الشعبي، والتدين الطائفي، والتدين الحركي، والتدين الأنثوي، والتدين الفردي، وأخيرًا، التدين الحضري. وتجدر الإشارة إلى أننا لا يمكننا أن نجزم بأن هذه الأنماط هي الوحيدة الممكنة؛ إذ إن أغلب المتدينين يندرجون في أحد هذه الأنماط، أو من خلال المزج بين نمطين أو أكثر عن طريق ما يسمى بالتوفيق/التلفيق ، أو حتى من خلال المزج بين التقيُّد على المستوى الطقوسي، والتوتر على المستوى السلوكي. ولهذا يمكننا أن نستخلص توجهًا عامًّا يتسم بنوع من استراتيجيات الازدواجية والتفاوض بين المبدأ والواقع».

ظاهرة التدين الفردي بتشكل مفهومًا جديدًا للدين الاسلامي

إن مفهوم التدين الفردي جاء نتيجة طبيعية للتحولات الكبرى التي عرفها الحقل الديني، وهو يعني أن الفرد/المسلم يصبح مرجعًا لنفسه في الاستمداد والتلقي والممارسة والتوجيه والسلوك والتمثل. حيث يسقط كل المرجيعات والسلطة الدينية، سواء أكانت تقليدية كالمسجد والأسرة والزاوية، أو حركات الإسلام السياسي، أو غيرها من المؤسسات الرسمية أو غير الرسمية التي كانت تنتج وتُعيد إنتاج القيم الدينية. ولا شك أن هذا المفهوم جاء ليحلّ محلَّ التدين الجماعي المرتبط

بالولاء للأسرة وللقبيلة وللأمة وللجماعة، وما إلى ذلك. ومن بين مميزات التدين الفردي أنه يستطيع أن يُنشِئ نموذجه التديني، بمعزل عن كلِّ المؤثرات والحيثيات والقواعد والأعراف والمؤسسات، التي كانت تشرط طبيعة التدين عمَّا سبق .

ولعل في هذا التعريف ما يتجاوز التعريف الذي وظَّفه الباحث «هاني عواد» عندما فضَّل مفهوم «التدين الشبابي» عوضًا عن التدين الفردي قائلًا: «إن التدين الشبابي مختلف جذريًّا عن التدين الشعبي، وهو مختلف أيضًا عن التدين الفردي كما عرفه التنوير الأوروبي، الذي يرى أن الدين بالأساس هو وعي أخلاقي يلزمه وجود حرية أو عدم قسر في اتخاذ الخيارات الدينية وينحصر في الحيز الخاص، فالتدين الشبابي نمط تدين منتشر في الحيز العام، ومنفلت من قبضة المؤسسات الاجتماعية فالتدين الفردي الشبابي مختلف عن التدين الشعبي، لكنه لا يختلف كثيرًا عن مفهوم التدين الفردي؛ ولهذا فإننا نرى أن نستعيض عنه بمفهوم واضح وجامع وهو التدين الفردي .

إن التدين الفردي يعيش -رغم أجواء القسر والانغلاق السياسييْن- في أجواء أو هوامش من الحرية، الشيء الذي يسمح بتوسيع فضاءات التعبير عن الذات وإبراز الأنا، بل أكثر من ذلك، مواجهة حتى أكثر الطابوهات التي كانت مسكوتًا عنها في الحقل الديني سابقًا. من ذلك حرية المعتقد والممارسات الدينية (كالتعبير في الفضاء العام عن عدم قبول صيام رمضان) والحريات الجنسية وتغيير الإرث في النظام الإسلامي، وغيرها من القضايا التي أصبحت قضايا أساسية ضمن عدة قضايا

شائكة تطالب بها الأجيال الحالية حكوماتهم ودولهم ومؤسساتهم الدينية وغيرها، سواء عبر الفضاءات الرقمية في الشبكات الاجتماعية أو عبر التعبير عنها في مؤسسات مدنية وإعلامية أو ما شاكلها. ومن ثمَّ نستخلص أن مفهوم التدين الفردي يبقى معبرًا عن نمط التدين الجديد الذي ميَّز الساحة الدينية في الآونة الأخيرة. وربما لا نحتاج إلى مزيد من التوضيح .

العوامل والأسباب المؤدية لبروز ظاهرة التدين الفردي

كما أشرنا سابقًا، فإن ظاهرة التدين الفردي لم تأت من فراغ، بل هي بناء سوسيو-أنثروبولوجي، حيث إنها تتأثر بمجموعة من الإشراطات والسياقات المتعددة والمتداخلة والمتشعبة، والتي لا يمكن الإلمام بها كلية. ولهذا سنحاول أن نستجلي بعضًا منها. لأننا على يقين أن الظاهرة الدينية -عمومًا- تنفلت من كل عملية قياس ودراسة، مهما حاولنا أن نوظِّف كل التقنيات والمخيال السوسيولوجي. ومن ثمَّ، يمكن الحديث عن عامليْن متبادلين وليس علاقة النتيجة بالسبب،

1 : فقدان الثقة في المؤسسات الدينية الرسمية،

2 : الثورة التربوية وتداعياتها على الحقل المعرفي الديني، عبر نزع احتكارها من طرف المؤسسات الدينية الرسمية.

1. في فرضية ضعف الثقة في المؤسسات الدينية الرسمية (التدين الرسمي)

يمكن القول بأن موجات الربيع العربي قد عملت على إبراز هشاشة الدولة العربية، وبيَّنت هذه الأحداث أن هذا الكيان يتميز بأربع خصائص عجَّلت بزواله أو بفقدان الثقة فيه، وهي:

أولًا: فقدان الشرعية والمشروعية في النظام السياسي،

ثانيًا: هيمنة الفساد البنيوي في كل دواليب الحكم،

وثالثًا: غياب الفعالية والإنجاز، ورابعًا: زعزعة -إن لم نقل فقدان الثقة- المشروعية الدينية. ورغم أننا لسنا معنيين باستجلاء الخصائص الثلاث الأُوَل -وإن كانت ذات أهمية في التحليل النسقي الذي نتبناه- فإننا سنتوقف عند ملمح بارز ميَّز طبيعة المؤسسة الرسمية في تعاطيها مع الحامل الديني، مع إبراز تأثيره في بروز ظاهرة التدين الفردي. فكيف يمكن توضيح ذلك؟

لفهم مستوى الثقة في المؤسسة الدينية الرسمية، يكفي أن نقف عند «طقس صلاة الجمعة» وكيف تحوَّل هذا الطقس من ممارسة عادية وروتينية إلى طقس للتعبير عن الاحتجاج والغضب في مرحلة «الربيع العربي» وفيما بعده أيضًا. بيد أن هناك بعض التجارب -المغرب تحديدًا- في المنطقة لم تذهب في المنحى نفسه، مما جعلنا نتساءل: كيف أمكن للفاعل الرسمي احتواء هذا الطقس؟ وما هي الآليات الدينية التي وظفها للحيلولة دون تحوله لطقس للاحتجاج؟

نظراً لكون الربيع العربي كشف عن المكانة الاستراتيجية لصلاة الجمعة في بعض دول العالم العربي. في هذا الصدد يقول الباحث «خليل عناني»: «فقد كانت المساجد المصرية-كما هي الحال الآن في سوريا، ومن قبل في اليمن- أماكن تنظيمية وتعبوية لعشرات الآلاف من الساخطين والغاضبين؛ من أجل التجمع والتظاهر ضد النظام المصري. وما زلنا نذكر يوم «جمعة الغضب» في 28 يناير 2011م الذي كان «عنق الزجاجة» في الثورة المصرية. وقد كان ذكاء «شباب الثورة» المصرية ووعيهم فائقيْن، حين ربطوا رمزيًّا بين التظاهر- وهو هنا فعل سياسي محض- وصلاة الجمعة، وهي طقس وواجب ديني محض. وقد كان هذا الربط المدهش سبباً قويًّا في تعبئة وحشد عشرات الآلاف من المصلين الذين لم يمارسوا السياسية يومًا، ولم يخرجوا من قبل في أي تظاهرة سياسية. ولم يكن لجوء شباب الثورة في مصر إلى هذا التكتيك -استخدام المسجد في التظاهر- إلا لإدراكهم العميق لرمزيته، وإمكانيته التعبوية الهائلة في حشد الكتلة الصامتة من المصريين»

يظهر -إذن- من هذا التحليل أن خطبة الجمعة -على الأقل في الدول التي عرفت زخمًا قويًّا للثورات الشعبية- لم تعد كما كانت من قبل، كخطبة ينام فيها المصلون ويؤدونها بدون أية معانٍّ، أو هي -في أحسن الأحوال- عبارة عن طقس روتيني متكرر. بل أصبحت فضاء عامًّا لتثوير الجماهير .

2. الثورة التربوية وتداعياتها على الحقل المعرفي الديني

إن معضلة المعرفة الدينية -التي تتسم بطابعها المركب والمتداخل مع مجموعة من الفاعلين، والرهانات والرهانات المضادة- قد أفرزت مجموعة من التداعيات، ليس أبرزها سوى ظهور حركات الإسلام السياسي بديلاً عن «العجز» الذي وقعت فيه المؤسسات الرسمية والدولية عندما عجزت عن تأطير المجتمع، وبشكل خاص الفئة الشابة منه، في مسألة حيوية وهي المعرفة الدينية، بل إن ذلك تفاعل مع عوامل أخرى، كالثورة الإعلامية والتكنولوجية، مما ولَّد إشكالات لا تقل عن سابقاتها، ولعل من أهمها: تشظي المعرفة الدينية، بحيث أصبحنا أمام عدة مخاطبين وعدة فاعلين، وعدة متدخلين في هذا الحقل. مما أدى - وسيؤدي- إلى مزيد من تعقيد الإشكالية، وإلى ظهور أشكال ثقافية هامشية ومتنوعة ومفكَّكة ومتشعبة جدًّا. وللإشارة فقد سبق للباحثيْن في سوسيولوجيا الدين: أكوافيفا، وباتشي، أن تحدَّثا عن هذه الموجة مؤكدين: «لقد انجرَّ عن التشكيك في وحدة المصادر التأصيلية للمعرفة، تولُّد تعدد في الرؤى واختلاف في الحقل الديني، التي تُرْجِمَت في تشظي الأخلاق الجماعية، حتى بات كل فرد يحاول بناءها على هواه، من خلال توظيف مصادر معرفية مختلفة، تمتد من كنيسة الانتماء فوسائل الاعلام، إلى خطاب رجل الدين والقراءات الخاصة.

وبالتالي تنامى - من جانب - في المجتمعات الصناعية المتطورة عددُ الأفراد الذين يفسرون العالم الذي يَحْيَون فيه، ويفسرون حياتهم الخاصة دون الرجوع إلى تأويلات دينية سائدة وخارجية، محددين بذلك الشكل تراجعًا هائلًا في المعرفة الدينية الشائعة. ومن جانب آخر تعمقت الهُوَّة بين من يعرف -بشكل تخصصي- محتويات ونصوص دين محدد، ومجمل المؤمنين العاديين.

وقد كان من بين أسباب هذه التحولات في المعرفة الدينية،

عدة عوامل لعل من بينها : «غياب المعايير المُسْتَدمجة من طرف الشباب والأجيال الجديدة، جرَّاء تراجع الأدوار التربوية للأسرة. وثانيًا: عدم قدرة المدرسة العمومية على تقديم تنشئة دينية متوازنة ومطابقة، وثالثًا: تراجع المجتمع ككل في إمداد الأجيال الجديدة بتربية دينية معاصرة.

ولا شك أن هذه الأزمة المعرفية خلقت وستخلق وضعًا متشابكًا ومعقدًا في الآن نفسه. وهو المُتمثّل في فتح المجال لبروز العديد من التحولات والمظاهر، لعل من بينها بروز عقلنة وترشيد للمعرفة الدينية، مما فتح المجال واسعًا أمام انتشار ظاهرة التدين الفردي عبر بوابة الدعاة الجدد.

وثانيًا: -وهو الأهم- نزع القداسة عن المؤسسات الدينية الرسمية وحركات الإسلام السياسي، والأسرة والمسجد وكل أشكال التنظيمات الدينية والتربوية التي تعمل على إنتاج وإعادة إنتاج القيم الدينية.

وعليه، يمكن القول -بنوع من النسبية- إن الحقل المعرفي الديني لم يكن ليبقى معزولًا عن مختلف التحولات القوية التي وقعت في مجموعة من الحقول. حيث إن الانفتاح والتعدد والغنى الذي أصبحت تُرَوَّج به المعارف والرؤى والقيم الدينية عبر مختلف الوسائط، سيؤدي إلى حدوث نوع من التشظي المعرفي، وسيُعقِّد مهمة كل المتدخلين والفاعلين في محاولة تقديم أجوبة عن هذا التحول السريع والمتقلب. وقد زاد من حجم الصعوبة التدفق الإعلامي عبر الفضائيات والشبكة العنكبوتية اللَّتين خلقتا جيلًا جديدًا من أشكال سبل ترويج المعرفة الدينية، ومخاطبين عولميين ومضامين عابرة للقارات والمجتمعات والخصوصيات، مما بدأ يطرح معه مفهوم «الأمن المعرفي الديني» على غرار «الأمن الروحي». وحتى لا نكون مجازفين تجاه هذه المعضلة، فإن ذلك لا يمنع من معاينة تحولات كثيرة خلقتها هذه الطفرة الإعلامية والتكنولوجية في مجال المعرفة الدينية، ليس أقلها إزاحة الهيمنة والاحتكار على إنتاج وإعادة إنتاج المعرفة الدينية .

تجليات ظاهرة التدين الفردي ومظاهرها

سَلْعَنة التدين

لعل من بين الملامح الكبرى التي برزت في طبيعة التدين بالمنطقة، هو بروز النزعة الاستهلاكية الدينية، وذلك من خلال التخلي عن كل المرجعيات الكبرى، والنظرة الشمولية في التغيير والتأثير، وتبني مقاربة تكنوقراطية خالية من كل أيدولوجيا، وذلك جرَّاء السيولة الكبرى للمفاهيم العولمية، مثل «البراغماتية»، و«الحقيقي هو المفيد»، و«البقاء للأصلح»، و«ما ينفع الناس هو الأقوى». وكل ذلك جرى بشكل لا واعٍ في مخيال العقل العربي-المسلم ووجدانه. لكن أهم تجلٍّ لكل ما سبق، سيظهر في ما سيوفره السوق الاقتصادي من إمكانيات هائلة لتسويق المنتجات الثقافية والرمزية -بما فيها الدين- عبر مدخل الإعلام الديني، في بيئات متعددة ومختلفة ومتشابكة ومعقدة في أحايين أخرى. هكذا سيجري تكييف العرض الديني مع التوقعات الحقيقية أو المحتملة لجمهور مستهدف بدقة، إذ الجمهور يريد الجاهز والآني والمستظرف، بدل انتظار الذي يأتي أو قد لا يأتي. ومن خلال هذا التغير في الحقل الديني، سيتحول الجمهور الديني الواسع من مُعتنق لأيدولوجيات مثالية وماهوية إلى مستهلك يطلب ما يحتاجه في معيشه اليومي. حيث استهلاك الفتوى بكل حرية دون الرجوع إلى أهل «الحل والعقد»، وحيث ينتعش خطاب التسهيل والترخيص بدل التشدد والحدِّية، وسيحل أيضًا خطاب ما ينفع الناس، بدل لغة الحلال والحرام. بيد أن أهم تحول طرأ مع موجة «تسويق

التدين»، هو ما عبَّر عنه الباحث «باتريك هايني» بـ«التفكير في الإسلام كمنتج موجه إلى مستهلكين»، انطلاقًا من مقولة تأطيرية مهمة جدًّا: «لا يجب أن نَنشُد الفضائل المطلقة من منطلقات دينية، ولكن عبر بيعها من خلال فاعليتها الاجتماعية»[.

ويمكن أن نستنتج من هذا التحليل أن الحامل الديني أصبح «سلعة» تُوظَّف في سوق الاقتصاد و«الماركيتات »، عبر مقاولات تُنتج خطابًا اقتصاديًّا بلغة دينية؛ لتضمن لسلعها الرواج والذيوع، في عالم أصبح يلهث وراء ما يُلبي «رغبته» العارمة في تحقيق «طهارة» دينية، وإن كان يمارسها في سياق اقتصادي محض. ولعل ما تتحدث عنه الأرقام المهولة من إقبال على العمرة أو على منتوجات دينية - سواء مادية أو رمزية في السنوات الأخيرة- يُدعِّم ما ندعيه من توجهات جديدة. يقول «أوليفي روا» :

«في الوقت نفسه، فإن عملية عادة التملك الفردي للمقدس، هي - على العموم- عملية في العمق أرثوذوكسية: إنها تعمل على استرجاع الدين، يعني التقليد المضبوط والمقدس من طرف الأسلاف، شريطة ربط الصلة مع مرحلة التأسيس، أي مجتمع الرسول. هنا من دون شك تنفصل الأشكال المتفردة في التدين الإسلامي المعاصر عن التخفيف من حدة الدين، وعن الفرق بين المقدس والدين بالنسبة للمسيحية. هكذا، فالنقاش يقوم في الغالب على ترصيص سور قرآنية وأحاديث نبوية والعمل على تأويلها في الاتجاه الذي نفضله، يتعلق الأمر بمنحييْن: منحى

ليبيرالي يبرر الدعوة إلى العيش في سلام، وضرورة التعاون مع غير المسلمين، ويعمل على إلغاء العناصر الأكثر إشكالية في التعاليم القرآنية، عن طريق اللجوء إلى تأويلات مُعَقْلَنة (لقد حرَّم الله السُّكر ولم يُحرم الكحول)، روحانية أو براغماتية»

ومن الأمثلة على (سلعنة الدين)

0بروز موضة الحج والعمرة بالنيابة عن الأحياء والأموات واذا كان أداء مناسك الحج والعمر مقبولا (مفتيا فيه) فأن أداء هذه المناسك عن عن الأموات يثير الضحك والأستغراب وهناك وكالات ومندوبين لها يعملون على هذه التجارة ويروجون لها بأعلانات ودعايات .

0 استغلال الأسماء والرموز الدينية في تسمية الشركات والمحلات التجارية والمطاعم وغيرها فتجد محلا تحت أسم (الأمانة) مثلا يبيع لحما مغشوشا .

. أستغلال الكوارث والفقر والمجاعات والربح الباهض الحرام على حساب الفقراء والمنكوبين واللاجئين عبر انشاء جمعيات (خيرية) تعلن عن نفسها بشكل تجاري وتقوم بدعاية اعلانية مدروسة لكسب المتبرعين والداعمين للحصول على أموالهم وأيصالها للفقراء - حسب زعمهم – ولا يصل من تلك الأموال لأصحابها نصفها والباقي يذهب الى جيوبهم .

. الأعلانات التجارية التي تنشر لترويج موضة (لباس شرعي أو حجاب) أو غير ذلك وهو موجه للفتيات المسلمات خاصة .

. أستغلال (لقب ديني) أو (شخصية دينية) لأنشاء شركات تشغيل أموال المساهمين (بطريقة شرعية لا فائدة فيها) وفق زعمهم فيحصلون بذلك على أموال باهضة من مودعين سذج ثم يهربون بها أو يعلنون أفلاسهم وحتى هذا الأمر في العديد من الدول الأسلامية .

. تسويق بعض المنتجات (المحرمة) والتعديل على مواصفاتها لتصبح بطريقة ما (حلالا) كالخمور الخالية من الكحول أو البيرة وغير ذلك من منتجات اللحوم .

2. ظاهرة التدين الفردي وبروز موجتَي التعصب والإرهاب العالميَّين

بالمقابل، نجد أن هذه الموجة الجديدة التي برزت بشكل قوي مع الإعلام الديني، قد شكَّلت فرصة لبروز توجهات راديكالية تميل نحو التعصب والعنف والإرهاب، باسم الدين تارة وباسم التعبير عن الذات تارة أخرى، وباسم التفوق الديني في العديد من المناسبات، أو باسم الأفكار المتطرفة التي تلتصق بذهن الشباب ووجدانهم، وذلك لما يغذيه هذا الخطاب عبر الوسيط الإعلامي تحديدًا من خطاب هوياتي عزيز على النفس وأثير عندها، وما يلقيه في «المستهلك» من صور ونماذج تحنّ لماضٍ حالم (يوتوبي) يعتمد على تقنيات اليوتوب. هذا المعطى يشرحه جيدًا «روا» قائلًا :

« ومنحى آخر يمثله الأصوليون الذين يبالغون في تصورهم للرسالة الدينية (جاعلين من الجهاد فريضة شخصية). هكذا فالأصوليون الجدد يعتبرون أن النص مقدس، إذ يحولونه إلى مجرد تقنين، وما دام يتم تفريغه من أية مرجعية متعلقة بمجتمع ملموس، فإنه يصبح صالحاً لكل مجتمع » .

وهذا لا يعني فقط أن مسألة التطرف أو العنف مرتبطة بالدين، بل إنها مرتبطة بسياقات أخرى، كمسألة تلقي المعرفة الدينية وآليات الاستمداد والتداول. حيث إن أنماط التدين الحالية -كما نعلم- تتميز بكونها تعمل على فصل الدين عن الثقافة المحلية التي يعيش فيها هؤلاء المتحولون الدينيون، وهو ما يجعلهم أسيري قراءات غير سياقية لبعض الأحكام الدينية: كالتكفير أو الجهاد أو الشرعية أو المواطنة أو غيرها. ولهذا يقع كثير من هؤلاء في شباك الحركات الإرهابية، ظنًّا منهم أنهم يستجيبون للدين الحقيقي. ويمكن أن نقترب من تداعيات بعض أشكال التدين التي برزت في السياق الأوروبي، باستحضار ما ذكره الباحث المتخصص في الحركات الإسلامية (أوليفي روا) للحديث عن موجة ما بعد حداثية في طريقة تمثُّل هؤلاء للدين. وقد لا حظ الباحث نفسه كيف أن عزل الثقافة عن الدين يؤدي إلى منزلقات كثيرة، ليس آخرها سوى إسقاط التجربة التاريخية للإسلام على أحداث ووقائع وبيئات، غير متطابقة مع الدين نفسه. يقول (روا، 2017): « ثمة سيرورة معاصرة لتطرف أصولي في الأديان، مردها إلى تقهقر الهوية الثقافية والقطيعة بين الأجيال، والعولمة أو التحول الديني (الإسلام)، والعودة الفردية إلى الممارسات

الدينية- يمكن أن تتقاطع وتتجاور ». ويخلص «روا» إلى أن « التطرف العنيف ليس نتيجة التطرف الديني »، وإن اقتبس منه -في معظم الأحيان- الطرق والنماذج، ولهذا أسميه « أسلمة التطرف». ومن خلال هذه النتيجة التي توصل إليها الباحث «أوليفي روا» أو غيره من الباحثين المتخصصين في الظاهرة الدينية، يمكن القول إن نزع القداسة عن المؤسسات الدينية وباقي المؤسسات الوسيطية الأخرى، كحركات الإسلام السياسي أو المؤسسات التقليدية في المجتمعات المسلمة أو غيرها من المجتمعات، فسح المجال لبروز أنماط من التدين المنفلت من كل أُطر مرجعية محددة، ولعل من أبرز أنماطها ظاهرة « التدين الفردي » هذه هو اعلان المتطرفون والأرهابيون تسمية دولتهم الأسلامية بدولة (الخلافة) وهو أسم تعشقه الآذان وتحبه النفوس لأنه يسترجع ذكريات أيام العز والمجد عند المسلمين .

وفي الختام، تسمح المعطيات التي وقفنا عندها -وهي لا تمثل إلا عينة صغيرة من المجتمع- أن الخريطة الدينية تبدو جِدّ مركبة وشديدة التعقيد، إذ نجد هناك تعايشًا حذرًا ومتوترًا بين العديد من التدينات، كالرسمي والشعبي والطُرقي والحركي والليبرالي والعنفي، وأخيرًا التدين الفردي. كل ذلك يدفع في اتجاه الحديث عن وجود تعددية دينية قد تنفلت من كل تميط. وربما يبرز التدين الفردي الذي ركزنا عليه الاهتمام في هذه الورقة، لكن ذلك لا يعني أنه هو المهيمن والغالب على بقية الأنماط. وربما سينتعش التدين الفردي كلما ترسَّخت قيم التمايز بين ما هو ديني وسياسي وقانوني وحقوقي وبين الحريات الفردية والحريات الجماعية، وذلك

رهين بتوسعة الهوامش الديمقراطية في المجتمعات العربية والإسلامية، التي ما زالت تعيش على وقع تحولات عميقة ومركبة في الآن نفسه. أو قد يبرز شكل آخر من التدين، كالذي أطلق عيله البعض « التدين الليبرالي»، كنمط مفضل لدى غالبية الشعوب والمجتمعات. ويبقى من مهمة الباحثين في سوسيولوجيا الأديان الغوص في هذه الخرائط التدينية، لفهم أسبابها العميقة وغير الظاهرة، لتقديم قراءة موضوعية للحالة التدينية، بعيدًا عن كل تحيز خفي أو ظاهر.

ثانيا

التدين الجماعي

عند التأمل في أصناف ومظاهر التدين الفاسد سنجد أننا أمام تشوهات عديدة، لا يتسع المجال للاستفاضة فيها، بين تدينٍ شكلي وتدينٍ منافقٍ، وتدينٍ معتلٍّ (باطن الإثم) وتدينٍ مرَضي يحمل صاحبه نفسا حاقدة وأخلاقا شرسة، وبدل الدخول في خصائص تلك الأنماط الفردية يحسن إرجاعها لجذرها الكلي، بحيث نركز على البيئة التي أنتجت تلك النماذج، والثقافة الاجتماعية التي شجعتها، وتتداخل جذور هذا المشكل بين الاجتماعي والفكري/ العلمي:

فعلى المستوى الاجتماعي لم نحظَ بشكل كاف بتجديد ديني ينفض الغبار عن جوهر الدين (أو على الأصح لم يتمكن هذا التجديد من الثقافة الاجتماعية)، بحيث أن المعايير الاجتماعية -ـ التي تسربت إلى الثقافة الدينية لظروف تاريخية أو

لخصائص نفسية أو اجتماعية للمجتمعات العربية والمسلمة - هي المهيمنة، ومن ثم صبغت التدين بصبغتها، وطوعت المخيال الديني الاجتماعي لصالحها، حتى غدت ثقافة دينية مستقرة؛ وهذا أمر مشاهد في انصباغ كل مجتمع بأولويات وقيم دينية بعينها، ففي أغلب مجتمعاتنا تتعايش قيم المحافظة على الصلاة والصوم والحج، جنبا إلى جنب مع التطبيع النفسي والاجتماعي مع منكرات الكذب والخديعة والغش وغياب الإتقان وغربة الإحسان.. ثم ينطبع كل مجتمع على حدة بنسخة تدينية بها تراتبية قيمية ليست لدى المجتمع الآخر، فذاك مجتمع يعظم الجانب الاجتماعي الخُلقي ويستهين بمقاصد الأخوة والعدل والأمانة العامة، وذاك مجتمع يستهين بالمنكرات الخُلقية لطبيعته المنفتحة، فلشعوب الصحراء تدينهم ولشعوب البحر الأبيض المتوسط تدينهم، ولشعوب الجزيرة العربية تدينهم ولحواضر الإسلام تدينها..ورغم مراعاة الشرع للأعراف، فإن ذلك لا يعني اتخاذها أساسا ولا مرجعا، فهي مكملة ونتاج تفاعل القيم الدينية مع الواقع الاجتماعي، تفاعلا قد ينتج صيغا مختلفة للتدين، ولكنه لا يصادم مقاصد الدين ولا يستبدل موازينه، إنما هو دلالة على حيوية الإسلام وعبوره للمكان والزمان..

إن حقيقة التشوهات المذكورة سابقا هي غلبة السلطان الاجتماعي على السلطان الديني، ولذلك ينتهك الناس وصايا أخلاقية جليلة ويدوسون مقاصد شرعية عظيمة، في حين يعظمون جرم بعض الصغائر ويجعلونها في مرتبة الكبائر، وهي

أهون عند الله مما انتهكوه وأعظم في ميزان الشرع مما استحلوه، وبذلك ينشأ تدين اجتماعي مشوه.

أما على المستوى الفكري فقد تسرب إلى وعي الناس نمط سهل للتدين، بدأ قديما في عصور الإنحطاط حين كان القصاص يجلسون فينسجون القصص الدينية الزائفة، ويضعون الأحاديث على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمن كرر ذِكرا طويلا غير مأثور في سنة صحيحة، فيه إغراب وسجع وتكلف أعطوه صك الجنان، وغفروا له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

وقد أعاد وعاظ معاصرون وخصوصا تيار الدعاة الجدد ووعاظ "تجزئة الدين" من خلال أشرطتهم وبرامجهم التلفزيونية إنتاج هذا الخطاب، فبنوا مفهوما للتدين في أذهان الناس، يباين المفهوم الصحيح للتدين، فهو إما "تدين لذيذ" لا يعرف أصحابه للجهاد مكانة ولا للإصلاح منزلة ولا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كبير مزية .

أو هو تدين شكلي ملفق من مجموعة من القضايا الخلافية والطقوس والرسوم، تخدر حس الناس وتشوه وعيهم، فتقصير الثوب وإطلاق اللحية و ... كليات في مقابل مقارعة الظلمة ورفض البغي وتخليص الناس من أكل الربا ، ومن ثم تسرب فهم شكلي للدين ومفهوم مرتعش للتدين.

يصف الشيخ محمد الغزالي رحمه الله مصيبة هؤلاء العلمية والخُلقية : " (إنهم) يسمعون أن شُعَب الإيمان بضع وسبعون شعبة ، بيد أنهم لا يعرفون فيها رأسا من

ذنب ، ولا فريضة من نافلة ، والتطبيق الذى يعرفون هو وحده الذى يُقرون. إفراط . . وتفريط، والخلاف الفقهي لا يوهى بين المؤمنين أُخوّة ، ولا يُحدث وقيعة! وهؤلاء يجعلون من الحبة قبة، ومن الخلاف الفرعي أزمة. والخلاف إذا نشب يكون لأسباب علمية وجيهة، وهؤلاء تكمن وراء خلافاتهم علل تستحق الكشف!" (كتاب : مشكلات في طريق الحياة الإسلامية).

إن جامع هذين الانحرافين الكبيرين (الاجتماعي والفكري المفاهيمي) هو مناقضة مقاصد الإسلام والتدين الصحيح، وهي انحرافات توشك أن تقضي على الفاعلية الحضارية للأمة، وتشوه ثقافتها الدافعة للخير، وشروط عمارتها المبنية على الصلاح والسلام النفسي والمجتمعي.

عانت المجتمعات منذ الأزل ولا تزال من بعض المظاهر الخادعة، ومن بين هذه المظاهر وربما أخطرها التديّن الجمعي الشكلي، تلك الظاهرة التي خدعت الناس تارة بهدف كسب ثقتهم واحترامهم وبالتالي الوصول إلى أموالهم، وتارة إلى تحقيق مكانة جماهيرية مؤثرة توصل ممارسيها إلى مآرب وأهداف سياسية واجتماعية بوسائل غير مشروعة دينيا وأخلاقيًا، وتعد ظاهرة التدين الجمعي الشكلي هي المسيطرة على الشريحة الواسعة من المجتمعات العربية وتحولت إلى تدين وهمي بلا عقل ولا منطق محكوم بالتواكل والخرافة وغياب المنطق وسيادة العشوائية وروح الاستسلام، ومع ذلك فإن الفرد يجد مقاومته الوحيدة هي الغطس في نوع من التدين يكفل له إحساسًا زائفًا بالإيمان وفي نفس الوقت تبريرًا كافيًا للاستسلام

والسلبية والتواكل، وهو أمر لا يبتعد كثير عن مجمل البيئة العربية المسلمة، فما نراه في المجتمع من مظاهر الأفراد في مسك السبحة للتسبيح وإطالة اللحية والتزام الثوب بمواصفات خاصة بالرجال والنساء وغيرها من المظاهر، تجد منهم في ذات الوقت من يمارس السرقة ويتعامل بالربا المحرم، ولديهم تحرم البنات من حق التملك والميراث، ويذهب إلى المشعوذين والسحرة، ويرتشي ويتحرش ويكسر إشارة المرور ويشهد الزور ويقطع الأرحام ويكذب في الحديث ويفسد ويحسد ويظلم، ويغش في الامتحانات، كل هذه المظاهر وغيرها يرتكبها البعض تحت ستار من التدين الشكلي.

ولقد تم تعريف التدين الشكلي بأنه مجرد اتصاف بالمظهر الديني الشكلي لا الروحي (الإيماني)، وربما كان بهذا الشكل كثير الصلاة والصيام والعبادة، ولكنه مجرد من الأخلاق الحسنة والأسلوب الطيب في التعامل مع الناس، والرسالة المحمدية جاءت بإثبات الأخلاق الصادقة وحسن التعامل مع الناس، وبينت أن حقيقة التدين هو ما يكون في القلب من إيمان صادق ويقين جازم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الأخر والقدر خيره وشره، مع إعطاء الحقوق والتخلص من المظالم وعفة الفرج والعين وكف الأذى باليد واللسان، والعديد من النماذج الإسلامية ذات التدين الشكلي تغفل عن حقيقة التدين وأنه منظومة متكاملة بين يقين القلب وعمل الجوارح يخلط بين الإنسانية والإيمان وهما عنصران لا ينفكان عن بعضهما، لا مجرد إظهار التنسك وتربية اللحية، ولهذا يوجِد من المنتسبين للدين فاسدون

وظلمة ومعتدون، ومحاربون للسلم والتعايش، مما شوه حقيقية التدين بسبب سوء الصورة المنتشرة عنه، فالتدين الحقيقي هو ما يعبر عن الإيمان بالمعتقدات ، وأن يكون الإيمان نابعًا من علم ومعرفة بالدين، كما أن الالتزام بأخلاقياته في التعامل والسلوك هو من صميم الدين، والدين يدعو كذلك إلى التحلي بمكارم الأخلاق، وجميل الصفات والأفعال الخيرة، فمن مظاهر التدين الحقيقي التحلي بهذه الأخلاق والصفات الجميلة، وكذلك الالتزام بأداء الحقوق لأصحابها، وحفظ الأمانة، ورد الأموال لأهلها، والصدق في القول والفعل، تصديقا لقول الرسول (ص): (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)، وقوله كذلك (الدين المعاملة)، فالإسلام دين الاستقامة الدائمة على طريق الحق ، وهو دين يرفض الفهم الخاطئ أو الظاهري أو التجزيئي للنصوص ، ويرفض التعامل المتعسف معها، ويرفض توظيفها بما يخالف الواقع ، وهناك مسافة شاسعة جداً بين أنماط التديّن السائدة في مجتمعنا ومقاصد الشريعة الإسلامية وغايات الخطاب الديني تجعل الكثيرون يقولون أن ما نراه اليوم في غالبية أشكاله تتخذ طابعاً شكلياً وصورياً دون التزام حقيقي بالدين، لتحقيق أهداف نفعيه.

ولعل من أبرز أنماطه وأشكاله في المجتمع ما يأتي:

1- **الاتجار بالدين،** وهو أفه تصيب التدين فتقضي عليه أو تكاد ، ولا صله لها بالدين كوضع الهي، بل مرفوضة منه، قال تعالى:(ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا)،

وللاتجار بالدين أشكال متعددة منها الاستغلال السياسي للدين، ومنها الاستغلال الاقتصادي للدين، والذي يتمثل في جعل الغاية من النشاط الاقتصادي هو الربح والوسيلة هي الدين، مع العلم بأن ما يطلب من المسلم أن يؤمن إيمانًا أبديًا بالكتاب كله ولا يكن من الذين عاب عليهم المولى عز وجل إيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم بالبعض الآخر لأن ذلك يؤدي بالضرورة إلى أنصاف الحلول وإلى سياسة الترقيع وإلى خلط الأوراق وتلبيس الحق بالباطل وإلى التدين الشكلي المنتشر في المجتمع الإسلامي.

2 - **العبادة الموسمية** وهي عبارة عن أداء شريحة واسعة من المسلمين للعبادة في أوقات دون أوقات وفي أمكنة دون أمكنة ، يتجلى هذا خاصة في شهر رمضان حيث يهرع الجميع للاستجابة لأوامر الله وتشهد المساجد اكتظاظاً لا مثيل له وحركة عجيبة وأجواء منعشة تسر الناظرين (هذا راكع ، هذا ساجد ، هذا يتلو كتاب الله آناء الليل وأطراف النهار ، هذا يلهج لسانه بذكر الله ، هذا يدعو بإلحاح وبكاء وخشوع ، هذا يطلب العفو والصفح عما اقترفت يداه في الأيام الخالية ، هذا معتكف ، هذا يطلب العلم ، هذا يتهجد ، هذا ينفق بسخاء لجوعي الصومال ومحاصري غزة وغيرها من مشاريع الخير، هذا يفطر صائم ....)، لكن المصيبة العظمى والمتكررة سنويًا أن يتفلت هؤلاء من العبادة بمجرد انقضاء شهر الرحمة بعد أن تذوقوا حلاوة الإيمان ولذة القرب من الله ومتعة الطاعة والمناجاة ، يعودون من جديد إلى الذنوب والمعاصي.

3 - الاهتمام بالسنن والمستحبات وتقديمها على الأصول والفرائض :

كأن يحضر المصلون صلاة التراويح بكثافة وبأعداد هائلة ويتركون الصلوات المكتوبة (الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء) ، ومنها أن يخوض البعض معارك طاحنة من أجل عدم حلق اللحية ووجوب ارتداء السراويل القصيرة، والقول بأن ختم القرآن جماعة بدعة، والدعاء للميت بعد دفنه بدعة، والاحتفال بالمولد النبوي بدعة ، وقولك لأخيك بعد أداء الفريضة تقبل الله بدعة،....... وغيرها الكثير.

4 - عدم تأثير العبادة في سلوك المسلم أثناء حركته في الحياة الخاصة والعامة :

نفس الشخص الذي يصلي في الصف الأول ويذرف الدمع خشوعًا ويأتي بالنوافل والأوراد كلها هو نفسه الذي يكذب في السوق ويغش في البضاعة ويطفف في الميزان ويمارس عقوق الوالدين ويأكل حقوق الناس ويؤذي إخوانه وأهله وجيرانه.

5 - تعظيم بعض الشعائر وبالمقابل تعطيل أحكامها وأدوارها وأهدافها.

يتنافس المسلمون على بناء المساجد والمعابد وإنفاق مبالغ ضخمة لزخرفتها، هذه المبالغ الخيالية كان بالإمكان تخصيص أجزاء منها لتأسيس مدارس نموذجية ودور حضانة متطورة ووسائل إعلام تعنى بقضاياهم وتعبر عن آرائهم ، ومشاريع

اقتصادية تمول تحركاتهم وتشغل العاطلين عن العمل ومنظمات حقوقية تدافع عن مظالمهم ، يبنون المساجد ويهملون بناء الساجد ، يشيدون المعابد ويهملون تشييد العابد ، كما يتنافس الكثير من الدول والأفراد على طباعة المصحف الشريف وتوزيعه بملايين النسخ، ولكن من حارب أحكامه وعطل حدوده أكثر منهم.

6- التفاخر بجتاح وسائل التواصل الاجتماعي

هل نصوم ونصلي ونزكي ونتصدق على المحتاجين ونطعم الفقراء والمساكين في رمضان دون أن تتباهى أو تتفاخر بذلك؟ أم أنك تفاخرت وتباهيت كما فعل البعض على وسائل التواصل الاجتماعي ووسائل الإعلام المختلفة التي حفلت بملايين من صور (السلفي) للمعتمرين والمتصدقين من الأفراد والمؤسسات والجمعيات الخيرية، وكنت من هؤلاء الذين تباهوا بأداء العبادات وصلاة التراويح، والتقطوا الصور بملابس الإحرام عند الكعبة المشرفة وكل هذا يعد من المفاخرة والمباهاة التي قد تؤول إلى الرياء المنهي عنه شرعًا، حيث يقول علماء الدين: أداء العبادات في السر أعظم أجرًا.

هذا التدين الشكلي كان ولازال وسيظل أحد الأسباب الرئيسية لتخلف المسلمين وانحطاطهم في الدول العربية الإسلامية، حيث مظاهر الفساد في المجتمعات تنخر فيها وتؤدي إلى تأخرها عن ركب الحضارة والتطور ، وللخلاص من التدين الشكلي يجب تعزيز الأمن الفكري، والقضاء على خطاب الكراهية وتصحيح الخطاب

الديني والإيمان بالتعايش وحرية الفكر التي لا تنفك عن حرية الجسد، وتقبل الآخر وعدم تقديس غير المقدس، وإقامة المراكز التي تهتم بملء أوقات الفراغ لدى الناشئة من الشباب، وتحسين وتطوير المناهج التعليمية في المدارس والجامعات، وتعزيز مراكز وبرامج التوعية والإرشاد والثقافة.

وختامًا .... إن ما نحتاجه ليس قياس مدى انتشار التدين، بل نوعيته ومدى تأثيره في تغيير الأوضاع العامة وسلوك الأفراد والتغير الإيجابي في المجتمعات نحو المدنية والحضارة والمعرفة والإنسانية والمسؤولية المجتمعية والمدنية والأخلاقية.

نتيجة

يظهر البعض أمام الناس بصورة المتدينين سواء باللحية الطويلة أو بالتردد على المساجد، ولكن أخلاقياتهم وممارساتهم العملية بعيدة تماماً عن الدين بل وتناقضه في كثير من الأحيان وقد تعدت الظاهرة حدود الأفراد ووصلت إلى الجماعات والتنظيمات، فنجد جماعات وطوائف تدعي أنها تدين بالإسلام وتلتزم به وتتحدث باسمه، تظهر الورع وتأتي بممارسات لا تمت للدين بصلة. المزايدة يقول الدكتور محمد الشحات الجندي - أستاذ الشريعة المصري وعضو مجمع البحوث الإسلامية: الدين ثابت بمبادئه وتعاليمه وقيمه وأخلاقياته ولن ينال منه هؤلاء المتنطعون الذين اتخذوا من مظاهر التدين وسيلة لخداع الناس فالدين بثوابته ومبادئه السامية لا يقبل التشكيك أو التقليل أو المزايدة، فهو دين الله الذي ارتضاه لعباده إيماناً

واحتساباً وطمعاً في رضوانه، ولكن التمسح بالدين والظهور بصورة المتدين أمر مرفوض لأنه يسيء للدين ونرى اليوم أشخاصاً يحرصون على الظهور أمام المجتمعات التي يعيشون فيها وقد ظهرت عليهم علامات التقوى والصلاح فتجدهم في المسجد قبل كل صلاة ويتحدثون بحلو الكلام، بل تجدهم في كثير من الأحيان يحتلون منابر الوعظ في تجمعاتهم، إلا أننا نكتشف بمرور الوقت أن بعضهم يتعامل بصورة تنافي مظهره، فأخلاقياتهم وتعاملاتهم تتنافى وقيم وتعاليم الدين الإسلامي، وبعض هؤلاء من أصحاب هذا التدين الشكلي إما يكونون من المتشددين في أمور صغيرة للغاية ويتركون القيم السامية ويتمسكون بتلك الصغائر أو يستخدمون مظهرهم في خداع الناس سعيا لكسب مادي أو معنوي. أزمة حقيقية ويضيف د. الجندي: لا بد أن يتذكر كل مسلم قول الله عز وجل: (اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)، «سورة العنكبوت: الآية 16»، فالإنسان عندما يظهر تدينه في صورة الالتزام بالصلاة لا بد أن يتبع ذلك تصرفات تؤكد تنفيذه لكل تعاليم الإسلام الذي أمره بالصلاة فلا بد أن يبتعد عن كل ما يندرج تحت معنى الفحشاء والمنكر بداية من خداع الناس أو تضليلهم عن طريق التمظهر بمظهر المتدين ومروراً بوجود تناقض بين أقواله وأفعاله، فليس أسوأ من تضليل الناس وخداعهم باسم الدين، ووصولاً إلى اعتناق البعض منهم للأفكار المتطرفة والمتشددة ظنا منهم أنهم بذلك يظهرون أمام الناس بصورة المتدين الحق وهم لا يدرون أنهم بذلك يقعون

أسرى الجماعات المتطرفة التي قد تقودهم للبعد عن الدين، وكل هذا يؤكد أن التدين في مجتمعاتنا في أزمة حقيقية وأننا في حاجة لخطاب ديني وإعلامي يبصر الناس بأن التدين الحق يتمثل في الإيمان الصادق الذي يتجلى في الخوف والخشية من الله وفي الحب لله والتوكل والمراقبة مما يشمل الأعمال القلبية الباطنة وليس فقط الأعمال الظاهرة، وذلك مصداقاً لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «التقوى ها هنا»، وأشار إلى صدره ثلاث مرات.

ظاهرة مقيتة الدكتور سالم عبد الجليل - وكيل وزارة الأوقاف المصرية الأسبق

- يقول: « المجتمعات الإسلامية ابتليت في الفترة الأخيرة بظاهرة التدين الشكلي، حيث يتوارى الشخص الذي يعتنق هذا الأسلوب خلف المظهر والشكل الذي يبدو أمام الناس به بصورة المتدين، وهو من المخادعين الذين وجدوا في هيئة الشخص ومظهره فرصة ثمينة لاستغلال الثقة وحسن الظن بهم خاصة وأن المجتمع الإسلامي تربى على حسن الظن بالناس ليقوم أصحاب التدين الشكلي بخداع المجتمعات التي يعيشون فيها، فبعض هؤلاء يظن انه بذلك يفعل الصواب فهو يقتنع اقتناعاً تاماً بأن التدين الحقيقي والصادق يرتبط بالمظهر الخارجي ولا يدري شيئاً عن أهمية التمسك بالقيم الدينية والأخلاقية أو المعاملات، وهكذا يستغل الدين في تحقيق مكاسبه الرخيصة أياً كانت دون أن يدري أنه يقدم أسوأ مثال للإسلام والمسلمين ويسيء للدين». وأضاف: مجتمعاتنا تساعد هؤلاء الغشاشين بشكل أو بآخر، فالمجتمع أصبح يعطي بعض السلوكيات الإيمانية دلالات أكبر مما تنتجه في

الواقع فصاحب اللحية أو الجلباب القصير يحمل لقب متدين حتى دون أن نبحث عن حقيقة تدينه هذا، بل وصل الأمر إلى اعتبار كل من يبدو على ممارساته بعض التدين داعية وهو الأمر الذي من الممكن أن يستغله ضعاف النفوس، دون أن يمتلك المقومات الحقيقية لذلك. وقال: لا بد أن يهب الدعاة والعلماء ويعملوا على تثبيت دعائم التدين الحقيقي ونبذ التدين المغشوش فالمجتمع الذي يغلب عليه التدين الحقيقي بقيمه التي تحث على التحلي بالكرم والإحسان ومكارم الأخلاق ستنتشر فيه الأمانة وستحل عليه البركة ويندر فيه النفاق وسيزيد فيه الإبداع العلمي وينتشر في أنحائه العلم والتطور والرقي ويتحقق فيه حديث النبي صلى الله عليه وسلم: الخير فيَّ وفي أمتي إلى يوم الدين»، ولما سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن المرأة كثيرة العبادة لكنها تؤذي جيرانها بلسانها أخبر أنها في النار، وهذا يؤكد ضرورة تطابق سلوكيات الإنسان مع دينه لأن الإسلام جاء لسعادة الناس وتحقيق السلام لهم بتلازم الإيمان والأمن.

الحل في الوطنية ويشير الدكتور إسماعيل الدفتار- عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر- إلى نمط آخر من أنماط التدين المغشوش وهو التدين السياسي الذي تسبب في تطرف أصحابه واعتناقهم الأفكار الإرهابية، فهؤلاء يحرمون الكثير من الأمور سعياً لتحقيق مكاسب، فأخطر مظاهر التدين الشكلي، الذين يتخذون الدين وسيلة ومطية للوصول إلى السلطة من خلال استغلال العواطف الدينية وحب الناس بخاصة العامة وإيهامهم بأن هدفه من الوصول إلى السلطة. إنما فقط هو

خدمة دين الله عز وجل والتمكين له، وهؤلاء يسيئون لدينهم ويشوهون الوجه النقي لحضارته الراقية وتعاليمه السمحة فهم يساهمون في تطرف البعض من شبابنا، حيث يتبنون أفكارا وتعريفات خاطئة لكثير من المفاهيم الإسلامية، وآراء بعيدة عن أصول الاستدلال في الفقه الإسلامي أو آراء شاذة انتزعت من سياقها وهو ما يؤدي بالتالي إلى الوقوع في الخطأ الاعتقادي أو العبادي أو السلوكي والأخلاقي ويعتقد هؤلاء أنهم يحسنون صُنعاً خاصة عند النّزوع إلى التشدد والغلو ولعل ما يفعله الدواعش وغيرهم من الجماعات الإرهابية نمط من هذا التدين المغشوش فهم يظهرون أمام الناس بمظهر المتدينين وقد تشددوا ظنا منهم أن هذا هو التدين الحقيقي، والحقيقة أنه لا يوجد تدين صحيح وحقيقي دون الالتزام بمنهج وسطي صحيح، وهو معرفة شرعية تطبيقية منضبطة تقوم على الأصلين الكبيرين العظيمين الكتاب والسنة، لا وفق الآراء أو الأعراف أو المواقف الشخصية أو النفسية.

لقد عانت المجتمعات منذ الأزل - ولا تزال تعاني - من بعض المظاهر الخادعة، ومن بين هذه المظاهر وربما اخطرها التمظهر بسمات التديّن، تلك الظاهرة التي خدعت الناس تارة بهدف كسب ثقتهم واحترامهم وبالتالي الوصول إلى أموالهم، وتارة إلى تحقيق مكانة جماهيرية مؤثرة توصل ممارسيها إلى مآرب وأهداف سياسية واجتماعية بوسائل غير مشروعة دينيا واخلاقيا.

التدين الحقيقي هو ما يعبر عن الإيمان بالمعتقدات الحقة، وأن يكون الإيمان نابعا من علم ومعرفة بالدين، كما ان الالتزام بأخلاقياته في التعامل والسلوك هو من صميم

الدين. الدين يدعو كذلك إلى التحلي بمكارم الأخلاق، وجميل الصفات والأفعال الخيرة. ومن مظاهر التدين الحقيقي التحلي بهذه الاخلاق والصفات الجميلة، وكذلك الالتزام بأداء الحقوق لأصحابها، وحفظ الأمانة، ورد الأموال لأهلها، والصدق في القول والفعل، تصديقا لقول الرسول (ص) "إنما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق"، وقوله كذلك "الدين المعاملة".

أما التدين الشكلي "المظهري" هو ما يمارسه البعض من اصحاب النفوس المريضة الذين يتقمصون شخصية الرجل المسلم الزاهد التقي الملتحف برداء الدين، ويعملون على تكريس هذا المظهر لدى أوساط العامة والخاصة، عبر بعض المظاهر كتواجدهم في المساجد اوقات الصلاة، وملازمة رجال الدين الذين لهم مكانة وحظوة في مجتمعاتهم المحلية، وكثرة الذهاب الى الحج والعمرة، وفي الوقت نفسه يحتالون بحيل شرعية لتفادي دفع الزكاة.

ومن الأمور الشكلية الاخرى التي يتشبثون بها والتي لا صلة لها بجوهر الدين هي:

حرصهم الشديد على أن يضفوا على أنفسهم جوا مظهريا يوحي بالتدين، فاللحية تطول إلى أقصى حد، والثياب قصيرة الى ما تحت الركبة بقليل، والمسبحة لا تفارق أيديهم، والحوقلة والبسملة تنساب من أفواهم بسبب ودون سبب، والتشدد المفرط في صغائر الأمور الدينية. ولكن اذا بحثت في اسلوب حياتهم وسلوكهم وتعاملهم مع الآخرين، ستجد نفسك أمام شخصيات مفرطة في التدين الشكلي / المظهري الذي لا يتجاوز كونه رداءً لبسوه لتحقيق غايات في نفوسهم.

الحقيقة التي يؤسف لها، انه صار من المألوف مشاهدة الكثير من هذه النماذج في مجتمعاتنا العربية والاسلامية، من الذين أساءوا للدين والتدين بمزايداتهم التمثيلية المتكررة، يتسترون بالدين، ويتظاهرون بالورع والتقوى، ويستبطنون الكفر والفسوق والعصيان، فاستغلوا الدين وقودا لإشعال فتيل الصراعات السياسية، وتأجيج نيران الفتن الطائفية، واتخذوا من الدين جسرا ليعبروا من خلاله إلى مواقع التسلط، وتحصنوا خلف جدران الرياء والنفاق، وهم ابعد ما يكونون عن الدين وطاعة الله.

التدين الحقيقي هو الخوف من الله وطاعته واجتناب معاصيه. والشخص المتدين الحقيقي ليس ذلك الانسان الذي يُكثر من العبادات، بل هو الذي يتخلق بأخلاق الإسلام في سلوكه وتعاملاته، ويسعى في قضاء حاجات الناس بدون مقابل مادي او معنوي، ويدافع عن الحق والعدل، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويشارك في كل نشاط يرفع من قيمة الإسلام والمسلمين. التدين الحقيقي هو علاقة حميمة تربط بين الإنسان والله الذي لا ينظر إلى صورنا وأشكالنا ولكن ينظر إلى قلوبنا وأعمالنا.

لما سُأل "الرسول" (ص) عن المرأة كثيرة العبادة لكنها تؤذي جيرانها بلسانها، قال: إنها في النار. وحينما سُأل عن المرأة قليلة العبادة وتحسن إلى جيرانها، قال: إنها في الجنة.

يقول الشيخ "محمد الغزالي": إن التدين الحقيقي ليس جسدا مهزولا من طول الجوع والسهر، التدين الحقيقي ايمان بالله العظيم وشعور بالخلافة عنه بالأرض.

ويقول الدكتور "علي شريعتي": إن الدين الحقيقي لا يحارب إلا بدين مزيف، فبمقابل ما يفرضه الدين الحقيقي من وعي والتزام وجهد وتضحيات، يقدم الدين المزيف للناس طبق التوكل والشهوة والزخرف والإدعاء.

ثالثا

التدين الحركي السياسي

الإسلام الحركي هو الحركة بالإسلام من أجل الوصول إلى تأسيس الدولة وفق النموذج المعرفي للمسلمين السُنة للدولة المسلمة التاريخية على عهد الخلافة الراشدة، وتعريف المسلم الحركي أو المسلم الإسلامي هو المسلم العامل عملا منظمًا لإقامة مشروع الدولة الإسلامية. يُعد سقوط السلطان العثماني أو الخلافة العثمانية هو المنطلق الأهم لنشأة الإسلام الحركي أو الحركة الاسلامية فهي قد نشأت كرد فعل أولي لسقوط الخلافة تحت مبرر تنحية الإسلام عن منصة الحُكم والتوجيه السياسي، إعمالا لمقولة الخليفة الثالث ذو النورين: إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن. فكان الهدف الرئيسي للحركة هدف سياسي.

إن الفكر الإسلامي الحركي ليس فكرا موحدا تحكمه الرؤى والتصورات والمفاهيم نفسها، بل هو فكر يمزج بين النظري والعملي طور نفسه إلى عدة مسارات فكرية وتوجهات سياسية وحتى إلى مدارس إيديولوجية وسياسية فهناك الفكر الحركي للإخوان المسلمين من خلال أطروحة حسن البنا، وهناك الفكر الحركي الثوري لسيد قطب وأبي الأعلى المودودي وهناك الفكر الحركي الإصلاحي بمختلف توجهاته.

النشأة

قد شكلَ انهيار الخلافة الإسلامية العثمانية صدمة هزت الوعي والوجدان الإسلامي، وكان لهذا الانهيار العامل الأساسي لولادة تيارات إسلامية جديدة، وتحديدا بعد قيام الدولة الحديثة (الدولة الوطنية) محل دولة الخلافة العثمانية (دولة الأمة). على الرغم من أن أصحاب الخط الإسلامي الإحيائي من أمثال جمال الدين الأفغاني وعبد الرحمن الكواكبي عملوا على بث الروح بنظام الخلافة وتجديده ليواكب تطورات الحداثة والنهضة الأوروبية. ويعتبر الإمام محمد عبده من الذين كانوا ضد تصفية الدولة العثمانية حيث أعلن وبشكل صريح أنه يجب المحافظة على

الدولة العثمانية التي تمثل ثالثة العقائد بعد الله ورسوله وبحسب رأيه. كان سقوط الخلافة العثمانية وإقامة كيانات وطنية على انقاض نظام الولايات العثماني، السبب في ظهور تيار إسلامي احيائي غايته الأسمى إقامة الدولة الإسلامية. لكن بعد نشوء الدولة الوطنية في العديد من البلدان العربية على أنقاض نظام الولايات العثماني، وبدعم مباشر من السلطتين الاستعماريتين بريطانيا وفرنسا، ظهرت بعض الجماعات التي اتخذت من الدين الإسلامي كأيديولوجية لتغير المجتمع. وكان أول هذه الجماعات حركة الإخوان المسلمين في مصر عام 1928 وانتشرت فروعها في العديد من البلدان. وقد ظهرت مقابل حركة الإخوان المسلمين في فترة لاحقة في نهاية خمسينيات القرن الماضي بعض الجماعات في الوسط الشيعي التي تحاكي حركة الإخوان في أهدافها السياسية لتغير المجتمعات ذات الكثافة السكانية الشيعية وكان من أبرزها حزب الدعوة الإسلامية في العراق.

نشأ الإسلام الحركي في ظل احتلال أجنبي لكثير من بلاد العالم الإسلامي وحملات تغريبية ومحاولة ثُلة من المثقفين المسلمين الدعاية لنظريات تغريب الحياة، وكذلك ضعف وجمود المؤسسات الدينية عن مواكبة الأحداث، مما جعل المجتمعات المسلمة تتفشى فيها ظواهر مخالفة

لقيم الإسلام. فبعثت الحركة الاسلامية في قطاع عريض من الشباب روح الحماسة للإسلام ومظاهره، فحدث تطور على مستوى الظواهر الاجتماعية. وشاركت الحركة الإسلامية حركات التحرر الوطني العمل على إخراج المحتل. ووضِعت قضايا الإسلام والقيم والأخلاق الإسلامية داخل دائرة الضوء وبؤرة الأحداث. كما ساهمت في جوانب تربوية وإصلاحية ومشاريع خيرية ونفعية للمجتمع.

الإسلام الحركي الذي نشأ لأول مرة في التاريخ فكرة ودعوة وتنظيمات مجنَّدة على الأرض في الربع الأول من القرن العشرين الميلادي أي النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري، وأسباب عدم وجود نسخ أو تجارب سابقة من الإسلام الحركي واضحة، اقتصر كل الحراك في المجتمعات المسلمة عبر التاريخ على نوعين من الحركات، حركة إصلاحية عملت دائمًا على تصحيح مسار الأمة وتجديد ما ضعف في نفوس الناس من أمور الدين وإحياء العلم الشرعي والسنن والأخلاق الإسلامية. وحراك سياسي للمنافسة على سلطة الحكم. نشأ الإسلام الحركي كتجربة جديدة ليس لها سابقة في تاريخ المسلمين السُنَّة. لكن الإسلام الحركي تأثر بدعوات المصلحين الذين سبقوا نشأته مباشرة أو سبقوه بدعواتهم

الإصلاحية ثم عاصروا نشأته مثل جمال الدين الافغاني والإمام محمد عبده ورشيد رضا ومحب الدين الخطيب وغيرهم .

الإسلام الحركي والدولة القُطرية

ثمة إشكالية نشأت مع شكل الدولة القُطرية الحديثة ونظامها السياسي المستمد من قواعد سياسية عالمية، لم يشارك علماء الشرع الاسلامي في صياغتها، مع انتشار ثنائية التعليم، وانقسامها إلى تعليم شرعي تخصصي مثل التعليم الأزهري في مصر، والتعليم العام الذي تنزوي فيه المناهج الشرعية كما وكيفا، مع عدم تأثيرها في مجموع درجات الطالب، وغيابها تماما عن التعليم الجامعي. ناهيك عن المد الثقافي الغربي والشرقي. مما أنتج نخبا ثقافية مسلمة العقيدة، لكنها ضعيفة في الثقافة الشرعية. وعادة ما تفرز هذه النخب أنظمة الحكم في الدول المسلمة المعاصرة. مما يبرر مطالبة الحركة الإسلامية بممارسة السياسة التنافسية على السلطة، لسد فراغ الثقافة الشرعية لدى غالبية السياسيين المسلمين.

الإسلام الحركي الشيعي

لعبت عوامل سوسيو-ثقافية في نجاح الإسلام الحركي الذي ظهر مطلع النصف الثاني من القرن العشرين في النجف لغرض تحكيم الإسلام في الاجتماع البشري، في صياغة منهج معرفي لتلك الطقوس عبر تفعيله للمفردات النهضوية والثورية والاستشهادية في خطاب مفاهيم عاشوراء كأداة مناهضة للأيديولوجيات غير الإسلامية وأنظمة الحكم الاستبدادية، وقوة رئيسية في تعزيز ثقافة الاستشهاد مثل مواجهة المقاومة الإسلامية في جنوب لبنان للعدوان الإسرائيلي .

انتقادات

إن الذين يعزون كبوة المسلمين إلى الإعلان الرسمي لسقوط الخلافة فقط، إنما يتجاهلون قرونًا طويلة من الاستبداد السياسي، وتعطيل فريضة الشورى، ونحو ستمائة عام من حكم العسكر المماليك في مصر والشام تحت زعم خليفة عباسي لم يعدُ يملك السلطة، يقيمه العسكر إن أرادوا ويخلعوه إن شاءوا بل يتجاهلون الخصومة القديمة شبه المستديمة بين سلطة الخلافة والعلماء وقادة الإصلاح في الأُمة على مدى التاريخ. هذه المغالطة التاريخية أدّت إلى خطأ في تحديد الهدف إذ جعلت الهدف الكبير هو وصول الحركة الإسلامية إلى السلطة، بدلا من أن يكون الهدف الأسمى

هو تمكين الأمة في مقابل السلطة وخطيئة في التأسيس إذ أسست تبعًا لهذا الهدف تنظيمات شمولية كمحاكاة للدول القائمة، كأنها حكومات ظل يؤول إليها الأمر في حال الوصول للسلطة. مما يعني تحوّل التنظيمات إلى دول داخل الدول، أو كيانات موازية للدول، الأمر الذي يتنافى مع قواعد علم السياسة والاجتماع ثم فشل في التطبيق، وكارثية في النتائج في كل المحطات التي لامست فيها الحركة الإسلامية السُنية السلطة أو اقتربت منها أو شاركت فيها على اختلاف مسميات تنظيماتها، كما في أفغانستان والسودان والجزائر - قبيل العشرية السوداء - واليمن ومصر، وما زالت تجربة تونس رغم تطورها لم تحقق نجاحًا بارزًا بعد.

عاب هذه الجهود والنتائج المبشرة، الجنوح الدائم المغروس في أصل الفكرة إلى الوصول للسلطة، مما أدخل الحركة الإسلامية في صراعات شبه مستدامة مع حكومات وأنظمة كل دول المنطقة تقريبًا، كما أنتج هذا الصراع السياسي والقمع الحكومي نوعًا من رد الفعل العكسي لدى بعض تنظيمات الحركة فجنحوا إلى العنف. مما أنتج لاحقًا قسمين كبيرين للحركة الإسلامية أو الإسلام الحركي، قسم عام يمارس العمل السياسي وينافس على السلطة دون اللجوء إلى العنف، وقسم عام حركي عنيف

يرى في العنف وسيلة للخلاص ويعتبره جهادًا مشروعًا في سبيل الله.
ومن الإنصاف أيضًا القول بأن النجاح النسبي لتجربة اللاإسلام الحركي في الجانب الاجتماعي توقف إلى حد بعيد عند الجانب التعبدي وقضايا الهدي الظاهر، لكنه لم يتحول إلى ممارسة سلوكية حياتية في قلب المجتمع. انتشر الحجاب ثم تقلَّص إلى غطاء رأس ساد الأغلبية الغالبة من نساء المجتمعات العربية والمسلمة، ففي الزمن الذي انتشرت فيه مظاهر الصحوة الإسلامية استشرى كذلك الفساد بكل أنواعه في كل أركان الدول والمجتمعات، حيث أثرت الحركة في الشكل لكنها لم تحقق نجاحًا يًذكر على مستوى المضمون.

فعلى التوازي من انتشار مظاهر الإسلام الحركي انتشرت ظواهر عديدة موغلة في السلبية والانحطاط مثل الإدمان والتحرش والتنمر وثقافة المهرجانات! لم يكن الإسلام الحركي بالقطع مسؤولا عن ظهورها، لكنه لم ينجح في المقابل في احتواء تفشيها. إن توقف انتشار مظاهر الإسلام الحركي عند حدود الشعائر والهدي الظاهر دون البعد الحضاري للاسلام، يؤشر إلى مؤشرين: الأول سطحية خطاب الإسلام الحركي ذاته والاكتفاء بداوائر العقيدة والعبادات والهدي الظاهر دون المساس بدائرة

الأخلاق والسلوك والإنتاج الحضاري التراكمي، والثاني الاكتفاء بالعمل في المجالات التي تدفعه السلطات الحاكمة للعمل فيها دفعًا، ولو عن طريق الإيحاء بالممانعة، مما يجعل التيار الحركي يخرج منتشيًا بالانتصار الوهمي في قضية شكلية – مهمة ربما لكنها لا تمس عصب بناء مجتمع قوي وفاعل بمؤسسات أهلية صامدة وقادرة على إدارة الأزمات الحياتية -

وعلى ضوء ما سبق، فإن صورة الإسلام قد تغيرت، من غير أن يشعر المسلمون الذين لا علم لهم بما يخرج عن حقبتهم الزمنية إلا لماما. نقول هذا لأن العلم بمختلف المراحل التاريخية يُعطي الناظر قدرة على المقارنة بين المتغيرات فيها، وهو ما يغيب عمن يعيش تحت هيمنة حقبته من كل جانب. ولو أن الناس قارنوا بين تدين اليوم وتدين أمس، لوجدوا اختلافا كبيرا، يعود في أغلبه إلى جعل الدين تحت حكم الفكر، في حين أن الدين مطلق من وجه كونه إلهيَّ المصدر. ولقد أسهم الفقهاء بسبب كونهم يعتمدون الفكر في علمهم، في كثير مما طرأ على التديّن العام دون أن يشعروا في كثير من الأحيان، ظنا منهم أن عمل الفكر عام في الدين. وهذا غلط كبير، ستكون له تبعات خطيرة على مسار الأمة كله.

ولا يخفى أن هيمنة الفكر في الدين، ستخرج به -ولو جزئيا- من حقيقة الدين إلى الأيديولوجيا الدينية. وكل ما عرفه التدين من تشوّهات أدت إلى صبغ زماننا بما يسمى -حقا أو باطلا- بالإرهاب الديني، الذي يعتمد العنف المادي في غالبيته، هو من أثر الأيديولوجيا الدينية لا من أثر الدين. والمصيبة أن الناس سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين، لا يُميّزون بين الأمرين؛ مما جعل هذه النقائص تُنسب إلى الإسلام وهم ينظرون. المسلمون ومنهم جل العلماء، عاجزون عن توضيح الفرق لتخليص الناس من الحيرة التي أصابتهم من جراء هذا الخلط المفهومي السائد. وهو ما أدى إلى اعتماد تفسيرات شخصية في الغالب، يتلمس كل مسلم بها طريقه وسط الغموض والضبابية التي تميّز عصور الفتن.

أما الإسلام في أصالته، فحركته الفردية والجماعية ذاتية، لا تحتاج منا تعمّلا. وهذه الحركية الذاتية، هي التي انبنى عليها المجتمع الأول للصحابة رضي الله عنهم؛ وهي التي أدت إلى الفتوحات التي أوصلت الإسلام إلى أقاصي الأرض.

فأما الحركية الفردية، فهي ما يتعلق بسلوك الطريق إلى الله، مما يجعل أحكام مقامات الطريق يختلف بعضها عن بعض. ولولا هذه الحركة، ما تحقق قرب من الله لأحد من العباد أبدا. وأما الحركية الجماعية المتعلقة بالجماعة أو بالأمة، فهي نتيجة لمدى تواجد الحركية الفردية فيها، ولمنزلة اعتبارها لدى المجتمع المسلم ضمن ترتيبات أولوياته وتراتب مراكز قيادته بجميع المعاني.

وعلى هذا، فإن أقرب سبيل للتفريق بين الأيديولوجيا الدينية وبين الدين، هو النظر إلى نوع الحركة. فإن كانت الحركة مبنية على فكر بشري، فهي الأيديولوجيا التي ابتليت بها الأمة بسبب تأثرها بأساليب العمل الكفرية؛ وإن كانت الحركة ذاتية، فهو الدين الذي غابت أصالته في زماننا واندثرت .

وكما أن تشخيص الداء لا بد أن يسبق طور العلاج، فكذلك لا بد للأمة أن تميّز الفرق بين حركة الإسلام والإسلام الحركي، إن هي أرادت أن تعود إليها عزتها السابقة، ومكانتها اللائقة بها عند ربها .

رابعا

التدين الطائفي المذهبي

يعتمد التدين الطائفي المذهبي كثيرًا على مذاهب السابقين وفتاواهم التاريخانية، وهي رؤى ماضوية لها ظروفها، ويجعل منها الموجه الأساس لفكره وسلوكه في عصر المواطنة الذي يساوي بين كلّ المواطنين، فما أفتى به الفقهاء القدامى، على ملّة ما أو طائفة أو جماعة، لا يزال يُعامل كمقدس تراثي يجب الأخذ به، فنجده حاضرًا في خطابنا وسلوكنا، وكأن الأجيال المعاصرة، من تلك الملل أو النحل، هي نسخة طبق الأصل من أسلافهم الذين يبتعدون عنهم بقرون، دون الأخذ بعين الاعتبار تغيّر شكل الدولة وتطور طرائق تعاملها مع مواطنيها، وبالتالي فإن اعتماد الأحكام الماضوية على ذرية الآخر الذي يتعايش معنا ويحمل تطابقًا كبيرًا مع همومنا أدت إلى أزمة يعيشها التدين الإسلامي، في التفريق ما بين عصرين مختلفين في الشروط والواجبات: عصر الاختلاف وعصر المواطنة، عصر الإمبراطوريات وعصر حقوق الإنسان، حيث وضعَ اعتمادُ الخطاب الماضوي تلك الذرية مع أسلافهم في سلة واحدة، وهي

عقلية (شنآنية) يرفضها القرآن، إذ إنّ المبدأ القرآني يقوم على: {وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} الأنعام 164.

مفهوم التدين الطائفي المذهبي

يقوم التدين الطائفي المذهبي على قاعدة واحدة وهي (تحويل العقيدة الدينية الأصل الى ديانة مستقلة لأستقطاب متدين يؤمنون بهذه الديانة القائمة على أركان عقائدية جديدة) .

ولدينا مثالين على هذا النوع من أنواع التدين الطائفي المذهبي الذي هو أخطر أنواع التدين الشكلي المظهري :

أولهما : التدين الشيعي الشكلي

ثانيهما : التدين البابي الشكلي

التدين الشيعي الشكلي

للدين الاسلامي بأعتباره دينا سماويا منزلا أركانا وأصولا وقواعدا منصوصا عليها ومبينة في القرأن الكريم والسنة النبوية هي الضابطة المفسرة لهذه الأركان والأصول والقواعد وهذا ينطبق على الديانتين السماويتين الأخريين اليهودية والنصرانية فلكل منها شريعة ومنهجا .

والمؤمنون جميعا في هذه الأديان سيتبعون ما أنزل اليهم وليس ما أجتهدوا فيه أو أحدثوا ذلك أن الابتعاد عن النصوص العقائدية يعني سقوط الهرم العقائدي الديني برمته لذا جاءت الأيات القرآنية تتهم اليهود والنصارى بالتحريف والتزوير الذي فعلوه في كتبهم المقدسة وهذا التحريف والتزوير أدى الى نتيجة منطقية هي انحرافهم عن العقيدة ومنهجها ومناسكها لأنهم لم يعد يتمسكوا بها بل تمسكوا بما قاله رهبانهم ورجال دينهم وهكذا حينما توفي سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ماتت التوراة معه كما يقال ومات الدين معه و بين يدي اليهود والنصارى اليوم نسختين محرفتين تضبط قواعد دينهم الجديد وشريعتهم التي وضعها رجال دينهم .

هذا التحليل وهذه النتيجة تنطبق اليوم على ديننا الاسلامي الحنيف لكن هناك اختلاف واحد وهو أسلوب وطريقة التحريف والتزوير المتبعة أي التي أتبعها المنحرفون وهو هنا في مثالنا عن الاسلام تزويرا (معنويا قوليا تأويلا) وليس تزويرا وتحريفا ماديا كالذي أصاب التوراة والأنجيل .

من هنا يجب علينا أن نسأل أنفسنا بجرأة وصدق وموضوعية هل شيعة اليوم يشكلون (طائفة أو مذهبا) يردف الاسلام أم هم على دين جديد

محتلف كما هم اليهود النصارى اليوم وبعبارة أخرى هل هم مسلمون كغيرهم من المسلمين (السنة) .

هل الشيعة طائفة أم دين ؟

سؤال طرحه أحدهم على موقع ابن باز بالشكل التالي : (السؤال :

ما تقولون في رجل قال: ليس هناك فرق بين سني وشيعي، بل كلهم مسلمون، وهو مفت في إحدى ديار المسلمين، حيث أنه أجريت معه مقابلة في إحدى المجلات منذ شهر، ويقول: حرام علينا أن نقول: هذا سني، وهذا شيعي، فهل هذا الكلام لا بأس به، أو ما ترون فيه؟

الجواب :

هذا الكلام فيه إجمال خطأ، فإن الشيعة أقسام، وليسوا قسمًا واحدًا، الشيعة أقسام، ذكر الشهرستاني أنهم اثنتان وعشرون فرقة، وهم يختلفون فيهم من بدعته تكفره، وفيهم من بدعته لا تكفره، مع أنهم في الجملة مبتدعون، الشيعة في الجملة مبتدعون، وأدناهم من فضل عليًّا على الصديق وعمر قد أخطأ وخالف الصحابة.

ولكن أخطرهم الرافضة أصحاب الخميني، هؤلاء أخطرهم، وهكذا النصيرية أصحاب حافظ الأسد وجماعته في سوريا، فالباطنية الذين في سوريا، والباطنية الذين في إيران، والباطنية في الهند وهم الإسماعيلية هذه الطواف الثلاثة هم أشدهم وأخطرهم، وهم كفرة، هؤلاء كفرة؛ لأنهم -والعياذ بالله- يضمرون الشر للمسلمين، ويرون المسلمين أخطر عليهم من الكفرة، ويبغضون المسلمين أكثر من بغضهم الكفرة، ويرون أهل السنة حل لهم دماءهم وأموالهم، وإن جاملوا في بعض المواضع التي يجاملون فيها، ويرون أن أئمتهم يعلمون الغيب، وأنهم معصومون، ويعبدون من دون الله بالاستغاثة، والذبح لهم، والنذر لهم، هذه حالهم مع أئمتهم.

فالرافضة الذين هم الطائفة الاثنا عشرية، ويقال لهم: الجعفرية، ويقال لهم الآن: الخمينية الذين يدعون إلى الباطل، وهم من شر الطوائف، وهكذا طائفة النصيرية من شر الطوائف، وهكذا طائفة الإسماعيلية، هؤلاء باطنية .. يرون إمامة الصديق وعمر وعثمان، يرونها باطلة، ويرون الصحابة كفارًا ارتدوا عن الإسلام إلا نفرًا قليلًا منهم كعلي والحسن والحسين وعمار بن ياسر، واثنين أو ثلاثة أو أربعة من بقية الذين يرون أنهم يوالون

عليًّا فقط، وأما بقية الصحابة فعندهم أنهم مرتدون، قد خرجوا عن الإسلام، وظلموا عليًّا إلى غير هذا مما يقولون، -نسأل الله العافية-.

مع ما عندهم من غلو في أهل البيت، ودعواهم أنهم يعلمون الغيب، وأن الواجب إمامتهم، وأن هذه الإمامات التي بعد علي وقبل علي كلها باطلة، وأن ما عندهم ولاية حق إلا ولاية علي والحسين فقط، أما الولايات التي من عهد النبي ﷺ إلى يومنا كلها باطلة عند الرافضة -نسأل الله السلامة-

المقصود: أن الشيعة أقسام، ليسوا قسمًا واحدًا، ومنهم الزيدية المعروفون في اليمن، هؤلاء عندهم التفضيل ليسوا بكفار إلا من عبد الأوثان منهم وغلا في أهل البيت، ودعاهم من دون الله، أما مجرد تفضيل عليّ على الصديق وعلى عمر لا يكون كفرًا، ولكنه بدعة وغلط، الواجب تفضيل الصديق، ثم عمر، ثم عثمان على علي، علي هو الرابع -رضي الله عنه وأرضاه- هذا هو الحق الذي أجمع عليه الصحابة -رضي الله عنهم وأرضاهم-.

فالذي يفضل عليًّا عليهم يكون أخطأ، ولا يكون كافرًا، وإنما الكفار منهم الرافضة والنصيرية والإسماعيلية الذين يغلون في أهل البيت،

ويعبدونهم من دون الله، ويرون أن عبادتهم جائزة، وأن أئمتهم يعلمون الغيب إلى غير هذا مما يقولون -نسأل الله السلامة-.

فالحاصل: أنهم ينظر في عقائدهم بالتفصيل، ولا يقال الشيعة كلهم كفار، لا، بل فيهم تفصيل، وهم أقسام كثيرة.

السؤال: وحجهم إلى بيت الله الحرام كيف يتم بناء على هذه العقيدة؟

الجواب: لا بد ينظر في أمرهم في المستقبل، وأن يوفق الدولة لكل خير ويعينهم.

السؤال: لماذا يغضبون من تسمية أبي بكر وعثمان وعائشة وحفصة وأم حبيبة..؟

الجواب: معروف، يعني يرون الصديق كافراً، ويرون عمر كافراً، ويرون عثمان كافراً، يرون أنهم ظلموا علياً، ويتهمون عائشة إلى غير هذا من عقائدهم الباطلة -نسأل الله العافية-.

المقصود: قول من قال: إنه لا فرق بين الشيعة وبين السنة، هذا قول باطل خطأ، الشيعة فيهم تفصيل، ولا يجوز أن يقال: إنهم كالمسلمين،

وأنهم سواء، هذا غلط، بل فيهم تفصيل، وهكذا الصوفية أقسام، فيهم تفصيل ما هم على حد سواء.

والظاهر في الاجابة ان صاحبها رحمه الله كفر الفرق الشيعية الباطنية فقط .

لقد بينا في كتابنا (العقل الباطني الشيعي) الفروق العقائدية بين الشيعة والمسلمين ولن نناقشها هنا مرة ثانية وبأعتبار أن موضوع كتابنا هو (التدين الشكلي في الاسلام) فسنتحدث عن شكل التدين الشيعي والذي في أعتقادنا يقع برمته في خانة (التدين الشكلي المظهري) أما كيف يكون ذلك فهذا ما سنراه في المحاور والمواضيع الآتية :

أولا

سمات التدين الشيعي

يمتاز التدين الشيعي عن غيره من أشكال التدين الشكلي بأنه يقوم على أركان عقائدية دخيلة على الدين الاسلامي والتي لا تلاقي قبولا وأجماعا اسلاميا عاما وهذه الميزات هي :

أولا : الإمامة والعصمة والولاية هي من الأركان الأساسية للعقيدة الشيعة وبأعتبارها ذلك فلقد بنوا عليها طريقة تعبدية خاصة بهم فالتدين الشيعي يقوم على منح نوعا من القدسية على أئمتهم وأعتبروهم معصومين لا يخطؤون لذلك فيتبركون بهم ويدعون بأسمائهم مثل (يا علي) ويا (حسين) ويدعون ويطلبون بها أكثر من دعواتهم وطلبهم الى الله تعالى .

وهذا أدى كنتيجة الى ترسخ ظاهرة التعلق بالأولياء وزيارة قبورهم وأضرحتهم والتوسل لها لتحقيق ما يريدون من أمنيات ولدفع الأضرار عنهم كالمرض والمصائب .

ثانيا : التقية

اشتق مصطلح التقية من القرآن الكريم في الآية: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ٢٨﴾ [آل عمران:28].

التقية هي الحذر من إظهار ما في النفس من معتقد وغيره للغير، كما يمكن القول بأن التقية عند أهل السنة بأنها إظهار المسلم لبعض الأقوال والفعال الموافقة لأهل الكفر أو الجارية على سبلهم إذا اضطر المسلم إلى ذلك من أجل اجتناب شرهم مع ثبات القلب على إنكار موافقتهم وبغضها والسعي لدفع الحاجة إليها، كما يمكن القول بأن التقية هي إظهار الكفر وإبطان الإيمان وذلك عند خوف المسلم على نفسه من الكفار والمشركين

نظرة بعض علماء السنة للتقية عند الشيعة

يرى بعض أهل السنة والجماعة أن الاثنا عشرية تغلو في استخدام مصطلح التقية وتتوسع فيه، ويرى بعض أهل السنة والجماعة أنه من صور الغلو عند الإثنا عشرية أنهم يروون عن الإمام جعفر الصادق أنه قال: «لو قلت إن تارك التقية كتارك الصلاة لكنت صادقاً » واعتبر بعض علماء الإثنا عشرية هذه الرواية من الروايات المتواترة ، وكذلك أن جعل التقية «تسعة أعشار الدين » وكذلك القول بأنه «وأن من لا تقية له لا إيمان له »، فهذا في نظر بعض أهل السنة من الغلو الشديد في مفهوم التقية، كما يرى بعض أهل السنة والجماعة أن الإثنا عشرية قد توسعت في استخدام

التقية وخرجت بها من حال الضرورة إلى حال الاختيار فهي عندهم سلوك جماعي دائم وحالة مستمرة حتى يخرج القائم وهو محمد بن الحسن العسكري، وكذلك القول الذي ينسبوه لأحد أئمتهم: «عليكم بالتّقية، فإنه ليس منا من لم يجعلها شعاره ودثاره مع من يأمنه، لتكون سجية مع من يحذره » .

ولأن التقية هو نوعا من أنواع التفاق الداخلي أو الباطني فهي تقوم على كتمان الحق وستر الأعتقاد فيه ومكاتمه المخالفين وترك مظاهرتهم بما يعقب ضرراً في الدين أو الدنيا أي ان التقية هي لاجتناب شر الكفار أو المشركين وذلك بموافقه بعض افعالهم مع عدم الايمان والتصديق بها قلبا، واضطرت الإثنا عشرية إلى ممارسة التقية ودعى أئمة الشيعة إلى ممارستها حتى أن أئمة الشيعة أنفسهم قاموا بممارسة التقية ، وذلك بسبب البطش والقتل والتنكيل الذي تعرض له الأئمة ومتبعيهم على مر العصور.

ثالثا : المغالاة في حب آل البيت

قد أوصى النبي صلى الله عليه وسلم في عدة أحاديث بأهل بيته، فمن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن زيد بن أرقم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: وأنا تارك فيكم ثقلين، أولهما: كتاب الله، فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال : وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي .. الحديث . وروى البخاري في صحيحه عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال : والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إلي أن أصل من قرابتي . وروي عنه أيضا أنه قال : ارقبوا محمدا صلى الله عليه وسلم في أهل بيته . أي احفظوه فيهم فلا تؤذوهم ولا تسيئوا إليهم ، وقد نص أهل العلم على أن من عقيدة أهل السنة والجماعة محبة أهل البيت وتعظيمهم من غير غلو، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في العقيدة الواسطية في بيان عقيدة أهل السنة والجماعة: ويحبون أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتولونهم ويحفظون فيهم وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ... اهـ مختصرا.

فمحبة أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم من صميم العقيدة في الاسلام ، وهي من حقوقهم علينا، كما أن من حقهم علينا نصرتهم وإكرامهم والذب عنهم سواء الأحياء منهم والأموات، ويستحب الصلاة

عليهم في التشهد؛ كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، فيقول المصلي في تشهده: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد .

ولكن ينبغي للمسلم أن يحذر من أن يقع في الغلو في محبتهم؛ كما وقع لبعض المبتدعة الذين عبدوهم مع الله ورفعوهم فوق منزلتهم التي أنزلهم الله إياها، فآل البيت بشر من البشر لا يملكون نفعا ولا ضرا، وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره ربه أن يعلنها صريحة للناس فقال: قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا {الجن: 21 } وقال: قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ {يونس: 49 } فغيره صلى الله عليه وسلم من باب أولى، فمحبة آل البيت عبادة مشروعة، والغلو فيهم بدعة ممنوعة .

ولقد ولدت هذه المحبة عند بعض المسلمين ظهور جماعة عرفوا (بالسياد) أو (السادة) تدعي برجوع نسبها الى الرسول الكريم محمد عليه الصلاة والسلام وقد أتبع هؤلاء السادة عدة وسائل وطرق تدين مختلفة يعارض أكثرها الدين الاسلامي وشريعته والهدف من وراءها الحصول على المكانة والمال والحصول على الامتيازات فقاموا بصناعة

قطيع بشري من حولهم وأوهموه بأنهم من أل البيت وان دعاءهم مستجاب وأتباعهم فرض وبغير ذلك من الحيل ووسائل الخداع والمكر .

رابعا

شريعة خاصة بهم

لقد صنع أئمة المذهب الشيعي وعلماءه شريعة خاصة بهم تشرع لهم فتحلل المحرم في الأسلام حينا وتحرم المحرم فيه أحيانا ومن ذلك مسألتين مهمتين كبيرتين :

مسألة زواج المتعة وتشريعه واعتباره من أنواع الزواج الشرعي عندهم بينما في الاسلام وعند المسلمين هو محرم .

والمسألة الثانية : هي دفع خمس المال والذي هو في حقيقته سرقة (مشرعنة) فعلى كل شيعي أن يدفع خمس ماله لأل البيت ولأن أخر أئمهتم من أهل البيت وهو (المهدي) صاحب الزمان قد غاب وأختفى فأن وكيله هو المتكلف بجمع هذه الأموال ولك أن تتخيل عزيزي القارئ هذه الطريقة التدينية الشنيعة التي تقوم على سرقة مال المسلمين بأسلوب أحتيالي ماكر .

مظاهر التدين الشيعي

خلال الأيام العشرة الأولى من محرم تقام المجالس الحسينية وتسيّر المواكب لاستذكار الحدث (استشهاد الحسين بن علي رضي الله عنه) والتعبير عن الحزن بالبكاء ولطم الصدور. وينتشر اللون الأسود تعبيراً عن الحزن ليشمل اللباس والرايات الحسينية.

وتعد تلك المجالس والمواكب، التي يرافقها تقديم الطعام لمن يحتاجه، من أهم الطقوس لدى الشيعة الذين يؤمنون بأن لمقتل الحسين دوراً في ترسيخ الدين وديمومة المعتقد، لما يملكه من شاهد على الثبات على المبدأ والمطالبة بالحق.

وفي بعض المناطق يتضمن إحياء الذكرى مسرحة الحدث، إذ تقدم عروض في الهواء الطلق تسمى "التشابيه" تروى خلالها أحداث واقعة كربلاء وتجسد شخوصها الرئيسية، بحضور أعداد غفيرة من الجمهور.

لكن هذه الطقوس، لدى البعض الآخر، تنحرف عن جوهرها في تمثّل الذكرى والاستفادة من عِبرها لتتحول إلى إيذاء جسدي بضرب الرأس

بأدوات حادة واستخدام سلاسل حديدية لضرب الكتفين والظهر، وغير ذلك من الفعاليات العنيفة.

وهناك من يراه نوعاً من الشعور التاريخي بالذنب بسبب "خذلان الإمام الحسين والتقاعس عن نصرته" عند قدومه إلى الكوفة، وثمة من يعزوه إلى الجهل في مغزى استذكار الحدث.

يجري إحياء ذكرى مقتل الحسين، وأربعينيته كذلك، في مدينة كربلاء التي يؤمها الزوار من مناطق مختلفة في العراق وخارجه. لكن طقوسها تمارس أيضا في المدن الأخرى التي تقطنها غالبية شيعية في العراق، إضافة الى بلدان أخرى.

وفي تلك المشاهد، ينشد الآلاف من الشيعة أناشيد دينية تأبينية، ويقومون بضرب صدورهم أو ما يعرف بـ"اللطم،" ويجرحون أنفسهم بخناجر أو سيوف، ثم يجلدون أنفسهم بالسياط في حركات متناسقة.

كما تكثر مشاهد جلد النفس وشج الرأس ضمن مظاهر إحياء الشيعة لذكرى مقتل الإمام.

ويقول أحد المشاركين ويدعى حيدر صباح "الدم شيء قليل على الحسين. كل شيء قليل على الحسين. الحسين نقدم له أرواحنا. نقدم كل ما نملك". وتابع "نقدم أرواحنا.. بيوتنا.. كل شيء نعطيه للحسين في سبيل الشفاعة يوم الورود".

اغتيال العقل

بيّن عالم الاجتماع الكندي ايرفينغ غوفمان أنّ الناس كائنات طقوسية بكلّ امتياز ولا يمكنهم العيش معا إلاّ بواسطة طقوس تنظم مبادلاتهم الرمزية المختلفة. فالمجتمع مسرح يومي تُؤدّى فيه الأدوار منتظمة وفق طقوس تفاعلية لا تستوي الحياة الجماعية دونها.

ويعني الطقس مجموعة من "القواعد" التي تنتظم بها ممارسات الجماعة، إمّا خلال أداء شعائرها التي تعدّها مقدّسة وإما من خلال تنظيم أنشطتها الاجتماعية والرمزيّة وضبطها وفق "شعائر" منتظمة في الزمان والمكان.

وتشير لفظة "طقس" إلى الكيفية التي يتمّ بها أداء الأنشطة المقدّسة وتنظيمها.

وفي اللغة العربية يشمل مضمون "الطقس" الدلالة على "الشعيرة". واقترن مدلول الشعيرة في اللغة العربية بما يدلّ على الممارسات المقدّسة التي تدخل المؤمن في حالة القداسة وتجعله يؤتي مناسكه التعبدية، ويحيل أيضا على المراسيم التي تنجز ضمن التعاليم الدينية للدخول في تجربة القداسة.

يذهب خبراء إلى اعتبار تلك الطقوس "تخديرا للذهنية الشيعية، بل هي عملية اغتيال للعقل" لأن تلك الشعائر أو الطقوس أصبحت أقوى وأشد رسوخا من العقيدة نفسها ولأنها تعبر عن عيد حقيقي لتلك الطائفة تنتظره كل عام ليزيح همها ويزيل كربها، لذلك من الصعب إزالة تلك المظاهر، بل إنها أصعب من إزالة الاعتقاد نفسه.

لقد أصبحت عاشوراء و"مظلومية الحسين" لصيقة بكل الأفعال الاجتماعية وباتت احتفالات عاشوراء مناسبات للتعبئة وتجييش الوعي الجمعي في مجتمعات تعيش أزمة كينونة. لذلك تلجأ في ممارساتها إلى "اللامعقول" باعتباره مجالا لتفريغ المكبوتات .

يقول الباحث العراقي رشيد الخيون إن النواح على الإمام الحسين لم يكن حديثا، إنما كان محبوه يتذكرون مأساته في العاشر من عاشوراء، وظلت جارية سرا وعلانية، بالحداء والمدائح والبكاء، ولم تتوسع إلا بعد استغلالها سياسيا، ورسميا بدأت مع البويهيين في بغداد، والفاطميين بتونس ومصر، والصفويين في إيران، وإن استحدث الصفويون قراءة "المجلس الحُسيني"، وما عُرف بـ"الروزخون"، إلا أن لطم الصدور والتسوط بالزناجيل والتطبير بالقامات قد جاءت بعد العهد الصفوي، وقيل أول ما دخلت النجف بعد منتصف القرن التاسع عشر، عن طريق جماعة أتراك، صادف وجودهم في اليوم العاشر، وتفاعلوا مع المشهد الحزين فأخذ أحدهم القامة وطبر رأسه، وقيل غير ذلك، لكنها قطعا لم تكن قديمة، بل التعبئة لعاشوراء لم تكن قديمة، أي لا وجود لها قبل الصفويين، الذين سموها بالتعبئة.

وأضاف الباحث في تصريحات لـ"العرب" "يقول أحد مؤرخي تلك الفترة، وهو الشيخ محمد بن سليمان التنكابني، المتوفى السنة 1873، في كتابه المعروف 'قصص العلماء': التمثيل من مخترعات الصفوية، ولما ظهر مذهب التشيع في بلاد إيران، وحكم الصفويين أمروا الذاكرين بإنشاد مصيبة سيد

الشهداء، لكن الناس لم تكن تبكي. لأن المذهب لم يترسخ بعد في نفوسهم فاخترعوا التمثيل لعلَّ النَّاس تتألم من مشاهدة مصائب سيد الشهداء وترق قلوبهم، وسمي هذا العمل بالتعبئة، وهي بمعنى الاختراع أيضا، وهذه التعبئة لم تكن موجودة في الأزمنة السابقة بالاتفاق. والعلماء مختلفون في جوازه، والأكثر على التحريم".

وأكد "وقف أبرز الفقهاء ضد الممارسات التي كانت تحصل في زمانهم، ولو قيست بما يحصل الآن، بتشجيع المرجعية الشيرازية، التي بنت مجدها على المبالغة بطقوس عاشوراء، لانعتبر اللطم والتسوط ممارسات هينة جدا لما نرى ونسمع اليوم. فالجمهور انفلت بها وتطرف، وصار مشهد الدماء مشهدا مقدسا، ناهيك عن قلب المدارس، في هذه الأيام، إلى دروس في النواح واللطم، مشاهد ليست بمصلحة الطائفة الشيعية بشكل من الأشكال، إنما تُقدمها جماعة ثأرية مأزومة، ، لكن الجمهور الغالب مأسور لثقافة الجهل، وهذا ما تقف خلفه أحزاب وشلل من المعممين".

الدين البابي

البابية أو الدين البابي أو الدعوة البابية هي دعوة نادى بها ودعا إليها السيد علي محمد الشيرازي الملقب بـــ «الباب»، أي باب معرفة الله. فقد كان يرمي الباب من ذلك اللقب إلى كونه فاتحة وبشيراً لظهور أعظم من ظهوره حيث أعلن أنه سيأتي من بعده فيما لا يقل عن ألف سنة، إلا أن عامة الناس فهموه حسب المعتقدات الشيعية على أنه الواسطة بين القائم الموعود والناس. وفي الواقع لم يحتمل بعض أتباعه لمّا سمعوا أنه هو القائم نفسه، فتخلّوا عن إيمانهم أو تزلزلوا. والدعوة البابية ظهرت في إيران في القرن الثالث عشر الهجري أو التاسع عشر الميلادي كديانة جديدة مستقلة عن الديانات السابقة لها، لكنها حلقة في سلسلة تتابع تلك الديانات؛ وهي باعتقادهم أيضاً خاضعة لمفهوم التطور بتعاقب رسالات الله للبشرية، ولذا لا تكون البابية آخر مراحل تجلي نزول الوحي الإلهي للإنسانية، أو آخر ما تستحقه الإنسانية من الرسالات السماوية. فكانت هذه الدعوة تقول إن الباب قد جاء ليمهد الطريق لمن سماه «من يظهره الله» أي بظهور بهاء الله الذي ذكر أن بمجيئه ستتحقق نبؤات الأديان

السابقة بعد ألف سنة على الأقل، وقد أدعى أحد أتباعه لقب «بهاءالله» وهو ميرزا حسين علي نوري والذي أسس فيما بعد الديانة البهائية.

بدء الدعوة

في (22 أيار سنة 1844م)، أعلن الباب دعوته، وأول من آمن به هو الملا حسين بشروئي الذي كان من تلامذة أحمد الأحسائي وكاظم الرشتي، ثم آمن به سبعة عشر شخصاً آخرين، وقد عرف هؤلاء بـ"حروف الحي". وقد عارض العديد من الشيخية هذه الدعوة وكذبوا دعوة الباب.

أثار انتشار الدعوة البابية مخاوف الحكومة الإيرانية والسلطات الدينية هناك، وقامت مناوشات عديدة بين الحكومة وأتباع الباب، وفي النهاية قامت الحكومة بإعدام الباب في سنة 1850 بعد أن سجنته في قلاع أذربيجان لعدة سنوات.

التعاليم

تدرج نزول الوحي بتعاقب الرسالات السماوية

من التعاليم الأساسية للباب هي استمرارية تتابع الأديان وتطورها تدريجياً على مر الزمان من خلال رسله الذين تتجلى عليهم الكمالات الإلهية تدريجياً في كل دين يأتي. أي أن مع تقدم البشرية عبر العصور، يُرسِل الله تعاليم جديدة، مواكبةً، بذلك، ذلك العصر، فتكون التعاليم الإلهية دائمة التقدم وأكثر شمولاً. فظهور كل دين يكون استجابة لاحتياجات الإنسانية، ومتزامناً مع تقبل البشرية لذلك الدين. فكل دين – مقارنةً بما سبقه من أديان - أكثر تقدمًا، لكن كمال تعاليمه الكامنة يتحقق من خلال ظهور الدين التالي؛ فعلى سبيل المثال، المسيحية هي كمال اليهودية، والإسلام هو كمال الديانات التي سبقته. ووفقًا لهذا المنطق، فدين الله واحد بتعاقب الأديان كحلقات في سلسلة متصلة إلى أبد الآبدين، ولا وجود لمفهوم خاتِم أو آخِر الأديان. علاوة على ذلك، كتب الباب أن الأديان تأتي تِتْراً في كل كور إلهي (دورة)، وتتعاقب كفصول السنة، لتجديد «الدين النقي» للبشرية. ومفهوم تتابع الأديان وتعاقبها هذا يُنبؤ بنزول الوحي الإلهي برسالات سماوية مُرْتَقَبة ومُقْبِلة لاحقاً بعد الباب. وبشكل أكثر تحديدًا، يذكر الباب أن ثمر دينه يجب أن يكون الاعتراف

والإيمان بالمجيء الثاني، شخصية أعظم منه تظهر بعده والتي أشار إليها بـ «من يُظْهِره الله».

مَن يُظْهِره الله

يشير الباب مرارًا وتكرارًا في كتاباته إلى حلول اليوم المنتظر بظهور المجيء الثاني وأشار إليه بـ «من يُظْهِره الله». ويصف هذا المجيء بأنه أصل كل الصفات الإلهية، ويذكر أن أمره هو أمر الله. كما يصف الباب مجيء من يُظْهره الله، قائلاً: «إنّك لو تلوت آية واحدة من آيات من يظهره الله لكان ذلك أفضل من أن تحفظ البيان كلّه عن ظهر قلب لأنّ تلك الآية الواحدة تنجيك في ذلك اليوم، ولكنّ البيان كلّه لن ينجيك». «البيان اليوم في مقام النّطفة وآخر كمال للبيان عند أوّل ظهور من يظهره الله». «مجد البيان وجلاله مستمدّ ممّن يظهره الله».

إن جوهر دعوة الباب والغرض منها، كما أكّد الباب بذاته دائمًا، هو إعداد الناس لمجيء هذا الموعود. فقد طلب من أتباعه تحري الحقيقة تحرياً مستقلاً والبحث عن الموعود، والتعرف عليه من واقع أعماله وسماته

الجوهرية، دون التقيّد بالموروثات والتقاليد. بل حذرهم من ألّا يخسروا ملكوت الله بحرمان أنفسهم من نعمة الإيمان بالموعود، وألا ينقلبوا على أعقابهم ويسلكوا مسلك السابقين حين عارض أتباع الديانات السابقة في كل عصر رسل الله وجادلوهم بالآيات المتشابهات. تحدث الباب عن اقتراب مجيء الموعود وأشار إلى وقت قدومه في سنة التسع والتاسعة عشرة. فقد قال الباب: «راقبوا من مبدإ الظّهور إلى عدد الواحد (19)». بل إنّه قرّر ذلك في وضوح أكثر حين قال: «يظهر مالك يوم الدّين في نهاية الواحد (19) وابتداء الثّمانين (1280 هـ)». ومن شدّة لهفه على ألاّ يصدّ النّاس عن الموعود اقتراب الظّهور الموعود بسرعة قال: «لو ظهر في هذه اللّحظة لكنت أوّل العابدين وأوّل السّاجدين». ففي عام 1863م، بعد تسعة عشر عامًا من إعلان الباب عن دعوته، أعلن بهاء الله برفقة المؤمنين الأوائل من رفقائه في العراق، وفي وقت لاحق في عام 1866 في أدرنة، وبطريقة أكثر انتشارًا، أعلن عن دعوته وأنه الموعود الذي وعد به الباب حيث أشار إليه الباب بـ «من يُظْهِره الله». عقب هذا الإعلان، قَبِل كل البابيين تقريبًا دعوته، وآمنوا ببهاء الله، ومنذ ذلك الحين صاروا يُعرَفون بالبهائيين.

وفقًا لكتابات الباب، تكشف آثاره الكتابية عن حقائق من المفاهيم الإسلامية والآيات القرآنية؛ حقائق تختلف تمام الاختلاف عن الموروثات الثقافية والاعتقاد السائد بين المسلمين. فيوضح أن معاني مثل «القيامة» و «الجنة» و «النار» لها دلالات مجازية رمزية. ووفقًا لكتابات الباب، فإن مفهوم القيامة ليس نهاية العالم، ولكن نهاية إحدى مراحل التطور البشري، أي نهاية دين من الأديان وبداية الدين التالي له وأن «قيامة الأموات من القبور» تعني اليقظة الروحانية لمن ابتعدوا عن صحيح الدين. ويذكر كذلك أن «يوم القيامة» يشير إلى ظهور رسول أو مبعوث إلهي أي مظهر إلهي جديد من مظاهر أمر الله، ويحاسب الله البشر على قبولهم وإيمانهم بهذا المظهر الإلهي أو رفضهم له. الجنة والنار في نظر الباب ليست أماكن للتعذيب الأبدي لبعض الناس، أو مكانًا للمتعة الجسدية والجنسية للآخرين، ولكن لها معاني روحانية. فالجنة هي عرفان الله والرضا بمرضاته وذلك بالإيمان بمن يبعثه الله في ذلك الوقت والعمل بما أوتي في محكم كتابه من أجل ازدهار كمال الإنسان الروحي؛ أما النار، فهي الحرمان منها.

بشكل عام، تحرص تعاليم الباب على المساواة بين النساء والرجال؛ فالمرأة والرجل على قدم المساواة في الأحكام والفرائض التي أنزلها الباب. وفي عدد من النصوص على وجه التحديد، خفف الباب بعض الأعباء والأحكام التي فرضتها الشريعة الإسلامية على المرأة؛ وفي ذات السياق، على سبيل المثال، أصبح الطلاق أكثر صعوبة بفرض سنة اصطبار أي تأجيله لمدة اثني عشر شهراً؛ ولا يُشجع على تعدد الزوجات، ويحرم زواج المتعة. كما خفّف القيود الصارمة على التواصل الاجتماعي للمرأة، وأمر الرجال بعدم إيذاء النساء؛ فقد أمر الرجال بمعاملة النساء بأقصى درجات المحبة. وفي سياقات أخرى، أعطى الباب المرأة أفضلية على الرجل؛ فهناك عقوبة مثلا على كل من يتسبب في حزن شخص آخر وهو بمثابة حزن لله، لكنة يقول إن عقوبة جلب الأسى للمرأة مضاعفة.

ومن تعاليم الباب، بما أن الله يسمو فوق حدود الذكر والأنثى، فإن الله يتمنى «ألا يعلو الرجال أنفسهم على النساء، ولا تتعالى النساء بأنفسهن على الرجال». كما أنه يشجع على تعليم النساء.

تتفق معظم الروايات المعاصرة على أن أحد التأثيرات الاجتماعية الرئيسية لحركة البابيين كان تحسين وضع المرأة. وفضلاً عن ذلك، فقد أشار الباب في كتاباته إلى أن دينه سيؤدي إلى تحسين وضع المرأة من خلال الدعم الذي قدمه لإحدى حروف الحي (الحواريين) البارزة: الطاهرة قُرّة العين. فقد كانت أبرز أنشطة الطاهرة متمثلة في في الظهور كاشفةً عن وجهها بدون حجاب أمام أعين الحاضرين، وتبليغ دعوة الباب، وهذا بدوره كان نقطة مفصلية وفارقة في فصل الشريعة البابية عن سابقتها الإسلامية، كما كان له عظيم الأثر في كسر جمود وقيود الموروثات الثقافية والدينية آن ذلك، والتي كانت مصحوبة أحيانًا باحتجاجات وتذمر من بعض البابيين، وبرغم أن ما قامت به الطاهرة من إقدام وهِمّة على ما فعلته كان صادماً ومفاجئاً للموروثات الدينية والثقافية آن ذلك، إلا أنها كانت تحظى دائمًا بقبول وإشادة الباب .

نتيجة

أود أن أثبت مقالة جريئة للكاتبة الصحفية التونسية لبنى الحرباوي

تحت عنوان (التدين الاستعراضي)

"التدين الاستعراضي"، وهو التدين المرتبط بالمظاهر حصرا، ليس ظاهرة حديثة، وإن كانت أدواته في التعبير والاستعراض هي الجديدة، مع وجود هاتف ذكي في يد كل "متدين مغشوش"، ومع توفّر وسائل للنشر تمثل خاصة في صفحات مواقع التواصل الاجتماعي. ويبدو أن هذا اللون من التدين، تحول إلى ظاهرة غزت المجتمعات المسلمة.

رغم تحول نصيحة رجل دين سعودي في برنامج تلفزيوني إلى حملة عليه في مواقع التواصل الاجتماعي، حينما هوّن من جرم زنا المحارم مقارنة مع ترك الصلاة، تمسك عبدالله السويلم برأيه وقال في تصريحات صحافية: لن أتراجع عما ذكرته من أن "زنا المحارم أهون من ترك الصلاة".

يعتبر خبراء نفسيون أن المسألة ليست مجرد نفاق أو جهل وإنما هي وعي فاسد بالدين، يؤدي إلى نوع من التدين الظاهري الذي يشكل بديلا عن الدين الحقيقي أساسه يجب أن يراك الجميع في المسجد في صلاة الفجر بلحية وقميص. وهذا التدين البديل مريح وخفيف ولا يكلف جهدا ولا ثمنا لأنه يحصر الدين في الشعائر والمظاهر فقط.

وهذا ما يفسر الانحلال الأخلاقي في أكثر المجتمعات تدينا، إذ صنفت أفغانستان مثلا على رأس خارطة التحرش عالميا، فيما تعتبر الدول العشر الأولى المشاهدة للأفلام الإباحية على المواقع المتخصصة من البلدان العربية والإسلامية.

جال دين لكنهم متحرشون

مؤخرا بدأت النساء يخرجن عن صمتهن ويتكلمن عن الشيوخ والعلماء الإسلاميين المتهمين باستغلال ورعهن، ضمن حركة "أنا أيضا" العالمية التي كشفت عن المفترسين الجنسيين.

عدد المفترسين الجنسيين من "علماء الدين" يعدّ على الأصابع. ولذلك تفسيرات وفق تقرير لمجلة "ذا أتلنتيك" الأميركية.

ويؤكد التقرير أن "المشاعر المعادية للإسلام والمسلمين تجعلهم يحجمون عن نشر غسيلهم المتسخ أمام العموم إذ لا أحد يرغب في أن ينفخ على نيران الإسلاموفوبيا الملتهبة أصلا".

لكن السبب الرئيسي هو أن النقاشات حول سوء السلوك الجنسي وإساءة استعمال السلطة تظل نقاشات محرمة في الكثير من الأوساط الإسلامية. وأخيرا تستمر ظاهرة عبادة الشخصيات بشكل كبير في الإسلام المعاصر.

يوجد اسم العالم الإسلامي السويسري المولد طارق رمضان في قلب انتفاضة هاشتاغ "أنا أيضا" واتهمته امرأتان مسلمتان بالاغتصاب والاعتداء الجنسي. رمضان الذي أخذ إجازة من جامعة أكسفورد أنكر التهم وردها إلى "حملة تشويه يحركها بكل وضوح خصومي القدامي"

ظل رمضان، وهو حفيد مؤسس حركة الإخوان المسلمين حسن البنا، شخصية خلافية في فرنسا حول موضوع الهوية الإسلامية والاندماج لأكثر من عقدين من الزمن.

وفي بلد يفهم العلمانية بمعنى الحرية من الدين وليس حرية الدين، عمل رمضان على الدفاع عن الإسلام وتحديد مكان له في الحياة العامة. لكن مثلما كتب أدام شاتز مؤخرا في صحيفة "ذي نيو يوركر" رمضان هو "شاشة عرض أو اختبار هرمان رورشاخ (طبيب نفسي) للقلق القومي حول 'مسألة المسلمين\'".

وفي أوائل خريف عام 2017، وُجّه الاتهام لأستاذ إسلامي مقيم في تكساس اسمه علي خان بإقامة علاقات غير لائقة مع عدة نساء مسلمات بما في ذلك البعض منهن اللائي عملن معه أو طلبن مشورته.

وهذه العلاقات التي تتنافى مع الفضائل الأخلاقية التي يتبناها أمام العموم يُدّعى أنها تتضمن صور سيلفي دون قميص ونصوصا بذيئة نشرت لقطات شاشة لها بعد مدة قصيرة.

التدين البديل ساهم في إيجاد حاضنة للإرهاب في المجتمعات المسلمة

حظي خان بمتابعة عالمية مكثفة بين الشباب المسلم بفضل دروسه القرآنية المتحركة التي مزجت بين تأويلات محافظة للنصوص القرآنية عن العلاقات بين الذكور والإناث وسيناريوهات ذات علاقة.

في منشور على فيسبوك في صفحته الشخصية رفض وأنكر خان الاتهامات "صراحة". على الرغم من أنه لم يتم اتهام خان بارتكاب جريمة، تسببت آثار القضية في استقطاب الجالية المسلمة.

وفي فضاء الإنترنت بالتحديد هناك تشهير بالناقدات لدفعهن إلى التزام الصمت. كما تم التشهير بالنساء المعنيات بالفضيحة اللائي ادعين أنه تم تهديدهن برفع دعاوى ضدهن إذا تكلمن.

وفي هذا السياق كتبت شاهين باشا في صحيفة "دلاس مورنينغ نيوز" قائلة "اعتبرهن بعض المسلمين نساء حاقدات حقيرات وشككوا في نقائهن الديني لمجرد الدخول في مثل هذه الحوارات مع خان". ردة الفعل هذه تكشف لِمَ الحديث علنا وبصراحة داخل المجتمع المسلم عمّن يدعون التقوى والورع يكون محفوفا بالمخاطر.

حسب أيشا شودري، أستاذة الدراسات الإسلامية ودراسات النوع الاجتماعي (دراسات الجندر) في جامعة كولومبيا البريطانية في كندا، تتمحور هذه الأمثلة

عن تحلق الأشخاص حول الرجال "لأن الناس في المجتمعات الأبوية يتبعون الرجال بشكل أسهل من اتّباع النساء".

وتؤكد "لدفع ثورة هاشتاغ 'أنا أيضا' الإسلامية علينا أن نضخم أصوات الضحايا بغض النظر عما إذا كان الفاعلون وعاظا أو علماء محبوبين، وبغض النظر عن الإسلاموفوبيا، فبالنسبة إلى عقيدة بدأت قبل قرون بهدف معلن يتمثل في محاربة المظالم غير المعقولة، هذا واجب طبيعي".

منافق معصوم من الخطأ

إن المتأمل للوضع الآن في المنطقة العربية يجد أن الشعوب العربية مصابة بهوس التدين الظاهري المتمثل في طريقة الملبس والمأكل وغيرهما دون أن يلامس هذا التدين جوهر حياة الناس، لأنه رغم حالة التدين التي نراها في عالمنا العربي إلا أننا نجد أن نسب الجريمة والفساد والرشوة وحتى القتل والدعارة وغيرها من الجرائم التي يندى لها الجبين في ازدياد يوما بعد يوم.

فالكثيرون بيننا يؤدون فرائض الدين الإسلامي بإخلاص، لكنهم في حياتهم اليومية يتصرفون بطريقة أبعد ما تكون عن الدين؛ هم يصومون ويصلون ويتصدقون ويحجون ويحيّون الناس بتحية الإسلام ويلزمون زوجاتهم وبناتهم بالحجاب والنقاب.. وهم يعتقدون بعد ذلك أنهم قد أدوا واجبهم الديني كاملا غير منقوص.

في المقابل تنظر شرائح كثيرة في المجتمع البشري إلى كل شخص يتحلى بعلامات التدين -من "اللحية الشرعية" وهي في حجم قبضة اليد على الأقل، وملابس الصلحاء المتمثلة خاصة في قميص قصير وأمارات السجود في الجبهة، وما إلى ذلك- على أنه كائن يختلف عن بقية البشر ومعصوم من الخطأ وارتكاب الذنب؛ فالشيطان لن يجد إليه سبيلاً.

هذه الثقافة التي يتبنّاها المجتمع حول التدين ومقياسه الشكلي ومعياره الظاهر، ثقافةٌ متأصلة فيه وظلّت من أهم العوامل التي ساعدت أناساً على أن يتخذوا من تلك المقاييس وسائل لتمرير مخططاتهم المغرضة وغاياتهم الرخيصة.

وكان الشارع العراقي ضج قبل سنوات بعد انتشار أفلام اباحية مصورة بهاتف محمول يمارس فيها السيد مناف الناجي وكيل المرجع الشيعي الأعلى علي السيستاني في مدينة العمارة جنوب العراق، الجنس مع نساء عراقيات.

وانتشر الفيلم في عموم محافظة ميسان ولم يضم مقطعا واحدا بل عدة مقاطع فيديو الواحد يختلف عن الآخر. واتهم الناجي باستغلال موقعه الديني وعوز وفقر وجهل الضحايا لايقاعهن في شباكه.

تكمن خطورة التدين الظاهري في عدم حصول الشخص على سلامه النفسي، بل إنه يصبح رغمًا عنه يعيش بازدواجية، فهو مطالب بالظهور أمام الناس بصفته

الدينية التي تعطيه هالة من الوقار يلاحظها في نظرات من حوله، فتشبع غروره، بل قد يتمادى ليحاكم الآخرين على تقصيرهم في أداء واجباتهم الدينية، ويُبوّئهم مكانة دونية.

يرى الإمام والمفتش في وزارة الشؤون الدينية والأوقاف الجزائرية فضيل بن سعيد أن مسألة الاهتمام بمظاهر التدين على غرار اللحية والقميص والجلباب، لنيل ثقة الناس والبحث عن مكانة اجتماعية وروحية معينة، هي أحد وجوه التحولات الاجتماعية السلبية والغلو الديني.

وقال "اختلال القيم الأخلاقية والروحية، حوّل الأنظار إلى التركيز على المظاهر الدينية، دون ملامسة باطن الأشخاص وحقائقهم، والاهتمام بالقشور بدل اللب، وهو أمر يضر بأخلاق وممارسات الدين الإسلامي السمح أكثر مما ينفعه ويحقق الجاذبية له، فالحقائق الصادمة لدى بعض المهتمين بالمظاهر تثير الاشمئزاز وتشكل عامل تنفير".

وأضاف في تصريحات لـ"العرب" "من خلال احتكاكنا اليومي بالمساجد وبرواد المراكز الدينية، تأكد لدينا أن المظاهر الدينية أخذت امتدادات مذهبية وطائفية ومرجعيات دينية، فمن خلال الزي بات يمكن تمييز أتباع هذا المذهب أو ذاك، وهي كلها مظاهر مستوردة لا تمت إلى الشخصية والمجتمع بصلة".

وتابع الإمام " الأدهى من كل ذلك أن المظاهر المذكورة صارت ملاذ الكثير لبلوغ أهداف وغايات اجتماعية ودنيوية معينة، ولا علاقة للمسألة بالتدين، فكم من فتاة ترتدي الجلباب للتظاهر بالعفة والحصول على زوج، وكأن الأخلاق الدينية مرتبطة بزي معين، وكم من تاجر يهتم باللحية وبترديد آيات القرآن وأحاديث السنة والأدعية، للتغطية على ممارسات تتنافى مع الأحكام الحقيقية للإسلام في مجال التجارة".

وخلص المتحدث إلى أن "هذه الديار احتضنت الإسلام منذ قرون، وإلى وقت قريب كانت العبرة في الأخلاق والقيم الإسلامية السمحاء، وفي مبادئ التعاون والاحترام والتسامح، وليس في الهروب إلى مظاهر وأشكال لإيهام الناس، والسعي لأهداف وأغراض اجتماعية ومادية معينة، وهو ما قد يندرج في مصطلح الرياء الذي نهى عنه ديننا الحنيف".

رواج الإسلاموفوبيا في المجتمعات الغربية

الإسلام والمسلمون كثيرا من التدين المغشوش؛ فزيادة على أنه اهتمام بالقشور وإهمال لِلُّبّ، يثير اشمئزاز المجتمع، وقد يكون عامل تنفير لدى المسلمين وغيرهم، وهو ما ولّد ظاهرة الإسلاموفوبيا.

وقد أفاد تقرير رسمي لمنتدى "تعزيز السلم في المجتمعات المسلمة" بأن أهم أسباب تنامي ظاهرة الخوف من الإسلام (الإسلاموفوبيا) ما وصفه بـ"التديّن المصطنع"،

لأن صناعة التديّن حوّلت الدين من طاقة للسلام إلى نزاعات دينية وسياسية، فأضرت بمصالح المجتمعات والأوطان في حاضرها ومستقبلها.

وحدد التقرير الذي صدر في نهاية أعمال المنتدى في العاصمة الإماراتية أبوظبي قبل أقل من شهر ثلاثة إجراءات لمعالجة الإسلاموفوبيا، معتبراً أن وسائل تعزيز السلم التي يتم تبنيها في المجتمعات المسلمة هي الوسائل نفسها التي تنشر السلم في كل المجتمعات الإنسانية، لا سيما أن منغصات السلم وعوائقه واحدة في كل مكان، وهي جزء من ظاهرة الرُّهاب والخوف من الإسلام.

ووفقاً للتقرير، يتمثل أول إجراء لمعالجة الإسلاموفوبيا في إعادة ترتيب البيت الإسلامي، مؤكداً أن المنظومة الفكرية في نطاق المجتمعات المسلمة في أمس الحاجة إلى تجديد يبرز المناهج الصحيحة والمآخذ السليمة في التعامل مع نصوص الكتاب والسنة.وطالب علماء المسلمين بأن يبصّروا المجموعات المسلمة في المجتمعات ذات الأغلبية غير المسلمة بأهمية تعزيز روح الاندماج في المجتمعات المحتضنة لها.

وتمثل ثاني إجراءات المعالجة في "الحوار مع الآخر"، لا سيما أن كل المجتمعات صارت خليطاً من الأجناس والأعراق والأديان واللغات، وهذا التنوع في المنطق الديني والإنساني ينبغي أن يكون محفزاً على العمل الإيجابي والتعارف والتعايش.

وأكد التقرير أن الإيمان بالمطلق لا ينافي الاعتراف بالاختلاف ولا يناقضه. وأفاد بأن الأخوة الإنسانية، والحق في الاختلاف، وحرية التدين، والجدال بالتي هي

أحسن، واعتبار المسالمة على بساط البر والقسط، تعد أصلاً في العلاقات مع الآخرين، وقيماً ومبادئ من شأنها تعزيز سبل الحوار والتعارف بين المسلمين وغيرهم وذكر التقرير أن آخر إجراءات معالجة الإسلاموفوبيا يتمثل في التحالف مع أولي بقية من أهل الأديان ومحبي الإنسان، مشيراً إلى أن أمام العالم والأديان تحدياً يجب مواجهته لاقتراح حلول إبداعية .

التدين المغشوش

أخطر قضية يُعاني منها المسلمون حاليًا هي الفصام بين الاعتقاد والسلوك، والتدين المغشوش الذي يركز على المظاهر ويهمل جوهر الإسلام، وللأسف يحاول البعض من ضعاف الأنفس أن يستغل بعض مظاهر التدين مثل اللحية الطويلة والثوب القصير وعلامة الصلاة المحفورة في الجبهة والخمار أو النقاب ويجعل منها أدوات لخداع الناس وإيهامهم بأنهم يتعاملون مع أشخاص متدينين، وهم في الحقيقية يتعاملون مع أناس أخبث من الشياطين.

مظاهر التدين المغشوش

أبرز مظاهر التدين المغشوش هي إظهار الورع والتقوى والخشوع أمام الناس، وهي أمور ينبغي أن تنعكس على سلوك الإنسان وتعاملاته مع

الآخرين، ولكن هذه الأمور تكاد تختفي عند أصحاب التدين المغشوش، فلا تجد في تعاملاتهم أي ورع أو صدق أو بعد عن ظلم الناس وأكل حقوقهم بالباطل.

ومن مظاهر التدين المغشوش التمسك بالبدع والخرافات والدفاع عنها وكأنها أصل من أصول الدين، مع أنها لم ترد في الكتاب والسنة ولا في أقوال الصحابة والسلف الصالح.

وأصحاب التدين المغشوش يحرصون على تطبيق السنة وفي المقابل يضيعون الفرائض وهي أولى بالأداء.

نماذج التدين المغشوش

نماذج التدين المغشوش في مجتمعاتنا العربية والإسلامية لا حصر لها، ويأتي في مقدمتها: الرئيس المؤمن المتدين الذي يتحدث عن ضرورة تجديد الخطاب الديني، ويحرص على صلاة الجمعة، وتجده حاضرًا في المناسبات الدينية، ومع ذلك يداه ملطختان بدماء الأبرياء، وينهب أموال الشعب، ويستأثر بجزء كبير منها، ويقدم الباقي لأعداء الأمة لكي يبقى على كرسيه.

ومن نماذج التدين المغشوش المنتشرة في مجتمعاتنا: الموظف المرتشي، الذي يعطل مصالح الناس، ويعطي الحقوق لغير أصحابها طمعًا في لعاعة من الدنيا. ومنها: الموظف الذي يهمل في عمله، لحيته طويلة ويحرص على الصلاة معنا، ولقبه المشهور به هو "الشيخ فلان"، وكان من أكثر الموظفين تسيبًا وتفلتًا وإهمالًا في العمل .

وأكثر نماذج التدين المغشوش انتشارًا في مجتمعاتنا هي: التاجر "الحاج" الذي يحرص على الصلاة والعمرة والحج، ويغش في البيع والشراء!

وأسوأ نموذج للتدين المغشوش، هو: ذلك الشاب العابد الذي يحرص على الصلاة في المسجد وعلى قراءة القرآن وحضور دروس العلم، وفي المقابل يعقّ والديه وينهرهما ويسيء إليهما.

ومثله في السوء من ينشغل بإصلاح الناس ويكرّس حياته للدعوة في سبيل الله، ويهمل أهله ويقصر في رعاية أولاده وتربيتهم.

وللتدين المغشوش نصيب عند النساء، ومن نماذجه: تلك السيدة المنتقبة الورعة التي تحافظ على الصلاة وتواظب على حضور مجالس العلم، ومع ذلك تهمل حقوق زوجها وتسيء إليه أو تهمل تربية أولادها!

مخاطر التدين المغشوش

التدين المغشوش الذي يركز على المظاهر ويهمل جوهر الإسلام، أخطر على الإسلام من الكفار والمنافقين ومن جميع أعداء الإسلام، لأن هذا النمط من التدين يسيء للإسلام، ويسيء للمسلمين، ويظهرهم بمظاهر الانتهازيين الذي لا يراعون حرمة، ويرتكبون أفعالًا تتنافى مع ما جاء به الإسلام من قيم ومبادئ.

وأصحاب التدين المغشوش دود ينخر في جسد الأمة، ويؤخر نهضتها، فعندما يُفقد الصدق في التعامل، ويشيع الكذب، وتضيع الأمانة، وتنتشر الخيانة بين الناس، يصبح الحديث عن النهوض والتقدم لا معنى له.

والتدين الصحيح الذي جاء به الإسلام ودعا إليه النبي صلى الله عليه وسلم لا يوجد فيه انفصام بين العقيدة والعمل، وهو ما يتضح جلياً في نصوص الكتاب والسنة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه "قيلَ للنبي صلى الله عليهِ وسلم: يا رَسولَ اللهِ! إنَّ فلانةَ تقومُ اللَّيلَ وتَصومُ النَّهارَ وتفعلُ، وتصدَّقُ، وتؤذي جيرانَها بِلسانِها؟ فقال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليهِ وسلم: لا خَيرَ فيها، هيَ من أهلِ النَّارِ. قالوا: وفُلانةُ تصلِّي المكتوبةَ، وتصدَّقُ بأثوارٍ، ولا تُؤذي أحدًا؟ فقال رسولُ اللهِ: هيَ من أهلِ الجنَّةِ"، أخرجه البخاري.

والإسلام كل متكامل لا انفصام فيه بين الاعتقاد والعبادات والمعاملات، وعقيدة المسلم لا بد أن تنعكس على سلوكه وتعاملاته مع الآخرين من المسلمين وغيرهم، والعبادات في الإسلام لها دورها في تهذيب السلوك وإصلاح وصيانة العلاقات بين أفراد المجتمع، ومن خلال التكامل بين الاعتقاد والعبادات والمعاملات ينصلح حال الفرد وحال المجتمع .

التدين الجديد و المتدينين الجدد

استطاعت الصحوة الإسلامية خلال العقدين الأخيرين من القرن الماضي فرض نفسها كواقع ملموس في الحياة العامة، والأوساط الاجتماعية المختلفة؛ ذلك أنها خاطبت كافة الشرائح والفئات والنخب، بغض النظر عن مدى مضمون هذا الخطاب وسلامته! ونظراً لأن الإنسان متدين بالفطرة، فهناك تيار عام وظاهر اليوم ينحو باتجاه الشخصية المتدينة، بعد أن سادت لفترة من الفترات طبيعة اللامبالاة والإعراض والتخلي عن الدين، وذلك تحت وطأة التوجه العلماني الذي عمل على تغييب الخطاب الديني ومحاربته وصدِّ الناس عنه. والقارئ أو المستمع أو المشاهد أو الزائر

-في العالم العربي والإسلامي- لا يخطئ مظاهر التدين التي تنتشر في أوساط المجتمع وتلوح على مؤسساته وأنشطته وتعاطيه مع الأحداث.. هنا وهناك. ويبقى من الضروري في ظل هذا الاتساع والانتشار السريع والمتزايد دراسة الظواهر المصاحبة لهذا التوجه (أو التيار) الديني.. أو ما اصطلح عليه (الصحوة الإسلامية). وهذه الضرورة لدراسة من هذا النوع تنبع من عدة جوانب:

أولًا: أن توجه الناس نحو التدين يرافقه غالبًا جهل بأحكام الدين ومقاصد الشريعة، الأمر الذي قد يوقع البعض في الغلو أو المحدثات أو إضافة شيء إلى العقائد والعبادات والشرائع، وهو ليس منها أصلًا! وبالتالي فيجب على العلماء والدعاة مواجهة أي خطأ من هذا النوع مع نشوء بوادره، كما كان هديه صلى الله عليه وسلم مع أصحابه، فحديث (ذات أنواط)، وحديث الثلاثة نفر الذين سألوا عن عبادة الرسول صلى الله عليه وسلم فتقالُّوها.. وغيرها، هي من باب حرص الشارع على ألاَّ تخرج طبيعة التدين الناشئ في النفس البشرية عن حدود الشرع ومقاصد الدين.

ثانيًا: أن هناك من شياطين الإنس والجن -في كل زمان ومكان ومجتمع- من يحاول أن يحرف توجه الناس إلى التدين إلى مسار مخالف، أو منحرف، مع كونه يبدو في مظهره أنه المسار الصحيح؛ وأغلب انحرافات الأمم عن التدين إنما وقعت في بداياتها الأولى بشيء يسير من المخالفات التي لبست عليهم الشياطين فيها، ليصبغوها بصبغة التدين، ثم ما لبثت أن صارت طرقًا مضاهية للدين، ولكل طريقة أشياع، ولكل شيعة مطاع!

ثالثًا: أن التدين في غالبه هو استجابة لخطاب ديني موجه، وبحسب سلامة هذا الخطاب وصحة مضامينه تكون سلامة الأتباع وصحة أعمالهم وأقوالهم ومعتقداتهم. ونظرًا لكثرة الخلاف وتعدد الاجتهادات على مدار أكثر من أربعة عشر قرنًا، فإن من الصعب على العامة والجماهير الغفيرة المقبلة على التدين الوصول إلى الرؤية الصحيحة والمناهج الحقة والتغذية المتكاملة والمتزنة والمتدرجة، والتي يصلون بها إلى مراتب الكمال البشري بصوره المختلفة؛ وهذا قد يؤدي بهم إلى الانتقاء والاختيار من (المعروض) وبحسب الرغبة والحاجة، وبالتالي تصنع الجماهير لأنفسها في ظل غياب الخطاب والتوجيه الموحد (تدينًا جديدًا)، يحمل ملامح غير متجانسة وعناصر غير مترابطة.. وهو بدوره قد يشكل وعيًا جمعيًا ضاغطًا، وأخطر

ما فيه أنه غير موجه ولا إرادي، ومع مرور الوقت يربوا فيه الصغير ويهرم فيه الكبير، ويصبح دينًا له مفاهيمه وقيمه وسننه وشرائعه! فإذا أراد العالِم أن ينكر على أهله قالوا: {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ} [الزخرف من الآية:23].

التدين بين الجديد و القديم

إن التدين باعتباره جهدًا بشريًا في جانب التعاطي مع الدين وتطبيقه في الحياة، يتغير ويتبدل ويتجدد، بحسب أحوال الناس وظروفهم المحيطة ووفرة القائمين بواجب الدعوة والتذكير والإرشاد والتعليم. ومن الطبيعي أن يعتريه نقص أو قصور أو خلل، لأن هذا شأن النفس الإنسانية والمجتمع البشري. ومن هنا فإن تسمية ما يحدثه الناس في واقعهم الديني بـ(التدين الجديد) أمر لا غبار عليه، وهو من باب الاصطلاح على الظواهر الجديدة؛ والمهم في الأمر هو التوصيف الموضوعي لهذا الاسم بما يتطابق مع واقعه؛ حتى لا تبنى بقية الأحكام بعيدا من الواقع وحقائق الأمور! ولست أول من يلتفت إلى هذه الظاهرة ويسميها بهذا الاسم، فهناك من كتب عن (الدعاة الجدد) وآخرون كتبوا عن (المتدينون

الجدد)، وهي في مجموعها كتابات تتطرق إلى الظاهرة من رؤى مختلفة! وتحليلات متباعدة فماذا نقصد بـ (التدين الجديد) ؟!

إن هذا المفهوم متصل بمصطلح (المتدينون الجدد) باعتبارهم النموذج المادي لهذا المفهوم وعليه فما هي خصائص هذه الفئة من المتدينين، والتي تميزهم عن غيرهم ليحملوا هذا اللقب ؟

خصائص المتدينين الجدد

ظهر في الفترة الأخيرة من العقد الماضي دعاة: "استطاعوا أن ينتقلوا بالأفكار الدعوية والتربوية إلى مدارات جديدة ومختلفة، ومنها إعادة عرض الأفكار الدعوية بشكل جديد، معتمدين على تقنيات حديثة، وأساليب مستحدثة، ومن هذه المشروعات المزدهرة في مصر: مدارس القرآن التي انتشرت بمنهجية متطورة وأسلوب عمل محترف، واعتماد على تقنيات جديدة، وكذلك العدد الضخم من الجمعيات الخيرية والأهلية التي تدار بمجلس إدارة أقل من الثلاثين عمرا، وبأفكار تنموية رائدة" وانطلق أتباعهم: "نحو عمل اجتماعي شبابي لا يقول: نحن إسلاميون، بل ينخرط فيه الجميع، محجبات وغير محجبات، متمسكون بالصلاة أو غير ذلك!، ولم يجعل هدفه التغيير الكامل لهؤلاء الأفراد، ولكن التعاون على أهداف

بعينها: زيارة لملجأ أو المشاركة في إنشاء مستشفى أو غير ذلك ومما يلاحظ على هؤلاء الأتباع وجود الهم للإسلام، لكن التعاطي ونمط المعيشة والتصورات تتم وفقًا لنمط الحياة الغربية بصورة طاغية ولافتة، وأعتقد أن الرجوع للأحكام الفقهية يمكن أن يُدين نموذجًا هذا توجهه، كما أن هذه الفترة التي نحياها كفيلة من الناحية الحضارية أن تُوجه نحو أنماط أخرى من الحياة مختلفة عن هذا النموذج، و أن التعاطي مع الأغاني والسينما - الغربية خاصة - وغير ذلك لا يُرضَى عنه فقهيًا بجملته" إنه جيل يتلقى ثقافته بنفسه عن طريق الكم الهائل من الفضائيات ومواقع الإنترنت ويتمتع بقدر من المكانة الاجتماعية، باعتبار الطبقة التي نشأ فيها وظهر منها كما أنه متمرد اجتماعياً نتيجة الحرية التي يتلقها في أسرته وله علاقاته المنفتحة مع الجنس الآخر في العائلة والجيرة والدراسة والعمل ويشكل مواقعه الخاصة على الإنترنت، والتي تجمع بين ما هو إسلامي وما هو مخالف للإسلام.. فصور مشاهير الممثلين والرياضيين والمغنيين.. إلخ، مع روابط الأغاني والموسيقى (المنتخبة) ويعد برامجه المتنوعة على القنوات الفضائية، وهي متأثرة إلى حد بعيد بالبرامج المختلطة الأخرى إنه جيل منطلق يريد تحقيق الأفكار التي اقتنع بها، ونشر الآراء التي تبناها !

مستغلًا الوسائل العصرية كالفضائيات والإنترنت والصحافة والمجلات!
وتتوفر له كافة وسائل الترفيه والمتعة وإمكانيات الاستقلال بأعمال خاصة
وليس عند هذا الجيل إشكالية في التعايش مع المفهوم العلماني للدين نظرًا
لاختلاط المفاهيم والأحكام الشرعية لديه. وهؤلاء في الغالب هم نتاج
فقهاء الرُّخص والتيسير والتسامح، ونتاج ما عرف بـ(الدعاة الجدد)،
لذلك فلا غرابة أن تجد في سلوكياتهم الكثير من المخالفات الشرعية
الظاهرة وفيما ينظرون إلى أنفسهم بأنهم عاملين ودعاة للإسلام (الذي
يحملونه)، تظهر على أشخاصهم وسلوكياتهم مخالفات شرعية، هي في نظرهم
أمورا مباحة أو سهلة وبالتالي فإن أعمالهم العشوائية والمستقلة تأخذ طابعًا
منافسًا للطابع التقليدي للجهود والأعمال القائمة ومن الأمثلة على دعاة هذا
التيار ا عمرو خالد : "فهو من هذا الوسط، الذي يذهب للنادي ويختلط
مع فتيات عائلته، فهو لن يقدم وجهة نظر مثالية أو متخيَّلة، بل على
العكس، سيقدم وجهة نظر واقعية تحاول أن تحرك بالواقع بعض الشيء،
لا أن تتجاوزه وتتخطاه، فليس ثمة فراغ اجتماعي، بل هو مجرد التعديل
على النمط، فلا مشكلة أن تتحدث الفتاة في التليفون مع ابن عمها، ولا
مانع أن ترافقه إلى عمل أو زيارة، ولا مشكلة أن يتصلا ببعضهما لترتيب

زيارة إلى ملجأ أو رحلة جماعية مع بعض المسنين، أو ينزلا في سيارة أحدهما لشراء احتياجات هذه الرحلة، وهذا ما يمكن أن يفسر ابتعاد عمرو خالد عن هذه المساحة، وعدم محاولة أن يتدخل في مساحة لن يستجيب له أحد فيها؛ فالجانب الاجتماعي والفقهي سيتعرض لحراك كبير داخل الحركة تأثرًا بهذا الجيل الجديد وعلى سبيل المثال فإن مفهوم عزل الرجل عن المرأة في الزيارات الاجتماعية قد اكتسح سلوكيات الأفراد، على الرغم من أن داعية كبيرًا بحجم مرشد الإخوان عمر التلمساني كان قد أصدر كتاب (المرأة ومكانتها السامية) سخر فيه من هذا المفهوم، وأثبت بأحاديث صحاح أن المرأة يمكن أن تقدم لضيوف زوجها واجب الضيافة، وحمل بشدة على موجبي النقاب على المرأة إنني ألمح خلف هذه السلوكيات ثقة غير محدودة بالنفس، كما أشعر بتجاوز شديد للمرجعيات الفقهية، بالإضافة إلى عملية انتقاء مخلة، سواء بالنسبة لمصادر التلقي (الدعاة غالبًا)، أو في الفتاوى التي تُختار، ولا شك أن تنامي معارف هؤلاء المتدينين الحياتية وقدرتهم المبهرة على التوصل للمعلومات (لا العلم)، والثقة الشديدة بالنفس تشعرهم بالقدرة - ولو الزائفة - على

الاجتهاد.. فتكون المعادلة: اجتهاد العلماء الميسر + اجتهاد شبابي واثق بلا حدود ودون ثقافة شرعية = حالات تساهل وترخص"

يقول الدكتور صلاح عبد المتعال الخبير الاجتماعي المصري، المستشار بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية في مصر، وهو من المتابعين والمراقبين لهذه الظاهرة، في حوار له ": "في تصوري ظاهرة الدعاة الجدد ظاهرة محمودة، وعلينا تشجيعها ومباركتها، وإن كان لي عليها تحفظ، وهو أنها تبتسر الدين وتنتقص من شمولية الإسلام، وإن كان بعضهم لا يريد أن يتناول الإسلام بمفهومه الشامل، ولا يتطرق إلى أمور سياسية حتى لا تمنعه السلطات. غير أنه على أي حال جهد مشكور، وكلٌ يؤجر حسب نيته" ويفسر نجاح تيار "الدعاة الجدد" في أنه: "يقدم للشباب وجبة شهية من (الدين اللذيذ)، دون (التكليف المر)؛ فلم يحمِّلهم هم هذا الدين؛ حيث عرض عليهم دينا "لا شوكة فيه". وقد ذكرنا ذلك ببعض الفرق المتصوفة التي تتقرب إلى الله وتقوم الليل وتصوم وتتعبد، أما المسئولية السياسية ومعايشة مشكلات الناس.. فلا" .

أما الكاتب عاصف بيات، فيرى أن: "هناك تحولا من التركيز على فكرة "الحاكمية للإسلام" إلى التدين الشخصي والأخلاق في المعاملات اليومية،

وهو تحول من فلسفة تستهدف الطبقات الاجتماعية المتوسطة والفقيرة إلى استهداف الطبقات العليا في السلم الاجتماعي، وهذا التحول يجعل الإسلام ليس مشروعًا سياسيًا بقدر ما هو نشاط دعوي يهدف إلى الخلاص الذاتي" إنهم "يتحركون في المساحات الممكنة بعيدًا عن المشاكل، مفضلين ألا تهدر أوقاتهم في محاولة تغيير ما قد يبدو مستحيلًا"؛ والابتعاد عن السياسة كان سر نجاح هذه الظاهرة، وما يميزها عن خطاب جماعات الإسلام السياسي الآخذ في الأفول، كما أن التدين الجديد ذا الطابع (المتعولم) والذي يتصاعد خطابه عالميًا دائمًا ما يتكون وينمو خارج السياسة، إضافة إلى أن خطاب عمرو هو بالأساس خطاب للطبقات العليا والصاعدة التي لا مصلحة لها في أي تغيير سياسي ولا تملك تصورًا ولا رغبة فيه".

مظاهر "التدين الجديد" وآثاره

إن جيل "المتدينين الجدد" ليس وليد اللحظة، بل هو امتداد كما يبدو للتدين الذي بدأ في منتصف القرن الماضي وعاش دوامة الصراع السياسي بين العلمانية والإسلام، وبدا في حينه أنه لم يحقق شيئًا فاتخذ طابع الكسب الجماهيري لمواجهة المد العلماني، ومن ثم ترخص في كثير من

الأمور تماشيًا مع الظروف والملابسات التي أحاطت به في ذلك الوقت!

وهو كأي تغير ناشئ له مظاهره التي لا تخطئها العين أو السمع في المجتمع أو عبر وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة،!

ومن أول مظاهر "التدين الجديد" أنه تدين في أوساط اجتماعية ثرية ورفيعة ومثقفة بل ومنفتحة،

لكن في العقد الذي نعيشه برزت مظاهر التدين وسط طبقات أكثر ثراءً، أو بشكل أدق: الطبقات "الأكثر ثراءً".. مجتمعات (مارينا) التي غزاها الحجاب، ومساجد النوادي الراقية (الشمس والصيد وسبورتنج) التي امتلأت بجمهور كان قد تعود على ارتياد أماكن اللهو، وقد نشر هذا الجمهور في أنديته صلاة القيام والدروس الدينية، وشهدت الجامعة الأمريكية -وهي مكان نخبة النخبة ماديا في مصر- صعودًا لتيار إسلامي متعدد الوجهات والاتجاهات" وهو تدين في أوساط الفتيان والفتيات، أي شريحة الشباب! ففي تونس: "يرى الباحثون أن هناك إقبالًا متزايدًا من قبل فئات الشباب على المساجد، ومن النساء والفتيات -خصوصًا في المدن الكبرى- على ارتداء الحجاب، على الرغم من وجود نص قانوني صريح مانع له" لكن طبيعة هذا الإقبال في تونس: "ترتبط بتوجه

اجتماعي وأخلاقي محض، يقوم على وعي المتدينين بأهمية النأي بالتزامهم الديني عن أي صراع سياسي أو حزبي"، وهذا البعد عن الجانب السياسي ليس إلا نتيجة للحرب التي لاقتها الأجيال السابقة، إلى درجة ينتقدها الغرب على هذه الأنظمة العميلة له أصلًا! وقد صاحب تدين هذه الشريحة من الناس مظاهر غريبة عن الوسط المتدين حقًا وتجاوز الأمر إلى الفضائيات الرسمية وغير الرسمية: "فلم يعد التلفزيون الرسمي يظهر المتدين بالصورة الساذجة التي تلمز الدين وقيمه، بل ظهرت المحجبات في الأعمال الدرامية وانتشرت فيه البرامج الدينية حتى في أوقات ذروة المشاهدة، ووصل الأمر إلى أن تكون البرامج الدينية من السهرات الأساسية (نور على نور، ورب اشرح لي صدري)" وقد بلغت آثار هذا التيار على الصحوة الإسلامية، لقد بدأ التأثير في الحركة الإسلامية بالفعل خاصة في الجانب الاجتماعي الذي هو وثيق الصلة بالجانب الفقهي؛ فقد أصبح داخل الحركة الإسلامية الآن شبه حراك في هذين الجانبين، خاصة أن الحركة قد دعمت نمطًا معينا خلال الثمانينيات. مما يلفت النظر الآن - مثلًا وليس حصرًا- أن كثيرًا من السيدات والفتيات المنتسبات للحركة قد استبدلن ب(الخمار التقليدي) الذي تعود عليه المجتمع المصري

والذي كانت توصف كل من تلبسه ب(الأخت).. استبدلن به غطاء الرأس والصدر القصير المتعدد الأنماط والألوان. هذا التغير وإن أخذ شكلًا مظهريًا إلا أنه ينبئ عن حراك ما، هذا الحراك ربما يكون تم تحت ضغط الأناقة التي يبدو عليها حجاب المتدينات الجدد، وانخراط الكثيرات منهن في مناشط الحركة، وربما تحت ضغط الانفتاح على أشكال الحجاب المختلفة (الإيراني والخليجي والأوربي...)، التي وسعت الخيارات أمام هذا الجمهور الذي تعود على نمط واحد من الاختيارات. ولكنه يبقى تأثرا بالتدين الجديد، وثورة على النمط التقليدي الذي دعمته الحركة -ولو بطريق غير مباشر- في فترة الثمانينيات. ومن هذا التأثير تغير الأنماط السائدة في المناشط الاجتماعية، كالأفراح والزيارات، فأصبح من الطبيعي والمعتاد أن تكون هناك أفراح مختلطة أو رحلات مشتركة، أو ما شابه"

ثانية هذه الملاحظات العابرة حول التأثيرات أيضا: التعامل مع الفنون،

فالقطاعات الشبابية داخل الحركة الإسلامية أصبحت تتعامل مع الفنون بقوة، بل أصبحت بعض التزكيات داخل الحركة توصي بمشاهدة بعض الأفلام السينمائية والأعمال المسرحية، وكثيرة هي النقاشات حول الأعمال الفنية حتى الهوليودية منها داخل مواقع الإنترنت، وساحات

الحوار المتعلقة بالحركات الإسلامية". فهذه الشريحة التي ترى نفسها ملتزمة بالإسلام، وبعضهم يمارس بعض الواجبات الدعوية، وكثيرًا ما يحدثك عن قصة التزامه، وعن روعة التدين الذي وجد نفسه من خلاله، ومع كل هذه المظاهر، فإن ثمة ترخصًا تلاحظه على سلوكياتهم، وسأحاول وضع هذه المظاهر بين قوسين دون ترتيب: (فتيات يضعن الماكياج الخفيف- يتساهلن في التعطر والنمص- ملابس ضيقة أحيانًا- مزاح وضحكات عالية بين الجنسين- حديث بين فتى وفتاة بعيدًا عن المجموع، لا مانع أن يكون استشارة أو شكوى -متابعة أحدث الأفلام في السينما العربية والغربية- سماع الموسيقى الغربية ومتابعة أخبار الفنانين- عدم ظهور الاهتمام بغض البصر... إلخ). هذه المظاهر يمكن التأكيد عليها من خلال متابعة جمهور الدعاة الجدد من خلال الفضائيات، أو حتى من خلال التجمعات الشبابية في صلاة القيام أو الاعتكاف في رمضان".

ومن المظاهر المصاحبة - وربما تكون أيضا من الأسباب - في هذه الظاهرة: "القص واللصق من الفتاوى والاجتهادات والتي تجري على أشدها لإكساب المشروعية لكثير من الأفعال التي درج الشباب عليها، فبدلًا من أن

يتنازل عن عادات ما قبل التدين إذا به يحاول أن يجد لها مبررًا شرعيًا محترمًا" وحتى لا نتجاوز في القول، ونعمم في الأحكام، فإن مظاهر "التدين الجديد" -الذي نحن بصدده- تختلف من بلد لآخر.. بحسب طبيعة الدعاة فيه، ومدى محافظة المجتمع أو انفتاحه، لكن هناك مظاهر مشتركة إلى حد ما، وهي في حد نظري: - تصنيف الفقهاء والعلماء إلى متشددين ومتسامحين، وأخذ الفتاوى عن الطرف الثاني بمبرر تسامحهم ليس إلا أي عدم الاعتماد على العلمية والموضوعية في انتقاء الأقوال، وإهمال النصوص والبحث عن الرخص بشكل واضح - وجود مظاهر مخالفة للشريعة في السلوك أو إهمال واجبات بدعاوى تقسيم الدين إلى قشور ولباب! فالأزياء ذات الزينة والجمال مع حجاب (الشعر فقط) لدى الفتيات أصبح مظهراً للتدين المقبول والمشجع عليه، بل خصصت إحدى القنوات الفضائية المنتسبة للإسلام برنامجا عن الأزياء لتقديم "الموضة" التي يمكن أن تظهر بها المرأة المسلمة في الشارع والعمل.. مع وجود مقدمة وعارضات أزياء "إسلاميات"!

هذا السبيل من "التدين الجديد"، في الجامعات والمعاهد، إلى درجة خروج رحلات مشتركة.. في بعض الدول! وتعد هذه الرحلات برامج

دعوية "يجدد فيها الإيمان"!   - صبغ المخالفات الواقعة في المجتمع بالصبغة الدينية في بعض الأحوال، أو إعطاءها الشرعية، وقد يصل الأمر إلى الحكم على أحوال شركية وأقوال كفرية بأنها صور من الإبداع الذي لا صلة للدين في الحكم عليه، وبالتالي يثنى على بعض المرتدين ويحكم لهم بالإسلام! فالإسلام عند أتباع هذا الفريق قومية ينتسب إليها وليس دينًا يلتزم به!!

ففي اليمن مثلاً، نشرت صحيفة منسوبة إلى الإسلام قصيدة كفرية، تحت مبرر الإبداع! فما كان من الحركة التي تقوم على هذه الصحيفة إلا أن شكلت لجنة شرعية للرقابة على الصحيفة، بعدما ترددت الانتقادات حول هذا الأمر، فاعترضت اللجنة بدورها على رئيس التحرير، فما كان منه إلا أن قدم استقالته.. رافضًا تدخل العلماء فيما لا يحسنون!   - نشر ثقافة التسامح مع الكفار فضلاً عن المبتدعة، وهو تسامح يتجاوز الثوابت الشرعية في تأصيل الرؤية تجاههم وإبداء المواقف إزاء أعمالهم والتعامل معهم !

خاتمة

إننا من أكثر شعوب العالم في معدلات أداء العمرة، التي أصبحت مواسمها تغطي السنة كلها تقريبا، بل إن بعض كبار التجار بدأوا في التنافس على أداء صلاة الجمعة أسبوعيا في المسجد الحرام، والغريب أن أكثر التجار رفعا للأسعار وتلاعبا فيها هم الأكثر حرصا على إظهار التدين، ويعتقدون أن أداء الصلاة والإكثار من العمرة والحج سوف يمسح عنهم سيئاتهم وذنوبهم الكثيرة، وكأنهم عقدوا صفقة تجارية وفقا لفهمهم للدين، يكسبون فيها في الدنيا والآخرة.

نحن من أكثر شعوب العالم في ممارسة التحرش الجنسي، ومن أكثرها مشاهدة للأفلام الإباحية، والفساد عندنا أصبح قاعدة يصعب أن يفر من شبكتها أحد، ناهيك عن التردي العلمي الذي جعلنا من أكثر شعوب العالم جهلا، وأقلهم إنفاقا على البحث العلمي وقراءة الكتب.

أكثر ما تراه على صفحات التواصل الاجتماعي هي الأدعية، فالدعاء خرج من كونه تقربا وتضرعا إلى الله في السر إلى مادة للدعاية عن

التدين، ويعتقد بعض من ينشرون الأدعية أنهم سيحصلون على نسبة كبيرة من حصيلة الحسنات، التي ستتوقف على عدد القراء وعدد من يعيدون نشرها، وهذا يعني أن ما يسيطر عليه في التدين هو مفهوم الصفقة والحسابات، وليس الإيمان الخالص والمنزه عن حسابات الربح والخسارة.

أما الجرائم الاجتماعية الواسعة فقد ازدادت انتشارا مع تديننا الشكلي، فالامتحانات يجري تسريبها، ويشارك الكثيرون في نشرها، لتوسيع دائرة المستفيدين، والمدارس التي تجري فيها الامتحانات في المدن والقرى يتم نشر شبكة من مكبرات الصوت حولها لإذاعة البث التفصيلي للإجابات النموذجية، وكأن الغش أصبح من الفرائض أو أعمال الخير التي يتسابق عليها الناس علنا وبشكل جماعي.

وعندما يذهب شخص إلى مسجد ويطلب خفض صوت الأذان لأن له ابنا مريضا أو آخر يذاكر دروسه فإنه يلقى معاملة الفاجر العاصي الذي لا يحب الأذان، ويكفي أن تفتح شرفة منزلك أو عملك لتجد أن كل مئذنة محاطة بحزام من مكبرات الصوت، وجميعها تتبارى في رفع الأصوات، التي تتداخل حتى تكاد تصم الآذان وتؤذيها، بينما كان هدف الأذان تنبيه الناس لموعد الصلاة، وكان اختيار المؤذن يقوم على أساس جمال

الصوت، وكان يصعد على المئذنة ويصل صوته إلى محيط المسجد فقط، أما الآن فكأننا نتنافس على إيصاله إلى الأمريكتين واستراليا.

نادرا ما نجد قرية تجمع التبرعات من أجل مستشفى أو مدرسة، لكن كل القرى جمعت كثيرا من التبرعات لإنشاء مساجد جديدة، رغم أننا أعلى معدل في العالم في بناء المساجد وأقلها في التعليم والصحة.

يبدو أننا كلما ارتكبنا الأخطاء والذنوب نعتقد أن السبيل إلى تصويبها هو بهذا التدين الشكلي، الذي يسيء إلى الدين، ولا يصلح المجتمع، وعلينا أن ندرك أن تصويب الأخطاء يبدأ من العلم والعمل، وليس بالدعاء أو كثرة الصلاة أو أداء العمرة تلو العمرة، فمنذ ظهر هذا التدين المظهري ونحن نتحدر في العلم والأخلاق والإنتاج والمعاملة الحسنة، وكأن التدين الشكلي يمنح المبرر لمزيد من الخطايا والجرائم والأنانية والإعتداء على المال العام وانتهاك حقوق الآخرين، ويخفف الشعور بالذنب، ليفتح الطريق أمام ارتكاب ذنوب جديدة.

هذا النوع من التدين لا يجلب راحة أو طمأنينة، وهو نوع من الخداع، طالما لم يهذب النفوس ويرتقي بالأخلاق والحس العام والتسامح، وعلينا

ألا نستحسن هذا النوع من التدين المظهري، وأن يكون تقديرنا لمن يعمل ويكد من أجل نفسه ومجتمعه، وأن نعيد الاعتبار للعلم والعمل والتطوع من أجل إنقاذ محتاج أو نصرة مظلوم، فهذا هو التدين الحقيقي.

كان كثير من الناس يربطون اخلاق المرء بمقدار تدينه، ويفترضون أن التدين ملازم بالضرورة لحسن الخلق والعدل .

ولكننا الان نشاهد اشخاصا" يدعون التدين ويقيمون الشعائر الدينية المختلفة، "واحيانا المبالغة فيها" في العلن ، ولكنهم في الخفاء يخونون الامانة ويبتزون الفقير ولايكفون الاذى عن الناس اوالطريق، وحتى عدم مراعاة الطهارة والنظافة التي يؤكد عليها الدين ، ناهيك عن انتشار الفساد بهذا الشكل المخيف .

كما نلاحظ كثرة السؤال عن الحلال والحرام في المأكل والملبس ، دون السؤال عن مكارم الاخلاق او السلوك الحسن المكمل للدين ، حيث يقول الرسول الكريم (إنَّما بُعثت لأتمِّم مكارم الأخلاق) .

ويخاطب رب العزة نبيه الكريم وانك لعلى خلق عظيم .

تعتبر القيم الأخلاقية أساس الدين والتدين . ولايمكن تصور الالتزام بالدين دون اخلاقياته .

والاديان كافة تضع قواعد اخلاقية صارمة لتنظيم العلاقات الانسانية . وتكون مترافقة مع الطقوس والشعائر الدينية .

ولذلك كانت علاقة الدين بالأخلاق متشابكة ومتداخلة الى حد كبير .

ولكننا الان لانستطيع القول إن الأخلاق البشرية الحالية مترادفة او مرافقة للدين او التدين .

حيث اصبح كثير من الناس في عالم اليوم يعتقدون أن الدين ليس ضروريا لأخلاق الإنسان ، فالدين علاقة الانسان بخالقه ، والاخلاق علاقة الانسان باخيه الانسان او بمحيطه .

وبالتالي فليس من الضروري ان يتبنى الانسان دين معين من أجل الحصول على القيم الأخلاقية . فاخلاق الانسان بدأت بالدين حتى اصبحت الزامية من خلال ربط الدين بالاخلاق ، وجاء العقاب والثواب على وفقها . ولكن تطور الاخلاق جرى بمعزل عن الدين .

حتى اصبحت الاخلاق غير مرتبطة بالدين وجودا وعدما .

فالأخلاق من المنظور العلمي أو العقلاني هي سلوك انساني واجتماعي متطور ومتحضر . اما التدين والطقوس الدينية بشكلها الحالي فقد اصبحت نتاج تراكمي للعادات والتقاليد اكثر منها ايمانا بالدين اوبالقيم الأخلاقية ، بل كثيرا من هذه الطقوس ابتعدت عن الدين الذي كان وسيلة اصلاح اجتماعية ، فتحول في كثير من الأحيان الى وسيلة سلطوية لتنفيذ مهمات واهداف سياسية واقتصادية لاعلاقة لها بالاخلاق

ان مانراه اليوم من عدم الالتزام بالمبادئ والقيم الدينية الحقة والاقتصار على الطقوس والشكليات ومارافقها من انحطاط القيم الاخلاقية لدى بعض المتدينين في مجتمعاتنا يعود اما الى ضعف الايمان الحقيقي بالدين ، او اتخاذ الدين وسيلة لخداع الناس والاحتيال عليهم ، وهي بالتالي ادوات نصب وتضليل .

أننا نعيش الان في ازمة فعلية في التدين وفي الاخلاق معا" ، فجاء التدين الظاهري في كثير من الاحيان كغطاء لغمط حقوق الناس أو الاستيلاء على المال العام .

اين مدعي التدين من مكارم الاخلاق التي يزخر بها التراثِ الإسلامي مثل العفة، والرضى، والبر والإحسان، والصدق، والأمانة، والحِلم ، والكرم، والإيثار، والعدل، والعرفان ، والوَفاء، ، والتواضع ، والتعاون، والتسامح، وفعل الخير، واجتناب الشبهات وغيرها .

وهكذا انقطعت العلاقة بين التدين الظاهري والأخلاق، حتى اخذنا نشاهد حالات مؤلمة من الاستيلاء على الاموال العامة والخاصة وضياع الحقوق ، واستغلال حاجة الناس لكسب المال او الصعود الى السلطة باي ثمن ، واكثر هذه الممارسات تصدر من اناس يتمظهرون بمظاهر دينية مخادعة .

وهكذا اصبحنا نشاهد "مع الاسف"

أن الافراد والمجتمعات الأكثر تديناً، أو التي تدعي التدين على الأصح، هي الأكثر فساداً في الإدارة، والأكثر كذباً في السياسة، والأكثر هدراً للحقوق، والأكثر تحرّشاً بالنساء وغمط حقوقهن ، والأكثر اساءة للأطفال، ثم يأتي هؤلاء الاشخاص ليقولوا لنا بوقاحة إن سبب فساد الأخلاق هو نقص في الدين !

لاشك أننا نواجه أزمة حقيقية .. أزمةٍ في الأخلاق وازمة في التدين على حد سواء .

حيث تدهورت الأخلاق العامة نتيجة تدهور سلوكنا الفردي والجمعي بشكل واضح ، وهذا ينطبق على كثير من الناس رغم اختلاف توجهاتهم العرقية اوالطائفية او السياسية .

كما تدهور التدين الحقيقي لطغيان الطقوس والشكليات على حساب الايمان الحقيقي بالله وبقيمه ، واتخاذ الدين وسيلة للمكاسب السياسية والفردية .

ان القيم الاخلاقية هي حجر الزاوية الذي يرتكز عليه بناء الأجيال المتعاقبة القادرة على الصمود في وجه تحديات المستقبل.

لذلك تواجه الأخلاق في مجتمعاتنا تحديًا كبيرًا يتطلب التفكير الفردي والجماعي .

ولمنظمات المجتمع المدني ووسائل الإعلام والتعليم والمؤسسات الدينية الرصينة دور مهم في الحفاظ على القيم الأخلاقية والدينية الجيدة ، وايجاد طريقة فاعلة في السماح للافراد بالعيش في المجتمع وفقًا لمثلهم

العليا ، وتجنب مصادرتها ، مع الحفاظ على الحد الادنى من القيم والمبادئ الاخلاقية العامة التي يجب أن يحترمها الجميع . .

ما الذي خسرناه إذن بسبب انتشار ظاهرة التدين الشكلي؟

1. خسرنا الوضوح، فما عدنا نستطيع التمييز بين متدين وغير متدين، صار سوء الظن ملازماً لنا كآلية نحمي أنفسنا بها من أي تناقض قد تكشفه لنا المواقف في الآخر، بين ما يعكسه مظهره وحقيقة جوهره.

2. خسرنا السؤال عن الأخلاق والقيم، وصرنا نغيّر الشكل في المناسبات الدينية، دون تغيير التعامل، ونتمسك بالطقوس دون البحث عن معانيها، دون أن يحب أحدنا لأخيه ما يحبه لنفسه.

3. خسرنا الاهتمام بقضايانا الكبرى التي سيفيدنا حلها كالأزمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي نعيشها، في مقابل التركيز على مواضيع غير مؤثرة، كموقع الفنون بين الحرام والحلال، أو خوض نقاشات حول كيفية ارتداء الآخرين الثياب واستعمال العطور، وهلمّ جراً في هامش المواضيع.

4. خسرنا الدين في العمل، آلية لتحقيق التنمية، منظومة قيم ومبادئ تبعدنا عن الكسل، وتزيد من إنتاجيتنا المعرفية، والاجتماعية، والاقتصادية.

5. فقدنا التدين المبنيّ على الجرأة في تحديد الباطل والحق لمناصرة هذا الأخير، فصرنا نشاهد تطبيلاً دائماً للقويّ، ووقوف مَن يدّعون التدين ضد الضعفاء أو على الحياد.

6. أمسينا نرى أشخاصاً يتحدثون ويتصرفون بتطاول على الآخر، كأنهم مبشرون بالجنة لمجرد إطالتهم للحى وحفهم للشوارب وتمسكهم بالطقوس، فتناسوا كيف أنهم قد يعيثون في الأرض فساداً، متوهمين أنهم المصلحون.

قد نبقى مع عدِّ الخسائر دون توقف، لكن عدد الكلمات والوقت يضعان حداً لذلك، وقد يظهر أنَّ من الأفضل التوقف للتذكير بضرورة النظر من زاوية أخرى، من زاوية الأمل لمجتمع أفضل ونهضة حقيقية، بعيداً عن ضجيج الشعارات السياسية التي تنتهي فور نهاية الحملات الانتخابية، فالعالم لم ينته بعد، والمجتمعات دينامية تستطيع تجاوز الأزمات.

حاوِلوا إذن التوقف للحظات وفكّروا، أين تدينُّكم أمام هذا الفساد السياسي المتعاظم؟ أمامَ كلِّ هذا الكسل والفساد الذي يسود في تعاملاتنا الاقتصادية، وأمام حضور الرِّشوةِ ضرورةً لقضاء الحاجات؟ أين تدينُكم حين يتعلق الأمر بنصرة الضعفاء ؟

تم بعون الله